

دراسات إسلامية

- ٨ -

شہید العشق واللهم

رابعة العدفة

تأليف

عبد الرحمن ببروي

الناشر

مكتبة الخصبة المصترة

٩ شارع عدلی باشا - القاهرة

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوى

ا - مبتكرات

- ٣ - مرأة نفسي (ديوان شعر) .
- ٤ - العور والنور .
- ١ - الزمان الوجودى .
- ٢ - هموم الشباب .

ب - دراسات أوربية

- ٢ - قلوب الفلاسفة .
- ١ - الموت والعقربية .

خلاصة الفكر الأوربى

- ٥ - ارسطو .
- ٦ - ربيع الفكر اليوناني .
- ٧ - خريف الفكر اليوناني .
- ٨ - برجسون .
- ١ - نيتشه .
- ٢ - اشنجلر .
- ٣ - شوبنهاور .
- ٤ - أفلاطون .

ج - دراسات إسلامية

- ١ - التراث اليوناني في الحضارة .
- ٧ - منطق ارسطو في ٥ أجزاء .
- ٨ - شهيدة العشق الالهي .
- ٩ - شطحات الصوفية .
- ٦ - من تاريخ الالحاد في الاسلام .
- ٣ - شخصيات فلقة في الاسلام .
- ١٠ - روح الحضارة العربية .
- ٤ - الانسانية والوجودية في الفكر .
- ١١ - نظرية الانسان الكامل في الاسلام .
- ١٢ - الاشارات الالهية للتوحيدى .
- ٥ - ارسطو عند العرب .
- ١٢ - الآراء الطبيعية لفلوطرس .
- ٦ - المثل العقلية الأفلاطونية .
- ١٤ - أفلوطين عند العرب .

د - ترجمات

الروائع المائة

- ١ - ايشندروف : من حياة حائز بائز .
- ٤ - بيرن : اسفار اتشيلد هارولد .
- ٢ - فوكيه : اندين .
- ٥ - هيلدرلن : هيبريون .
- ٣ - جيته : الديوان الشرقي (في جزئين) .
- ٦ - نيتشه : زرادشت .
- ٧ - رلكه : صحائف مالتى برجه .

دَرَاسَاتٍ إِسْلَامِيَّةٍ

- ٨ -

شَهِيدُ الْعِشْوَانِ الْمَهْمَنِ

رَابِعَةُ الْعَدْوَيَّةِ

تأليف

عبد الرحمن بَرْوَى

الناشر

مكتبة الخصبة المصترية

٩ شارع عدل باشا - القاهرة



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

فهرس الكتاب

- استهلال : بيئة رابعة : مدينة ورابعة البصرية (٤٤) وما يليها) ؛
البصرة (٦٢) . معيار التمييز بين كلتيهما (٤٦ - ٤٧) ؛
- ١ - مصاعب البحث في رابعة تقد اخبار رابعة وفقاً لهذا المعيار
(٨٠ - ٥٠) ؛ اخبار زواج رابعة (٦٧ - ٦٠) .
- ٢ - نشأتها الاولى محاطة بالاساطير (٧١ - ١٠) ؛ رابعة مولاة فارسية او مسيحية الاصل (١٠ - ١١) ؛ بدء شعورها برسالتها (١٢ - ١٣) ؛ اسرها وتحريرها (١٤ - ١٥) ؛ رابعة تختلف مهنة العزف على الناي (١٦ - ١٧) ؛ حياتها اللاهية (١٧) ثم توبتها (١٨ - ١٩) .
- ٣ - توبتها بفضل الله (٢٠ - ٢١) ملامح هذه التوبة ومعالمها (٢٦ - ٢٢) ؛ رابعة في طريق العشق لله (٢٦ - ٢٩) .
- ٤ - أدوات العبادة عندها (٢٩) وما يليها) : التهجد وقيام الليل (٢٩ - ٣٢) ؛ استذكار الموت (٣٢ - ٣٥) .
- ٥ - عهد التنقل في حياة رابعة : الحج (٣٥ وما يليها) ؛ تطور معنى الحج لديها : المراحل الاولى (٣٧) ، المراحل الثانية (٣٧ - ٣٨) ، المراحل الثالثة (٣٨ - ٣٩) ؛ الحج يتطور في طريق التنزية والتجريد (٤٠ - ٣٩) ؛ رفع الظاهر عن معنى الحج وتجريده (٤٠ - ٤٣) .
- ٦ - الخلط بين رابعة الشامية (٨٧ - ٨٥) ، الزندة المعاصرة (٨٥ - ٨٤) .

- ١١ - الفناء في الله وعبادة الالم (٨٧ - ٩٠) .
- ١٢ - حملة رابعة على الاخرويات وانكارها حقيقة الجنة والنار (٩٠ - ٩٩) ؛ القبر المنسوب الى رابعة في دمشق (٩٩ - ١٠١) ؛ وما يليها) .
- ١٣ - الكرامات المنسوبة الى رابعة وصياغتها وفقاً للنموذج العام للصوفى حوله (١٠٤ - ١٠٢) .
- ١٤ - اسطورة رابعة : قبرها (٩٦ - ٩٦) ؛ كراماته الشعبية (١٠٠ - ١٠٠) .
- ١٥ - تاريخ وفاة رابعة والاختلاف (٩٦ - ٩٦) .

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

رقم مسلسل

١	الجاحظ (١٠٨)
٢	السراج (١٠٨)
٣	الكلاباذى (١٠٩)
٤	المجويرى (١٠٩)
٥	أبو سعيد بن أبي الحير (١٠٩)
٦	ما أورده ماسينيون (١١٠ - ١١٢) : أبو طالب المكي ، أبو نعيم ، خثييش ، عين القضاة ، ابن العماد ، ابن تيمية ، الأفلاكى
٧	أبو القاسم النيسابورى (١١٢ - ١١٧)
٨	الزبيدي (١١٨ - ١٢٢)
٩	الرسالة القشيرية (١٢٤)
١٠	ابن الجوزى : رابعة العدوية (١٢٤ - ١٢٨)
١١	ابن الجوزى : رابعة الشامية (١٢٨ - ١٢١)
١٢	ابن تيمية (١٣٢ - ١٣٢)
١٣	ابن شاكر الكتبى (١٣٢ - ١٣٢)
١٤	السراج (١٣٢ - ١٣٥)
١٥	المناوى (١٣٥ - ١٤٢)
١٦	العطار (١٤٢ - ١٤٢)
١٧	الشيخ الحرفيش (١٦٠ - ١٦٣)
١٨	ابن تفرى بردى (١٦٤)
١٩	بهاء الدين العاملى (١٦٤)
٢٠	اليافعى (١٦٥ - ١٦٧)
٢١	حكایات عن رابعة في مخطوطات الفاتيكان (١٦٧ - ١٦٨)
٢٢	عبد الرحمن الجامى (١٦٨ - ١٦٩)
٢٣	محرم بن أبي البركات الزيللى (١٦٩ - ١٧٠)
٢٤	ابن العماد الحنبلى (١٧٠)
٢٥	أبو الحسين المطى (١٧٠ - ١٧٢)
٢٦	عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسى (١٧٢ - ١٧٤)
٢٧	أبو بكر الحصنى (١٧٤ - ١٧٨)
٢٨	سبط ابن الجوزى (١٧٨ - ١٧٩)
٢٩	عبد الرحمن الجامى (١٨١ - ١٨٢)



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com دايم بديل

شهيدة العشق الالهى

فينيسيا العربية ترث^١ كالآل الآخر بالهوايل في روى الساغبين اللاغبين
 الضار بين إليها من أعماق الفيافي في قلب الجزيرة العربية؟ حتى إذا بلغوها وأناخوا
 الإبل عند المربي دخلوا المسجد الجامع من باب البادية، فبهرتهم دقة الأساطين
 وبراعة الفن الذي أضفاه زياد بن أبيه على هذا الآخر الرائع للعمار الإسلامي
 الأول^(١)، وجأوا بأبصارهم المفبرة برمال الباادية إلى هذه التقوى المترفة، فاستشرعوا
 متّماً ينتظرون على الجانب الشرقي ناحيتي الشمال والجنوب حيث السفن الزاهية
 تنحدر من الشمال قادمة من بغداد في نهر مَعْقِل ، والجواري المنشّات في الخليج
 الفارسي تُمْسِخُ عُباب نهر الأُبَّابَة متصاعدة من الجنوب في وقار لأنّها مُوَقَّرة بأعن
 التلّع الحمّلَة إليها من الهند والصين .

تلك هي مدينة البصرة^(٢) التي أنشأها عتبة بن غزوان سنة ست عشرة هجرية
 (= ٦٣٧ ميلادية) بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كي تكون فيها نقلة
 بين الباادية والحضر ، بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان وبين الترف
 الناعم الماهم في أوداء القدسية الشهوانية . ولذا جاءت منيجاً من هذين الطرفين
 المتبعدين في تحنيطها ومساق الحياة فيها ، وكانت روحها مسرحًا لمسألة هذا
 الأزداج التوتر العنيف في طبيعتها . وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها :
 في روح كلٍّ تسكن طبيعتان متعارضتان : إحداهما تتلمس غذاءها من قوت
 الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب . ولن تستطيع إحداهما القضاء

(١) يراجع باقوت : «معجم البلدان» ، نشرة فتنفلد ، ج ١ ص ٦٤١ — من ٦٤٣ .

(٢) راجع : لوسترانج : «بلاد الخلافة الشرقية» ص ٤٤ — ٤٥ G. Le Strange: The
 Caliphate ١٩٠٥ Lands of the Eastern Caliphate ، و «دائرة المعارف الإسلامية» ،
 تحت المسادة ؟ و باقوت ، الموضع السابق ، و كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل نشرة كرامرز
 في ليدن سنة ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٢٣٥ — ٢٣٨ J. H. Kramers

على الأخرى ، بل سيظل التعارض قوياً عنيناً ، وفي عنته يقوم ذلك التوتر الحى الذي يجعل من حيوانهم مصدراً للتشويق لا يقل في قيمته عن مذاهبهم . ماذا أقول ! بل في حياة أكثرهم ما يفوق مذهبهم بمرابل علة . ولذا يجب على الباحث أن يتلمس عندم كلتا الناحيتين المتعارضتين ، وأن ي الفلسف حيوانهم على أنها لذواتٍ وجودية باطنها زاخر بمحكمات التفتح على ضوء المجهول . والذوات الوجودية التي من هذا القبيل تحيى في الأسطورة كما تحيى في التاريخ ، لأن التاريخ يستحيل عندها إلى أسطورة والأسطورة تستحيل إلى تاريخ ، فلا تستطيع أن تميز بين الجانبين بوضوح . وحتى لو استطاع ذلك المؤرخ للتزعم لما أجدى هذا في التفسير ، لأن حياة هؤلاء بعد وفاتهم أقوى بل وأصدق . لذا يجب أن نعد فترة عبورهم في الدنيا بمناثبة زناد يقدح الشرارة المقدسة التي هي ذاتهم . وستستمر تلك الشرارة تضيىء الناس قدرًا من الزمان يتوقف على قوة الشرارة الأولى . فمن الخطأ أين الخطأ في الفهم التاريخي السليم أن نطرح جانب الأسطورة ، لأن هذه الأسطورة هي لحة التاريخ الحقيقي الحى لتلك النفوس الخارقة .

فإلى جانب الحياة اللاهية التي عمرت بها القنواتُ والمتجارُ مما كان خيراً إطار لقصص «ألف ليلة وليلة» ، هناك الرابط التي تشيع فيها الزهادة والقداسة ؟ وإلى جانب الأسواق الصاخبة بمنشأة الماداة وشئون الدنيا ، كانت المساجد والمكتبات العامة بمناثبة معابد للفكر الرفيع . ففي ساحة السوق — حيث ضجيج الأعمال وعقد الصفقات ، واحتلاط الأجناس الواقفة من شتى الأصقاع ، وأسباب الترف — كان يقوم المسجد الجامع الثاني الذي كان أفتر مساجدها حتى لم يكن له في العراق بأسره نظير . فإذا ما تزود من بالسوق من أخفم السلع المادية أوى إلى المسجد فطاقة على حلقاته : هنا حلقة النحوين واللغويين يجتمعون فيها الجدل الصارخ حول شاردة من شوارد اللغة قذف بها في جمهور كوفيْ جاء محملًا بأسلحة أهل بلده ؟

وهناك مجلس الحسن البصري نسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقي موعظه الضاربة في فياف الزهد فيستدرُّ الدمع من مآق الحاضرين ، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية الناضرة ، أو تشار فيه مسائل من التوحيد سر عان ما تُشيم الحرارة في هذا الجوِّ الرقيق . فإذا ما جَنَ الليل وسكن الأحياء وجَسَتْ خلال المدينة — شأن الفرباء ذوي النفوس الظلمة المفاسدة — ترامت إلى مسامعك أنفاس اللهـو العنيف في نفس الوقت الذي يقرع أذنيك فيه تضرعاتُ المتهددين القاتلين . هنا الألهـون يخرون بزوارفهم الزاهية في مياه تلك الفتواف الشابكة يمزفون ويعربدون ؟ وهناك في زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستلمون الموت والقبر أفكاراً وموضوعات لتأمل الحزين والعظة البالغة والعزوف عن الدنيا . هنا أمثال ابن أبي عَيْنَة يقضون الليالي البيض بين أحضان الشهوة الآئنة في إقبال لهيف على نِعَمِ الحياة^(١) ؟ وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسى من لا يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الماوية إلى الله ، تراه دائماً هاماً بين المقابر ، وفي الليل يضع في عنقه غالباً من حديد ثم يضرع وي بك حتى الصباح^(٢) : أولها يرتاد مِنْطَقَةِ الْأَبْلَةِ حيث القصور والبساتين والمناظر الأنique وبالبرك الفسيحة المرصوفة وغرائب الملاذ وتحف المترففين^(٣) . والآخر لا يرتاح إلا إلى الباادية ، أو يتأنى النغيـل في الخريف وقد اسود جسمه بما حَطَّ عليه من غربـان قواطع ، فكان منظره داعياً إلى التأمل الساجي للبال الكافـر والقلب الـهيف .

(١) راجع أشعاره في التشوق إلى لِيَلِيَّةِ الـلـاهـيـة في البصرة لما أن أرتعـل إلى جرجـان ، في باقوـت : « معجم الـبلـدان » ، نـشرـةُ مـسـتفـلـدـلـجـ ١ـ منـ ٦٥١ـ .

(٢) راجع : « طبقات الأولـاء » ، لمـبدـ الرـؤـوفـ المـلـاوـيـ ، مـخـطـوـطـةـ بالـقـاطـهـرـيـهـ برـقمـ ٤١٦٤ـ عامـ ١٤٠١ـ .

(٣) ابن حوقـلـ : « صورـةـ الـأـرـضـ » ، نـشرـةـ كـرامـزـ ، مـنـ ٢٣٦ـ ، لـيدـنـ سنـةـ ١٩٣٨ـ .

فَهُلُوا مِنِ الْآنِ، أَيُّهَا السَّادَةُ، إِلَى كُوخٍ وَضِعْفٍ وَلَكِنَّهُ عَارِسٌ بِالْقَدَاسَةِ، تَسْكُنُهُ
عَبْرَوْزٌ سُجَّلَتْ سَرِيرَتُهَا وَقَدْ ذَرَفَتْ عَلَى الْمَائِنِينَ، «كَأَنَّهَا الشَّنَّ تَكَادُ تَسْقُطُ»^(١).
كُلُّ مَا فِي الْبَيْتِ قَطْعَةٌ مِنَ الْبُورِيِّ الْخَلْقِ، «وَمِشْجَبٌ قَصْبٌ فَارِمٌ طَولُهُ
مِنَ الْأَرْضِ قَدْرُ ذَرَاعِيْنِ، وَسْتَرَ الْبَيْتِ جُلَّهُ»؟ وَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الْأَدْوَاتِ إِلَّا حِبَّ
وَكُوزٌ؛ ثُمَّ «إِنْدُّ هُوَ فَرَاشَهَا وَهُوَ مُضَلَّاهَا». «أَمَا الْمَشْجَبُ فَلَمْ يَكُنْ يَحْوِي شَيْئًا
مِنَ الْمَلَابِسِ لِأَنَّهَا لَا تَكَادُ تَمْلِكُ مِنْهَا شَيْئًا»، وَإِنَّمَا كَانَ يَحْمِلُ أَكْفَانَهَا، فَكَانَتْ
تَسْتَخْدِمُ هَذَا الْمَشْجَبُ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ أَكْفَانٍ كَيْمَانٍ تَضَعُ أَمَامَ عَيْنَهَا مُوضِوِعًا لِلتَّأْمِلِ
أَثْنَاءِ الذِّكْرِ الْمَقْلِيِّ، مِثْلًا مِثْلَ الْقَدِيسَةِ تَرِيزَا الْأَبِيلَاوِيَّةِ — وَالصَّوْفِيَّةُ الْمَسِيحِيَّينِ
عَامَةً — فِي اسْتِخْدَامِهَا نَمْوَذْجُ الْمَعْنَابِ Calvaire. فَصَلَبُهَا هُوَ مَشْجَبُهَا الْمَجْلُلُ
بِأَكْفَانِهَا. وَمَا أَقْوَى الشَّبَهِ — كَمَا سَنَرَى — بَيْنَ هَذِهِ الصَّوْفِيَّةِ الْمَسَالِمَةِ وَبَيْنَ تَلْكِ
الصَّوْفِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ! وَإِنَّ فِي الْدِرَاسَةِ الْمَقَارِنَةِ لِكَتَبِيْمَا لَمْ يَوْضُعْ التَّصُوفَ الْخَاصَّ
بِهِمَا كَمَا يَفْسُرُ كَثِيرًا مِنَ الظَّوَاهِرِ الصَّوْفِيَّةِ عَامَةً.

هَذِهِ الصَّوْفِيَّةُ الْمَسَلَّمَةُ هِيَ رَابِعَةُ الْمَدْوِيَّةِ الَّتِي قَضَتْ عُمْرَهَا مِنْذَ تَوْبَتِهَا
وَهِيَ تَحْتَرِقُ بِنَارِ الْحَبِّ الْإِلَمِيِّ حَتَّى آتَتْ فِي آخرِ حَيَاتِهَا إِلَى تَلْكِ الْحَالِ الَّتِي وَصَفَنَا،
فَكَانَتْ شَهِيدَةُ الْمَشْقَقِ الْإِلَمِيِّ حَقًّا.

وَلَيْسَ لَنَا، وَبِالْأَلْأَسْفِ! عَنْ حَيَاتِهَا مِنَ الْوَثَانِقِ مَا يُسْمِحُ بِتَأْرِيخِ تَطْوِيرِهَا الرُّوحِيِّ
عَلَى نَحْوِيْ مَفْصِلٍ أَوْ شَبَهِ مَفْصِلٍ، كَمَا هِيَ الْحَالُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْقَدِيسَةِ تَرِيزَا الْأَبِيلَاوِيَّةِ
مَثَلًا. وَلَئِنْ كَانَ الْمُؤْرِخُونَ لِلتَّصُوفِ الْمَسِيحِيِّ يَشْكُونُ مِنْ فَقْرِ الْوَثَانِقِ عَنِ الْفَتْرَةِ

(١) ابن الجوزي : «صفة الصفة» ، ج ٤ من ٥٧ ب ، مخطوط بالظاهرية بدمشق رقم ٦٧ تاريخ ؟ و ابن شاكر الكتبى ، «عيون التوارىخ» ج ٣ ورقة ٧ ب (عن سنة ١٣٥٠ هـ) مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٤٤ تاريخ .

الأولى من حياة القديسة تيريرا ، مع أن لها مالها من الترجمة الذاتية والمؤلفات الخاصة التي تشير فيها إلى شوارد من حياتها ، فاذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامي لاعن الفترة الأولى من سيرة رابعة فحسب ، بل عن حياتها كلها وهو لا يكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان إليها ! وحتى هذه الوثائق المُتّهمة الضاربة في نطاق الأسطورة ضئيلة تافهة قد اختلط الأمر فيها إلى أبعد حد لعدة أسباب منها أن لها سَمِيَّةً أخرى تدعى بنفس الاسم أو على الأقل باسم لا يكاد يفترق عن اسمها إلا ب نقطة ، مما كان مثاراً للخلط الفاحش في إيراد أخبارها . وأشهد عن نفسي أني كنت كلاماً توغلتُ في دراستها وتكشفت لي المخطوطات عن وثائق جديدة ، شعرت بشخصيتها تراجع إلى كهف الأساطير أو تحلل أخبارها بين يدي حتى كدت أ Yas نهانياً من الظفر بشيء عن حياتها وأقولها يمكن المؤرخ للتثبت أن يقرره وهو مطمئن الصمير . فكل ما يروى عنها ينساب كالماء بين فروج أنامل الباحث الذي يريد أن يتبعذ منها نقداً سليماً في البحث العلمي . على أني قد حاولت جهدي مع ذلك أن أميز في الوثائق نفسها بين ما ينسب إليها وما ينسب إلى رابعة الأخرى ، معتمداً هنا على تمييز الأسانيد في سلسلة الرواية من ناحية ، وعلى التخلفات التاريخية *anachronismes* الضاربة من ناحية أخرى .

فلنحاول هنا — معتمدين على هذا النهج — أن نقدم صورة إيجالية عن تطورها الروحي .

— ٢ —

لا شك نعلم — وفقاً لما بين أيدينا من وثائق — عن حياة رابعة الأولى ونشأتها إلا ما رواه فريد الدين العطار «في تذكرة الأولياء»^(١) . والطار

(١) نشرة نيكولسون ، ج ١ ص ٥٩ — ص ٦١ ، ليدن ولندن سنة ١٩٠٥ — سنة ١٩٠٧ . وراجع ترجمة باقيه دى كورفي عن الترجمة الأولى بموريه ، ص ٥٤ وما يليها ، پاريس سنة ١٨٨٩ . A. Pavet de Courteille: Le Mémorial des Saints

رجلٌ جامحُ الخيال لا يمكن أن يُنْهَى إلى أقواله إلا بعد أن تتأيد عن طريق المصادر الأخرى . وما يؤسف له أن المصادر التي عثنا عليها حتى الآن لم تُشر إلى هذه الفترة من حياتها . لكننا لا نستطيع مع ذلك أن نرفض ما قاله العطار في هذا الصدد جملةً ، لأن الوثائق الجديدة التي تتكشف لنا يوماً بعد يومٍ تؤيد كثيراً من الروايات التي أوردها العطار وكنا نظن أنه وحده الذي أتى بها . وهذا يحملنا على الاقتضاد في اتهام أقواله ؟ فعل وثائق جديدة أن تؤيد رواياته التي لا نجد لها حتى الآن في المصادر الأخرى . فمن الإسراف الظالم في التشكيك والنقد أن نفترض أنها من اختراعه . وإنما نقدمها حذرٍ ونسوتها على أنها لا تزال بمعزل عن التأييد الكافي .

على أن رواية العطار عن طفولتها ونشأتها والفتاة إلى ما قبل توبتها يمكن أن تقبل في عين المؤرخ إذا ما اطربنا منها جانب الخوارق والسمرات . فهو يقول إنها حين ولدت ، ولدت في بيت فقير كل الفقر ، فلم يكن لدى أبيها قطرة سمن حتى يذهبُوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمة مصباح ولا خِرْق للفَّ الوليد . فدعنته زوجه إلى الذهاب إلى الجيران للحصول على زيت لإضاءة القنديل . وإرضاءً لزوجه — على الرغم من أنه عاهد الله على ألا يطلب من عبد من عباد الله شيئاً — ذهب وطرق بباب الجيران فلم يفتح له . فأنجها بما حدث فبكَت . هنالك أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي فقال له النبي : لا تحزن ! فهذه البنت الوليدة سيدةٌ جليلة القدر ، وإن سبعين ألفاً من أمتي ليرجون شفاعتها ؛ ثم أمره بالذهاب صبيحة الندى إلى عيسى زادان أمير البصرة ويكتب له ورقة يقول فيها إن النبي زاده في النداء وقال له أن يتوجه إليه ويقول : إنك تصلي مائة ركعة ، وفي ليلة الجمعة أو بعائنة ، لكنك في يوم الجمعة الأخير نسيتني . ألا فلتتدفع أو بعائنة دينار حلال لهذا الشخص (والد رابعة) كفارة عن هذا النسيان . » فلما أفاق

والد رابعة من نومه كتب الرسالة التي أسرّ بكتابتها ودفعها عن طريق الحاج إلى الأمير ؟ فلما قرأها الأمير أسر بإعطائه أربعمائة دينار ؛ وقال لهم : انتوني به لأرها ! ثم راجع نفسه وقال في الحال : لا أرى من الموفق أن يأتي إلى ، بل سأذهب أنا بنفسى إليه ، وأتمنح بلعيقى على اعتابه . وأسمى لأحصل على كل ما تشهي هذه البت الجليلة .

تلك رواية العطار عن مولدها . والثانية الوحيدة الذى يمكن المؤرخ أن يثق بها فيها هو أن رابعة نشأت في بيت قفير كل القرى . ونحن نعلم من المصادر الأخرى أنها مولادة آل عتيك^(١)، وآل عتيك بطن من بطون قيس ؛ ولماذا أطلق عليهما الجاحظ^(٢)، وهو أقدم مصادرنا عنها، اسم رابعة القيسية . ومن آل عتيك بنو عدوة ولماذا تسمى أيضاً رابعة العدوية^(٣) . أما كنيتها فهي أم الخير . وهنا تتبدي أمامنا

(١) ابن خلكان ، « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨ م ؛ ابن تفري بردى ، « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٣ ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ .

(٢) « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ؛ « الحيوان » ، ج ١ ، ص ٧٨ ، القاهرة سنة ١٩٠٧ .

(٣) عتيك هو بطن من الأزد ، وهو عتيك بن النضر بن الأزد بن القوف بن بنت صالح ابن كهلان بن عامر بن شالح بن ارشيد بن سام بن نوح . والمشهور بالانتساب إليها أبوأسامة سللة بن منيب العنكى من أهل مرو ، ويروى عن سيف بن سبمة عن ابن عمر ، روى عنه الفضل بن موسى الشيباني وأبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العنكى — مولى بنى عتيك من أهل واسط ، سكن البصرة ، يروى عن قتادة وأبي لاسحق ، روى عنه التورى وحاد بن سللة والبصرىون . كان مولده سنة ٨٣ هـ بتهريان — قرية أسفل من واسط — ومات سنة ستين ومائة في أولها ... وعباس بن سنان العنكى الصيروف من أهل البصرة يروى عن أبي نصرة وأبي الحلال ... وأبو الليث عبيد الله بن عبد الله العنكى من أهل مرو ... والمشهور من المنسوبين إلى هؤلاء يوسف بن عبد العنكى مولى يزيد بن المهلب من أهل البصرة راجع (« الأناسب » للسعان ، نشرة مرجوليث ، ليدن سنة ١٩١٢ ورقة ٣٨٣ ب — ١٣٨٤).

وع يكن أنفترض من هذا أن آل عتيك كانوا في مرو ، ومن ثم انتقلوا إلى البصرة ، هم ومواليهم . فهل تكون رابعة أصلها من مرو ؟ لا بد حيثئذ أن تفترض أنها من أصل إيراني ، وقد يؤيد هذا اشتغالها بالعزف على الناي ، وهي حرفة كانت تقتصر ممارستها على المفرس .

مشاكل عدّة خاصةً بهذا الولاء : فهل كان ولاؤها لآل عتيك لما أن أُسرت في صغرها وهي تهيم على وجهها وبيعت كما يحدّثنا المطار ؟ أم كان الولاء من جانب أبيها وأسرتها ؟ نرجح أن يكون الولاء من جانب أسرتها ، لأنّ نسبتها بالولاء إلى قيس ترد في نسبة ونسب إليها . ومشكلة أخرى : متى تم تحريرها ؟ فمن ذلك السيد الذي تحدث عنه المطار وسند كره عما قليل ، أم تم بالنسبة إلى أبيها من قبل وبقيت النسبة في الاسم غبّ ؟ نرجح أيضًا الرأي الثاني لأنّ المطار نفسه لا يذكر أن أبوها كان عبداً . ومشكلة ثالثة هي أصل أسرتها : أكان أبوها فارسياً أم من عنصر آخر ؟ ومتى أسلم ؟ وعلى أية ديانة كان قبل إسلامه ؟ لا يمكن في الأصل مسيحيًا وأسلم ، أم الذي أسلم هو رابعة بعد أن عانت الرق ؟ أسئلة يمكن أن تثار وتتوارد على الخاطر دون أن يجد لها حلًاً وعنها جواباً ؛ وإنها على أخطر درجة من الأهمية بالنسبة إلى الباحث ، لأنّها تتصل بمشكلة بالغة الخطورة ، هي مشكلة نشأة التصوف الإسلامي ، لأن رابعة تنتمي إلى الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحًا جديدة كل الجدّة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام . والنفمة الجديدة التي أدخلتها رابعة في التصوف الإسلامي من العسير إلا فنترض فيها أصولاً سابقة صدرت عنها ، أصولاً كانت على شعور بها أو لم تكن ، سواء ؛ فالشعور واللاشعور هاهنا يتساويان في إحداث الآخر . ومعنى بهذه النفمة فكرة الحب الإلهي بمعناه الكامل الذي ينطوي على كل معنى الحب الشهوانى متساميًّا إلى موضوع غير حسّي : فالاختلاف هنا في الموضوع لا في العاطفة والطريقة . ولستنا نعلم في الروحية الفارسية قبيل الإسلام بوجود مثل هذه النفمة ، ولهذا فنحن أميل إلى استبعاد العنصر الفارسي في المذهب الروحي الذي كانت تدين به أسرتها قبل إسلامها . فإذا كان لا بد من تلمس مصدر التأثير الوعي أو اللاوعي ، فيجب أن يتوجه البحث خصوصاً إلى التأثير

المسيحي لأنَّه نَفِلَبَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْفَسْكَرَةُ ، فَكَرَةُ الْحَمْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ . عَلَى أَنَّ هَذَا مُجَرَّدُ افْتِرَاضٍ بُزُّجِيهِ دُونَ تَوْكِيدٍ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ ، أَوْ لَأَنَّا نَجْهَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ دِيَانَةِ أَسْرَهَا ، وَنَائِيًّا لِأَنَّ الْبَحْثَ — حَتَّى فِي الْمَدِى الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ التَّصَوُّفُ الْمُسِيَّحِيِّ فِي تِلْكَ النِّطْقَةِ — لَا يَرْزَالُ بَعِيدًا عَنْ أَنْ يَسْعَدَنَا فِي إِيَاضَةِ هَذِهِ النَّوَاحِي الْمُوَغَّلَةِ فِي الْفَمْوَضِ . وَلَنَا عُودٌ إِلَى هَذِهِ السَّأَلَةِ بَعْدَ حِينَ .

أَمَا أُبَوَّهَا فَيُذَكِّرُ ابْنَ خَلْكَانَ^(١) أَنَّ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلُ ، وَعَلَيْهِ جَرِيُّ الزَّيْدِي^(٢) . أَمَا الْمُتَّوَاَيِّ^(٣) فَلَا يَذَكُرُهُ وَيَكْتُفِي بِنَعْتِهَا بِالْقِيَسِيَّةِ ؛ وَلَكِنَّهُ يَذَكُرُ بَعْدَهَا رَابِعَةً بِهَذَا الْاسْمِ : « رَابِعَةُ بَنْتُ إِسْمَاعِيلَ الْمَدِوِيَّةِ » وَهِيَ رَابِعَةُ الْآخْرِيِّ أَوْ رَابِعَةُ الْتِي اخْتَلَطَتْ بِهَا ؛ وَكَذَلِكَ فَلِ الشَّعْرَانِي^(٤) : مِيزَ بَيْنَ « رَابِعَةُ الْمَدِوِيَّةِ » وَ« رَابِعَةُ بَنْتُ إِسْمَاعِيلِ » ؛ وَبَقِيَّةُ الْمَصَادِرِ تَعْقِلُ ذَكْرَ اسْمِ أَيْمَاهَا ، مُشَكِّلَ الْعَطَارَ وَابْنَ الْجُوزَى ؟ أَوْ تَنْقُلُ مَا أُورَدَهُ ابْنَ خَلْكَانَ^(٥) . فَإِذَا كَانَ لَنَا أَنْ نَسْتَخلُصَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فَهُوَ أَنْ كَوْنَ أَيْمَاهَا اسْمَهُ إِسْمَاعِيلُ أَمْ مُشَكُوكُ فِيهِ كُلُّ الشُّكُوكِ ؟ وَنَرْجِعُ كُلَّ التَّرجِيحِ أَنْ يَكُونَ قَدْ اخْتَلَطَ الْأَسْرُ عَلَى ابْنِ خَلْكَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعَ كَمَا اخْتَلَطَ عَلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى سُنْفَالَهَا بَعْدَ حِينَ ، فَرَزْجَ بَيْنَ رَابِعَةِ الْمَدِوِيَّةِ أَوِ الْقِيَسِيَّةِ وَبَيْنَ رَابِعَةِ زَوْجِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ . وَهَذَا هُوَ السُّرُّ فِي أَنَّ الْمَصَادِرَ الْأَقْدَمَ مُشَكِّلَ ابْنَ الْجُوزَى لَمْ تَذَكُرْهُ . وَمَعْنَى هَذَا إِذْنَ أَنَّ اسْمَ أَيْمَاهَا لَا يَرْزَالُ لِدِيَانَا بِمَهْوَلٍ ، مَمَّا لَهُ أُثْرٌ فِي الْجَوَابِ أَيْضًا عَنِ الْأَسْلَةِ الَّتِي أَثْرَنَا هَا مِنْذَ حِينَ ، وَبِخَاصَّةٍ مَا يَتَصلُّ بِدِيَانَةِ أَسْرَهَا .

(١) الْمَوْضِعُ نَسَهُ . (٢) « أَتَحَافُ السَّادَةِ الْمُتَعَنِّينَ » ، ٩٢ مِنْ ٥٧٦ ، ص ٦٨١ .

(٣) « طَبَقَاتُ الْأُولَاءِ » ، مُخْطُوطُ الظَّاهِرِيَّةِ رقم ٤٦٤ مِنْ ١١٠٤ ، ص ١١٠٦ (عَنْ رَابِعَةِ بَنْتِ إِسْمَاعِيلِ الْمَدِوِيَّةِ) .

(٤) « الصَّبَقَاتُ الْكَبِيرَى » ، ١ ص ٨٦ ، الْقَاهِرَةُ .

(٥) مُثَلُّ ابْنِ شَاكِرِ الْكَتَنِيِّ فِي « عَبُوتِ الدَّوَارِغَةِ » ص ٥٧ (مُخْطُوطُ الظَّاهِرِيَّةِ رقم ٤٤ تَارِيخِ) .

ولدت رابعة إذن في أسرة فقيرة كانت تدين بالولاة لآل عتيك من بنى قيس فإذا كان أمر تنشتها ؟ يقول لنا العطار إنها لما كبرت وتوفى والدها وهي لاتزال في ريعان الصبا حدث في البصرة خط ، ففقرت وأخواتها الثلاث يهمن على وجوههن . فرأها ظالم أسرّها و باعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل . وهنا يذكر لنا العطار كيف هبطت عليها رسالتها الروحية . فيقول إنها كانت تسير ذات يوم فشاهدت رجلاً غريباً ظلّ يرمي بها بنظره مضمراً لها الشر ، فهربت وسارت في طريق دمشقها الأخرى ، ثم ارتمت على التراب وطلت تناجي ربه : « إلهي ! أنا غريبة يتيمة ، أرسف في قيود الرق ، لكن غمتي الكبير هو أن أعرف : أراضٌ أنت عنّي أم غير راضٍ؟ » فسمعت صوتاً يقول : « لا تحزنني ! ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك ويحسدونك على ما مستكونين فيه ». فلما سمعت هذا الصوت عادت إلى بيت سيدها ، وصارت تصوم وتحدم سيدها وتصلي لربها متوجدة طوال الليل .

تلك هي الفقرة الخامسة في حياة رابعة وفقاً لهذه الرواية . فلوأخذنا بها لقلنا إن الانصراف إلى الزهد وابتداء الرسالة الروحية إنما هيأ له ما كانت تعانيه في رفها وما أحتملته إبان ذلك من آلام وذل ومهانة . فلم تجد خلاصاً أو بالأحرى عزاءً لها عن تلك الحال إلا في الإيمان والثقة بالله والتعزى بالآخرة مما تلقاه في الدنيا . وهي ظاهرة طالما حدثت في النفوس النبيلة التي قضى عليها بالعبودية . نراها في الجليل الأول للسيجية وزرها كذلك عند الرعيل الأول في الإسلام لدى بلال بن رباح وصهيب الرومي وسلمان الفارسي . فالنفس النبيلة إن أرغمتها الحياة انخارجية بغيرها المادي على العبودية انطوت على نفسها كيناً تحررها في الباطن ؛ وهذا التحرير الباطن لا بد أن يتم في عالم آخر غير العالم المادي الواقعى الذى لا تجد فيه غير الاستعباد ؟ ومن هنا تصرف إلى تطلب الملكوت الأعلى . حتى إذا

استشعرت شيئاً منه انطلقت بمحرية تزداد سعّة كلما ازدادت النفوس ثقة بذاتها ، ولن نقف حتى تبلغ الالهامية ، وإن تفاوتت النفوس في درجة الشعور بها وفقاً لمرتبتها في معراج السمو الروحي : فإن كانت ذات مكان على رأيتها هامة تحلى في سماء الألوهية إلى درجة الاتحاد بل الموئية فيما بينها وبين الله ؛ وإن كانت من تلك النفوس التي لم تسعدها الثقافة الروحية الفريعة ، اعتصمت بالتوكل المذعن والرضا الساجي الذي يطوف أحياناً بجنبات الملائكة أو يرثى بصره إلى اعتاب الحضرة عند حناف العرش المجيد . فمن النوع الأول سلمان الفارسي ، تلك النفس المهمة في منطقة الألوهية المستورة ، ومن هنا كان تأويلاً الشيعة لدور سلمان خير فهم لحقيقة وإن تبدى لنا على أنه من تهاوיל الغنوش الشيعي^(١) . ومن النوع الثاني بلال بن رباح مؤذن الرسول ، الذي يجب أن يدرس على ضوء هذه الظاهرة ، ويفسر تعلقه بالأذان على أنه وجد فيه نوعاً من الخطاب المباشر لله ، فكان أذانه بمثابة ذكر للتواجد ، يشيع في نفسه تلك الجذبة الروحية التي تلقى به بين أحضان الألوهية ، وكان ارتقاوه المذنة – مهما يبلغ طولها – مثار شعور بالعلا في مراجع السلوك إلى الحضرة .

إن الذات النبيلة للممتازة إذا لم تجد مصرياً لمكانتها في الخارج ، في العالم ، بين الأشياء الظاهرة ، انفجر باطنها الراهن بالمكانات فاستحال عالم آخر مسرعاً على ما يصبح عند صاحبه كأنه العالم الحقيق الوحيد وكل شيء خلاه باطل ؛ وانتصاره الأكبر إنما يتم نهائياً بالقضاء على الوجود – في – العالم ، على العالم ذي الأدوات ، على الغيرية والسوى ، على هذه العوائق التي تقف في سبيل النور الكامل للإمكانات غير المتحققة . والطريق إلى هذا يتفاوت بين النفوس النبيلة بعضها بعضاً وفقاً

(١) راجع بحث ماسينيون عن «سلمان الفارسي» في كتابنا «شخصيات قلقة في الإسلام» ص ٣٢ – من ٤٢ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

لراجها الروحي الخالص . فالمذين كانوا يريدون أن يظفروا بالدنيا ، بالوجود — في — العالم عن طريق السلطة والقهر يسلكون إلى الألوهية أيضاً « طريق القهر » ، بأنواع التعذيب والزهادة القاسية ؛ والمذين كانوا يتغدون الظفر عن طريق الحب ، والتأثير الشخصي بالجاذبية التي للشخصية للممتازة ، يتخدون إلى الرب « طريق الحب » . ورابعة العدوية ، وهي المرأة ، هل لها أن تسلك غير السبيل الثانية ؟ ! لهذا سرتها تتخذ طريق الحب للانسلاه على الألوهية ، بعد أن لم تفلح في الوصول عن طريق الحب في الدنيا إلى الاستيلاه على النسوية .

ففي هذه النادرة التي رواها المطار ما يكشف لنا عن طريق دمشق لدى رابعة . ومنها أنها أفكرت في طريق الخلاص فوجده في الانعكاف على باطنها ؛ لكنها كانت في حاجة إلى صوت يقوّيها ويشد أزرها فيؤكّد لها أن تلك الطريق التي ستسلكها ستفضي بها إلى غايتها الجديدة المنشودة وهي الخلاص عن طريق الحب للألوهية حتى تظفر بالحضره فيها . فليس بعجب في واقع الأحوال النفسية لأمثال هؤلاء أن يختيل إليهم أن طاقتها رحانياً قد طاف بنفسهم ، وهي في الصراع مع أحوالها في العالم للظفر بالنجاة ، فشد أررم ومتناهم بخbir المنقلب وعظم الغاية ونبيل النهاية . وهذا يحدث لكل من في أبسط أحوال مهاته ومشاغله ، فما بالك ونحن بإزارء اللهـم الأـكـبرـقـ حـيـاـ الشـخـصـ ؟ ! فتلاميـذـ عـمـواسـ ، وطريقـ دمشقـ عندـ القـدـيسـ پـواسـ ، ورؤـياـ أوـسـتـيـاـ عـنـدـ القـدـيسـ أوـغـسـطـسـ ، ووـحـيـ دـلـفـ لدىـ سـقـراـطـ ، ووـحـيـ حـرـاءـ عـنـدـ النـبـيـ مـحـمـدـ — كلـهاـ أـمـورـ لـاتـأـبـيـ عـلـىـ مـنهـجـ الـبـحـثـ النـفـسـانـيـ العـلـىـ إـذـاـ مـاـ فـهـمـتـ عـلـىـ أـنـهـاـ أـحـوـالـ مـنـ الـكـلـامـ النـفـسـيـ الصـادـرـ عـنـ اـرـدـواـجـ النـفـسـ حـيـنـاـ تـلـمـ بـهـاـ الـمـهـمـاتـ .

هذه اللحظة في حياة رابعة يجب أن تـعـدـ نقطة التطور الخامسة في حياتها الروحية ، شأنها شأن تلك الأحوال التي أتـيـناـ عـلـىـ ذـكـرـهاـ عـنـدـ أـخـرـاجـهاـ منـ كـبـارـ

الشخصيات الروحية في العالم . لكنها لا تزال في الأسر المادي لدى ذلك السيد القائمى الذى أرهقها وأعنتها فكان لهذا الإرهان والإعنات فضل انفجار روحها الباطنة النبيلة . فكيف تنجو من هذا الأسر ؟

هنا يلتجأ العطار مرة أخرى إلى الخوارق ؛ فيزعم أن سيدها استيقظ ذات ليلة ، ونظر من خَوْخَةٍ أو خَصَاصٍ في الباب ، فرأى رابعة ساجدة تصلّى وتقول : « إلهي ! أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك ، ونورَ عيني في خدمة عبادتك ؛ ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عَبْدَتِك ». وخلال دعائهما وصلاتهما شاهد قديلاً فوق رأسها يحلق وهو بسلسلة غير معلق ، وله ضياء يملأ البيت كله . فلما أبصر هذا النور العجيب فرع ونهض من مكانه وظل ساهداً مُفَكِّراً حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وقال : « أى رابعة ! ومهبتك الحرية . فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعاً في خدمتك ؛ وإن شئت رَحَلتِ أَنِّي رغبتِ ! » ما أجملها فرصة إذن بالنسبة إلى رابعة ! فما كان منها إلا أن ودعه وارتحلت ، ثم انقطعت للعبادة والتقوى .

تلك أسطورة تحريرها من الرق ؛ ولن يستطيع المؤرخ إلا أن ينعتها بـ « الأسطورة » ؛ والشيء الوحيد الذي يمكن أن نأخذ به منها هو أن رابعة أعتقدت ؟ أما كيف ؟ ولماذا ؟ فهذا ما لا يستطيع الوثائق التي بين أيدينا أن تضفي النور عليه ؟ فلندعه نقطة غامضة إلى جانب النقط الغامضة التي لا حصر لها في حياة رابعة .

نعم من كان هذا السيد ؟ أكان من آل عتيك ، ما دامت رابعة تسمى مولاً آل عتيك ؟ هذا أيضاً مما لا يستطيع الإدلاء فيه برأى قاطع به راجح . صارت رابعة إذن حرفة ؟ فلها أن تسلك سبيلاً هاف الحياة أَنِّي شاءت . وهنا نلقى روایة لم يذكرها غير العطار ، راوينا الوحيد عن تلك الفترة ، وهي تقول

إن رابعة أخذت مهنة العزف على الناي^(١) زمناً ما ، ثم تابت من بعد ذلك وأصلحت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة .

هذه الرواية التي ذكرها المطار وسر بها سرّاً سرياً لأنها لا تتفق مع الصورة الخيالية التي يريد أن يرسمها الرابعة وهو الشاعر الجامع الخيال ، يريد نحن أن نتفق عندها ميلياً لما لها من أهمية خاصة . ونحن نقطع بصحتها لأنها ما كان للمطار أو غيره أن يذكرها لوم تكن صحيحة ، لأنها ليست مما يشرف به قدرها ؛ وهو وغيره من رواة أخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يزوقوا ما استطاعوا في ترجماتهم حياة أولئك الصالحين .

فنحن نفترض ما يلي : أن رابعة لما أعتقدت اندفعت بفضل الحرية التي وهبها إلى المشاركة في حياة الدنيا ؛ ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التي أمضتها القديسة تريزا الأبيلاوية منذ أن غادرت دير التجسد في أبيلا إلى سنة ١٥٥٥ حين بدأت حياتها الثانية . فانطلقت رابعة تسمى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والإطراب . وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت على حظ من الحال ، ولعل هنا أن يفسر لنا ما روى من أخبار — لعلها أسطورية — عن تقدم الكثيرون للأقتران بها . ودعها إلى أتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فني متاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد في غير الفن مجالاً للظهور في الدنيا والمشاركة في الحياة . والشاهد عامة في حياة النسوة اللاحني وهن قدرأً من سمو الروح أنهن يمحرنون الفن إذا ما قفي عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة . ويتحمل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد . وهذه المهنة في ذلك العصر كان من غير الممكن

(١) «وگرو هي گويند در مطرب افتاد» (المطار ، «تدكرة الأولياء» ، نشرة نيكولسون ،

أن تستقل ب نفسها ، ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحاديل التي تنصب لثيلاتها في هذا المضمار . و يخيّل إلينا أنها قطعت شوطاً طويلاً في طريق الاسم و غرقت في بحر الشهوات و افجات بقوت الحواس حتى المثال ، لأنها تابت من بعد ذلك . ف هذه التوبه نفسمها هي أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة . فالأطراف في تماست^{كما يقولون} ، والاعتدال لا يمكن مطلقاً أن يؤدى إلى التحول الحاسم conversion . وهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجة لمنف و إفراط و مبالغة في الطرف الأول المُنْقَلَبِ عنه . فعنف إيمان القديس بولس كان نتيجة لعنف إنكاره للسيحية ، وعنف الحياة التالية لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لمنف الحياة الشهوانية الحسية التي حيّتها قبل تحوله إلى الإيمان . إن الاعتدال من شأن الضمفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يدعون و يخلدون التاريخ . وما كان يمكن رابعة أن تطرف في إيمانها و جهادها إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل في غورها و جهادها للدنيا . من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشارة القدسية للطهارة ، ومن عماق الإنكار والتجديف تطلق الموجة التي تنشر الإيمان في الدنيا بأمرها . لهذا أدعوا إلى التطرف المطلق كلَّ من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

أوغلت رابعة إذن في طريق الشهوة الماحقة ما وسما الإيقاف . ثم تابت . فكيف تابت ، وماذا دعاها إلى تغيير طريقها ؟

قلنا إن رابعة قبيل إعناقها قد استشرت رسالتها الروحية وهي تحت أعباء الرق المهن . لكنها نسيتها لما أن انطلقت إلى الدنيا الواسعة . لهذا نستطيع أن نفترض أنها إبان اتهابها اللذات كانت بين الحين والحين تخلو إلى نفسها وتتذكر تلك الرسالة التي ألمحتها . فكان يطوف بها إذاً بين الفينة والفينية طائف من التأنيب والتذكرة بالطريق السُّوى . وهذه الفينات خصوصاً هي تلك التي تشعر

فيها إما باليلٍ من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه، وإما بأنها قد اندفعت في طريق الإيمان إلى حد بالغ الإفراط . فلا شك في أن هذه التنبهات التوالية قد أثرت في منطقة اللاشعور لديها . لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الانقلاب الروحي . وقصاري أمرها أن تكون حالها تلك التي وصفتها القديسة تريزا الأبيلاوية إبان مخنة صراع الدنيا والدين في داخل نفسها ، فقالت : «من ناحية كان الله يدعونى ، ومن أخرى كنت أشارك في الدنيا . أجل ! لقد كنت أجد في الأمور الإلهية نعماً كبيراً ، ييد أن قيود الدنيا كانت لا تزال تأخذ بمحنتي ، حتى ليبدو لي أنني قد أردت أن أحالف بين هذين الصدرين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية ينبعاً منها ، وحياة الحواس بشهوتها^(١) . »

ومنت عوامل أخرى يمكن إدخالها في تقديرنا : منها إمكان غشيانها مجالس الوعاظ في مساجد البصرة ، وبخاصة مجلس الحسن البصري ، فضلاً عما عساها أن تكون لقيته ، حتى إبان عمها ، من صوفية وذهاد . وهنا نتجاسر على الإدلة ، بفرض لأندرى بعد مبلغ الصحة فيه ، وهو أن تكون قد التقت يوماً برياح بن عرفة القبسي الصوفي الكبير ؛ ولعله أن يكون قد توسم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرية ، فحملها على أطراح حياتها اللاحية ؛ ولعل في هذا ما قد يفسر الصلة القوية التي قامت بين كليهما . فقد يكون المطاف قد أخذه عليها ، فتنى لها – وهو صاحب الطبيعة الممتازة – أن تسلك السبيل الذي سلكه هو . وأنّ كانت المصادر لا تخدثناعن وقوع هذا الحادث بالذات ، فإنّها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد : كانوا يقضيان الليل معاً في ييتها انقطاعاً للتهجد والعبادة . ومثل هذه الأحداث كثيراً

(١) القديسة تريزا الأبيلاوية : «حياة» من ٦٨ ، ترجمة فرنزية ، باريس ، ليكوفر

سنة ١٩٠٤ Ste Thérèse, Vie (trad. Bouix) .

ما تقع في حياتنا : فذو النفس النبيلة إذا ما توسّم في إحدى بنات الموى روحًا سامية سرعان ما يفكّر في إنفاذها مما هي فيه . فمن يدرى ؟ ! لعل هذا هو مأْوَعَةٌ بين رياح بن عمرو القيسي وصاحبتنا رابعة .

على أن هذا كذلك ليس كافياً في تفسير الانقلاب الروحي عندها ، على الرغم من قوّة هذه العوامل . بل لا بد أن يكون قد واكب هذا كله تجربة يائسة من دنيا الناس ، ولا بد أن نفترض هنا خصوصاً تجربة حبٍ مخفق يستشرف إلى مراب زواج أو ما إليه . فذكريات الماضي الداعي إلى التقوّي والمواعظ مما يبلغ تأثيرها عن طريق المثل الحي الصديق لانتكِ لتفسیر ما حدث لدیها . فلا مناص إذن من افتراض هذا العامل الثالث الحاسم . فهذه الأسباب الثلاثة مجتمعةً إذن هي التي أدت إلى الانقلاب الحاسم ، بأن عادت إلى نفسها تستلهمها الطريق الذي بدأته ثم تركته لما أن استشعرت نسم الحرية في الدنيا ، وإذا بها عما قليل أُسيرة شهوات مدرمة وفريسة خيبات أمل تكسرت على روحها العالية فأشاعت فنوطاً لا يبلغ مداه التعبير . هنالك أحسّت بأن الحرية التي نشتها ليست في الانطلاق بين ملاذ الدنيا ، فهذه عبودية املها أعنف وأشد إرهاقاً من تلك التي كانت فيها . ولعلها سمعت آنذاك قول معاصرها الأكبر منها – وقد كانت قداسته تلاً الدنيا في ذلك الحين – ألا وهو إبراهيم بن أدم لما أن قال : « الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها^(١) ». فالحرية هي « في اصطلاح أهل الحقيقة ، الخروج عن رق الكائنات ومراداتتها وقطع جميع العلائق . . . وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة ، فلا يسترقه عاجل دنياه ولا آجل عقباه^(١) ». نقول : لعل رابعة بتأثير هذا كلّه قد

(١) أحد ضياء الدين الكمشخاني : « جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم » ، ص ٥٢٢
القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = سنة ١٩١٠ م .

أفكريت في الحرية الموهومة التي اندفعت فيها ، وما كانت إلا أسرًا جديداً لمن له مثل روحها ، أسرًا أشد هولاً وقسوة . فلا بد أنها ضاقت ذرعاً بتلك العبودية الجديدة وراحت تتمس سبيلاً الخلاص نحو الحرية المنشودة ، الحرية الحقيقة التي تخريجها نهائياً عن رق الكائنات .

وذلك هي السنة الخامسة النهائية في حياتها ؟ فعندما يتحول الطريق فيتتخذ الاتجاه الكامل المضاد . ومثل هذه اللحظات مليئة باللون القلق والذنب ؛ إنها اليالي الظلماء الحقيقة في تلك النقوس الكبيرة . فكأنّ من عادات وتقلبات وترجّحات تتوالى فيها ، أحياناً بسرعة البرق الخاطف ! فكانت تتدبر ذنب بين المود إلى الشرارة المقدسة التي أضاءت فترة قليلة ، وبين الاستمرار في هذه الحياة اللاهية الناعمة . ولا بد أن يكون التوتر قد كان في نفسها شديداً كل الشدة في ذلك حين : لأن الحياة في مدينة البصرة كما عرضناها في أول هذا الحديث كانت تجمع بين الطرفين المتبعدين إلى حد هائل : النعيم الصارخ البالغ أوج الشهوات ، والزهد القائم القاسي المغفر خدّه بالتراب ؟ الفرحة الزاهية تملأ جوانب الأحياء اللاهية ، والحزن الباكى الدامي بين أشباح القابر . فلم يكن الانتقال إذَا يسيراً بين الطرفين ، إذ لا مجال للازلاق الطبيعي الميسور بين الواحد والآخر ؟ بل كان لا بد من حدوث انقلاب مفاجيء سريع فيه يعود الوجود الذاتي على وجوده الأصيل فينزع نفسه بكل قسوة من السقوط — في — العالم .

فارتئت رابعة إلى نقطة ابتداء خلقتنا ، ولسان حالمها يقول :

تركتُ هوى ليلىٍ وسعدي بمعزل وعذّتُ إلى مصحوب أول منزل
ونادت بي الأشواقُ: مهلاً ! فهذه منازلٌ منْ تهوى ، رويدك ! فائزٌ

من أهله . روى القشيري^(١) : « قال رجل لرابعة : إني قد أكثرت من الذنب والمعاصي ؟ فلوبت ، هل يتوب على ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك لتُتَبَّعْ ». فهى كانت لا تشق في قدرتها على الظفر بالتنورة لمجرد استغفارها وإفلاعها عن ذنبها ، بل كان لا بد لها من رضا الله : فهو وحده الذى يتوب على الناس الخاطئين ؟ فلهم يتوب ، لم تتحقق لديهم التوبة . وهى نظرية نجد لها نظائر عديدة في التصوف المسيحى ، خصوصاً في كل ما يتصل بفكرة فضل الله *la grâce divine* . ومن هنا يظهر الجانب السالب القابل في كل طبيعتها ، مما سرّاه ظاهراً لديها بكل وضوح . ومن شأن هذا الطابع السالب أن يزيد من قلقها على تنامي أعمالها . فهى لا تدرك مطلقاً ما إذا كانت توبتها مقبولة عند الله أو غير مقبولة ، لأن التوبة ليست فعلاً أو حالاً تحصله بنفسها ، بل توهّب هبة . وبهذا نفس أقوالها التي تدور حول هذا المعنى ، مثل قولها : « أستغفر الله من قلة صدقى في قولي : أستغفر الله^(٢) » ، أو قوله مرات أخرى : « أستغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه^(٣) » . ففي القول الأول تعبير عن شدة قلقها – وقد أزاحت حساستها في شعورها بالخطيئة – على ما سيكون مآل استغفارها . وفي القول الثاني توكيده لهذا المعنى مع ذكر الجانب الإيجابي وهو الاستمرار في الاستغفار دائمًا ، لأن التوبة ليست حالة ثبات يمكن بلوغها مرة واحدة ، بل هي في حركة مستمرة ولن يستطيع المرء أن يبلغها طالما كان حياً . وفي هذا يدخل جانب حركي يجعل أحوالها الصوفية في سورة دائمة ؟

(١) الرسالة القشيرية ، باب التوبة ، من ٤٨ الف القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ = سنة ١٩١٢ م.

(٢) أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = سنة ٩٩٠ م) : « التعرف للذهب أهل التصوف » ص ٦٤ ، نشرة آزبرى ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

(٣) عبد الرؤوف الناوى : « طبقات الصوفية » ، مخطوط رقم ٤٦٤ بالظاهرية بدمشق ورقة ١٠٤ ب ، وقد أورده ابن الجوزى من قبل في « صفة الصفو » ص ٤ ورقة ٥٧ ب مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ ، كما أورده ابن شاكر الكتبى في « عمون التواريخ » ج ٣ مخطوط الظاهرية رقم ٤ تاریخ ، ورقة ٧ ب تحت أخبار سنة ١٣٥ هـ

وطابع النقص هذا هو الذي يشعرها بالزمانية المتتجدة مما ينفي على أحوالها طابعاً وجودياً بارزاً. إن التوبة ليست حالة سكونية *statique* ، بل هي حركة قوية *dynamique* . وهذا يزيدنا وضوحاً في فهم ذلك الجانب السلبي الذي أبرزنا معناه من قبل . فهو لم يقصد به مجرد السلب والقابلية ، بقدر ما يقصد به أن يكون مدعاه لإشاعة الحركة عن طريق الصيرورة والتتجدد لفعل الاستغفار ، وإدخال الزمانية بواسطة فكرة النقص الملائم لهذه الأفعال . وبهذا تتفق أحوال رابعة من طابع القابلية المطلقة *quiétisme* كيما نفسرها على نحو ديناميكي يمتاز بالحركة والصيرورة . والصوف الحق ، الصوف بالمعنى الوجودي ، هو ذلك الذي يعزف عن الرضا لأنّه ينطوي على فكرة سلبية خالصة ، فتراء دائمًا في خوف على أعماله . وهذا ما أكدته رابعة مرة أخرى حين « قيل لها : أعملت عملاً ترين أن يقبل منك ؟ (ف) قالت : إن كان ، خوفي أن يُرَدَّ علَيَّ »^(١) .

ولهذا فتوبه رابعة لم تم دفعه واحدة ، بل كانت طوال حياتها في توبه مستمرة ؟ فمن التقصير في الفهم إذن أن تُعد هذه مرحلة في تطورها الروحي . وكل ما يحقق لنا قوله هو التحدث عن ابتداء فعل التوبة ، وإلا خياتها كلها كانت توبه متصلة . أما كيف بدأت فعل التوبة وعلى أية صورة ، فهذا ما لا تتكلف النصوص ببيانه تفصيلاً ، لأن من العسير تأريخ أحوالها بحيث تنسبها إلى هذه الفترة أو تلك . بيد أننا نستطيع معالجة هذا النقص بأخذ المعيار التالي : وهو درجة حرارة النبرة في شكلاتها وتصرعها إلى الله أن يغفر لها . والصورة الأولى — وفقاً لهذا المعيار — نجدها في تلك الشكاة التي تفوّهت بها رابعة لأن رأها ذلك الغريب وفترت منه ، فيما حكاه العطار^(٢) وأشارنا إليه من قبل .

(١) التناوى : للرجع نفسه ، ورقة ١٠٥

(٢) « تذكرة الأولياء » من ٦٠ و ٦١ ، نشرة بيكسلون .

ثم تعلو هذه النبرة وتتخد صورة من بقايا حياتها التي تريد أن تكفر عنها بعد أن بدأت التوبة . فلهم تم رابعة بفترة الضلال ، تلك التي انصرفت فيها إلى الدنيا ، وكانت عازفة على الناي تشارك في شهوات الجسد بكل فورتها وعراقتها ، لمارأينا هذه النبرة الجديدة في شكلاتها . فالعبارات التي رووها العطار في تلك الصورة الأولى قد خلت من فكرة الحب ؟ ولكن لما أن بدأت التوبة ، كان عليها ، وهي الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر الماءضة الفرامية الحارة . لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمعناه الحسي مرفوعاً إلى الألوهية قد أدخلته رابعة في حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللهو الآثم التي سرت بها . ومن هنا كان توكيدها لأهمية تلك الفترة التي مرّ عليها الباحثون مع أنها في نظرنا العامل الأكبر في تكيف النظرية الصوفية عند رابعة ، إن لم تكن بمثابة العامل الأوحد .

فن هذه اللحظة اصطدمت الشكوى إلى الله بصيغة الحب والرغبة في الاتصال بهذا المحبوب الأعلى . ومن الأقوال التي تختلفت لنا عن تلك اللحظة ما رواه صاحب « الروض الفائق في الموعظ والرقائق »^(١) فقال : « حكى عن رابعة العدوية رحها الله تعالى أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها ونمارها ثم قالت : « إلهي ! أنا رأت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت اللوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك ! » — ثم تقبل على صلاتها ؛ فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهي ! هذا الليل قد أذرب ؛ وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعرى ! أقيمت مني ليلتي فأهنا ، أم ردتها على فأغزى ؟ فَوَعِزْنَكْ هـذا دأبِي ما أحبيتني وأعْنَتني .

(١) الشيخ الحرفيش : « الروض الفائق في الموعظ والرقائق » ، ص ١١٧ ، طبع الطبعة البيانية بالقاهرة ، سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م.

وعِزْتُكَ لَوْ طَرَدْتَنِي عَنْ بَابِكَ مَا بَرَحْتُ عَنْهُ لَمَا وَقَعَ فِي قَابِي مِنْ مُخْبِتِكَ . »
وهذا نصٌّ ثمين يصور لنا دقائق أحوالها في تلك الفترة . ويلاحظ عليه أولاً
أنه قد صيغ في عبارة بدعة يسرى فيها عِرق شعرى ظاهر ، مما كان نتيجة طبيعية
لاشتغالها بالفن عازفة على الناي . فنحن نظن أن العرق الشعري إنما ينبع عندها
لما أن اشتغلت بالعزف ، خصوصاً لما يستلزم من غناء وإنشاد . فالملائكة الشعرية
كانت كامنة فيها ، فلما تفتقى عليها أن تصبح عازفة ابنتت تلك الملائكة ، خصوصاً
إذا لاحظنا أنه من غير الميسور أن تقصر على العزف دون الغناء ؟ فروحنا الشرقية
لم تكن لتسقين الموسيقى الجردة لما فيها من تعبر عن اللانهائي ، فضلاً عما للكلمة
في الحضارة العربية من مكانة مقدسة ، لهذا فنحن حتى اليوم لم نستطع في موسيقاتنا
أن نجعلها مجردة عن كل صوت إنساني ، وهذه ظاهرة لا تحتاج إلى فضل تأييد .
لهذا نرجح إذن أن ابتداء قولهما الشعري إنما وقع نتيجة لاحترافهما العزف على الناي ،
فقد فرق منها منذ ذلك الحين ينبعون الشعر . وهذا نرى هذا النص يروى بعد ذلك
مباشرة أنها أنشدت :

يا سروري ومُنْتَقِي وِعِمَادِي
أنت لِي مُؤْنِسٌ ، وشوقُكَ زادِي
ما تَشَتَّتَ فِي فَسَيِحِ الْبَلَادِ
من عطاءٍ ونَعْمَةٍ وَأَيَادِي
حُبُّكَ الآتِ يُفْتَنِي وَنَعْيَيِ
أنت مِنِي مُمْكَنٌ فِي السَّوَادِ
إِنْ تَكُنْ راضِيًّا عَلَيَّ فَبَأْيِ
وَالطَّابِعُ الْحَسِيُّ ظَاهِرٌ بِكُلِّ جَلَاءٍ فِي هَذِهِ الْأَيْيَاتِ ، وَيَلوَحُ مِنْهَا أَنَّ الْأَمْرَ

أنت روحُ الْفَوَادِ ، أنت رجَانِي
أنت لولاكَ ، يَا حِيَاتِي وَأَنْسِي !
كَمْ بَدَأْتَ مِنْتَهِي ، وَكَمْ لَكَ عَنْدِي
لِيَسْ لِي عَنْكَ مَاحِيَّتُ بَرَاحِي
^(١) يَامُنِي الْقَلْبُ ! قَدْ بَدَا إِسْمَاعِيلِي

(١) الشيخ الحرفيين: «الرون الفائق» من ١١٧ . طبع القاهرة سنة ١٣٠٥ = سنة ١٨٨٦

كان لا يزال مختلطًا عليها لأن الخطاب هنا يصلح أن يتجه إلى شخص حتى كما يصلح — بصوبية — أن يتجه إلى الله . ماذا أقول ! بل هي في هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تتحاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لما يلوح أنه كان متنقلًا فاضطررت هي — تحت ستار الترحيل لكسب العيش بالعزف ، كما هي الحال بالنسبة إلى الموسيقيين عامة في تجوالهم لإحياء حفلات في مختلف البلدان — أن تلاحمه في الأماكن التي كان ينتقل بينها ، لهذا اضطررت للتحدث في فسيح البلاد . فعل ذكرى هذا الحبيب — الذي يمكن افتراض أنه كان العلة في إحداث خيبة الأمل عندها في الحب والناس — قد اختلطت في ذهنها آنذاك ، فغيرت بهذه الكلمات الشبوية الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجهًا إلى الله . ذلك أنها ان تستطيع أن تتحدث عن حبها الله إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عانتها . وتلك كانت تجربتها العنفية الحية . تحدث هنا ظاهرة القلب للموضوع ، مما يحدث دائمًا في أمثل هذه الأحوال ، إذا كانت العبارة مخلصة وليس مجرد صياغة لنظرية خالية من كل حياة . ولهذا فإذا صادف المؤرخ إخلاصًا في التعبير عند الصوفي ، فيجب عليه دائمًا أن يفترض وجوب تجربة حية صدر عنها ، فقلب موضوعها من المحسوس الإنساني إلى الكائن الأعلى الإلهي . ويمكن تأريخ ما يدخل في هذا الباب وفقًا لتضاؤل التعبير الحسي الظاهري وتزايد التعبير المجرد الباطن ، ولهذا فنحن لا نرى مانعاً ولاً من أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى رابعة — فليس ثمة استحالة مادية تقف دون هذا ؟ ونرى نائياً أنه لابد أن ينتمي إلى فترة الانتقال المباشرة بين عهد الضلال وعهد الإنابة والتوبة .

كل هذا من حيث الصورة . والأمر من حيث المادة يؤكد تلك النتائج . فهي تذكر الإطار الغرامي الملائم : هدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، لأنها طالما ألفت هذا الإطار الشعري الرائع في أيام غرامها الآثم ؟ وهذا يدلنا على أنها

حديثة عهد به ، وأنها لا تزال تحنُّ إليه في أعماق نفسها ، ولعلها تذكرت لياليها الخنزَر بين مخارات التخيل على ضفاف الأُبُلَة ، وقد غفلَتْ عيون الرقباء من الناس ومن الشرطة خاصة كما يتبين في عبارتها ذات الدلالة الكبيرة هذه : « وغلقت الملكُ أبوابَها » ، أي اختفى سلطان الحاكم ، في وسعها أن تخفي بمحبيها تسامي ما تود من اللذات المحرمة . وتأمل خصوصا الشوق المحتضر في قوله : « وخلأ كلُّ حبيبٍ بمحببه ! » فيه قشعريرة قلب طالما نعِمَ بهذه اللحظات العالمية ! أتراها نادمة في قوله هذا ؟ كلا ، بل هي فلتة لازالت موزعة الأهواه بين الدنيا والآخرة ، ومحببها الجديد لا يزال ينبع منها لأن الطريق إلى شاقة طولية ؛ وهما هي ذى تتضرع إليه فتقول : « وهذا مقامى بين يديك ! » أية لوعة في هذه العبارة النارية ! وأية صورة فاتنة تستثيرها في الخيال !

لقد بدأت رابحة تستثمر الحب لله ؛ وإنه لينمو وتواكه مشاعر مختلفة ، لعل من ينبعها ومن أقوالها الشعور بأنها ندرت نفسها لهذا الحب الأنسي ، وعما قليل ستُعلن خطوبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضي في النهاية إلى الزواج الروحي بينها وبين الله . إنها لم تبلغ بعد تلك المرحلة من التفكير في الاقتران بالله ؛ ولا بد أن تأتى حيُونَة — صديقتها الماءمة في أودية العشق الأَنْمَم consommé ، فتنبهها إلى هذا المعنى . ذكر أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري ^(١) أن رابحة زارت حيُونَة ؛ « فلما كان جوف الليل حَمَلَ النومُ على رابحة ؛ ف قامت إليها حيُونَة فركنتها برجلها وهي تقول : قومي ! قد جاء عُرُسُ المهتدين . يامن زَيَّنَ عرَاسَ الليل بنور التَّهَجُّد ! » وهذا نص على أكبر درجة من الخطورة لأنَّه يتحدث عن وجود فكرة الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثاني المجري

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري : « عقلاء المجانيق » ، نشرة وجيه الكيلاني ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ م .

أى الثامن الميلادي ، وهى السكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ابتداءً من القديسة تربزا الأبيلاوية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثانية قرون . وإذا كانا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيات المسلمات فى القديسة تربزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وندع هذا النص جانباً الآن ، ونعود إلى النص السالف ، فبماهى بعد أن تقبل على صلاتها حتى مطلع الفجر تسأل الله هل قبل منها إيمانها فتهنأ ، أم ردها عليها فتأمى . وإنها لتعاهد الله على أن تكون راضية بكلتا الخصلتين : فسواء لديها أقرب الله أعمالها أم لم يقبلها ، فستلتح وتناضل ، لأنها تجد في هذا الجماد النفسي وحده معنى حياتها ، ولا عليها إن كلّ بالقبول أو لم يكلّ . ولذا تقول بعبارة تمّ عن إخلاص لا حد له في العبادة : « وعَزْتُكَ ! لو طردني عن ياك ، ما برحَتْ عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك ». وهنا يتجلّي التواضع عندها بأجل صوره . وما أبعد الفارق بينها وبين الحلاج مثلاً ما أن قال : « يا أهل الإسلام ! أغيبونني ! فليس (إى الله) يتركتني ونفسي فأنسَ بها ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيفه ^(١) ». ففي هذه النبرة من الادعاء والكبرباء ما لا يتفق وروح رابمة ، على الأقل في الفترة التي لا زالت بصددها . فالدلال في هذه العبارة الحلاجية هو بالأحرى من جانب الحلاج على الله ، أما رابمة فالله هو الذي يتداول عليها ، لذا تدعوه وترجوه بكل خشوع وذل وضراوة . وتلك هي الدرجة العليا في الصلة بين العبد والرب ، في صلة الحب الحقيقة التي لا تستلزم تبادلا وإلا صارت إلى حال من السكون هو الموت سواء . إنما الحب الحق هو ذلك الذي يتمّ فيه أحد الطرفين دون أن ينال شيئاً ، لأنه إذا تم التبادل فسد معنى الحب . وهذا

(١) ماسينيون وكراوس : « أخبار الحلاج » ، تحت رقم ٣٨ . باريس سنة ١٩٣٦ .

أمر قد فصلنا القول فيه في موضع^(١) آخر فلا مجال بعد لفضل بيان . ورابعة هنا تزيد أن تؤكد هذا المعنى بكل قوّة ، وفي توكيدها له تزيد أن تدلّ على معنيين : الأول النزاهة المطلقة في صلة الحب بحيث لا يقصد من ورائه جزاء ، ولا حتى مجرد التبادل فيه ؛ الثاني أن الحب الصحيح هو ذلك الذي يستبعد كل تبادل . وكأنها كانت تزيد من الله أن يقول لها ما قاله فيلين في « قلهم ميستر » بطيته : « إذا كنت أحبك فعل هذا يعنيك ؟ »

ولكي تزيد هذا المعنى في نص رابعة أيضاً وبروزاً نود أن نضع إلى جواره نصاً آخر لصوف كير هو أبو سليمان الداراني (المتوفى سنة ٢١٥ هـ سنة ٨٣٠ م) يكاد أن يتشابه مع نص رابعة في بعض حروفه ، لكن لشنان ما بين المقصود في كل منها ! قال الفشيري : « حدث أحمد بن أبي الحواري قال : دخلت على أبي سليمان الداراني وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحد ! ولم لا أبكي ، وإذا جن الليل ونامت العيون وخلأ كل حبيب بمحبيه وافتقر أهل الحبة أفادتهم وجررت دموعهم وتقطرت في محاربهم ، أشرف الجليل سبعانه تعالى — فنادي : يا جبريل ! يعني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكري ، وابني لمطلع عليهم في خلوتهم أسمع أبنائهم وأرئ بكائهم ؛ فلم لا تنتادي فيهم يا جبريل : ما هذا البكاء ؟ هل رأيت حبيباً يذب أحباءه ؟ أم كيف يمملُّ بي أن آخذ قوماً إذا جنّهم الليل ثمّقوا لي ؟ في حلفتُ أنهم إذا وردوا على القيمة لا يُكشفنْ لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلى وأنظر إليهم »^(٢) . فهنا نرى الداراني يلجأ إلى أمثال هذه الأحاديث القدسية التي بدأ الصوفية في إذاعتها على أنها من وحي الله لهم^(٣) كيما يجدد عزاءً في تبادل الحب بين الله وبينه هو ومن

(١) راجع كتابنا : « الزمان الوجودي » ، ص ١٤٦ . القاهرة سنة ١٩٤٥ .

(٢) « الرسالة الفشيرية » من ١٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٠ .

(٣) راجع : ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلاح الفي لاصوفية في الإسلام » ، باريس سنة ١٩٢٢ .

على شاكلته من أهل الحبة . وفي هذا نجد تراجعاً عن ذلك المعنى الجليل الصافى الذى أعطته رابعة للحب الإلهي .

وهذا كله فضلاً عن معانى القلق والاضطراب والاهفة الاتى تشيم في عبارات رابعة في ذلك النص ، مما يصف حال العاشق القلق أدق وصف . على أن فكرة الحب لم تكن بعد قد اتضحت في نفس رابعة ، إنما هي معانٍ امتلأت بها نفسها ولا تستحِل إلى صورة عقلية بادية الأسaris .

— ٤ —

بدأت رابعة إذن في التوبة ، وفتحت صفحة جديدة من حيتها الروحية هي مزيج من القلق والاستفوار والشوق إلى المحبوب الجديد الذى اخذه نفسها .

فإذا حاولنا تعرُّف العناصر الجديدة في حيتها وما اخذته من وسائل للسير في الطريق إلى الله لم نعثر إلا على أخبار مبتأثرة ، سنحاول مع ذلك ، جهداً ، أن نتخلص منها ماقد يجلو هذا الجانب .

أما الأدوات التي اصطمعتها فهي التمجد وقيام الليل : نصلى وندعو وتقرأ ما يتسر من آيات القرآن . ثم استذكار الموت .

فكل المصادر تجمع على أنها كانت تقوم الليل كله . قال ابن الجوزى في « صفة الصفو » بعد سلسلة من الأسانيد تنتهي عند عبدة بنت أبي شوال ، وكانت من خير إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : « كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلم الفجر ، هجمت في مصلاها بهمة خفيفة حتى يسفر الفجر فكانت أسمعها تقول إذا ثبت من مرقدها ذلك وهي فرزعة : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تناهى نومة لاتقومين منها إلا لصرحة يوم النشور .

قالت: فكان هذا دأبها، دهرها، حتى ماتت^(١). ويلوح أنها كانت حرية كل الحرث على هذا التهجد . ويدل على هذا أنها ما كانت تقطع لحظة عنه حتى تشر بالزجاج ترى عليها تردها إلى سالف سُنْتها . ولم يبلغ دلالة على هذا مارواه صاحب « مصارع العشاق »^(٢) من أنها كانت قد انقطعت عن قيام الليل إثر علة ، فرأى في منامها حلمًا مغزاه أنها بانقطاعها عن الليل قد جرأت عليها غضب السماء وكانت تفقد بهذا ماحصلته من قبل بتهجدها . ولهذا أقبلت عليها الحورية التي راقتها في تحفها في الجنة إبان هذه الرؤيا وقد رأت انتصار الوضفاء عنها تونتها بهذه الأبيات :

صلاتك نورٌ والعباد رقود ونومك ضد لالصلة عنيد
وَعَزُوكْ غُمٌّ إِنْ عَقْلَتِ وَمَهْلُكٌ يَسِيرٌ وَيَفْنِي دَائِمًا وَيَبْدِي
ثُمَّ غابت عن بين عينيٰ ؟ واستيقظتُ حين تبدى الغجر . فوالله ما ذكرتها
فتورتها إلا طاش عقلٍ وأنكرتُ نفسي . قال : ثُمَّ سقطت رابعةً مغشيًا عليها ». ورابعة في هذا لم تكن تفعل غير ما منه القرآن وأنت به السنة وسار عليه الصحابة والتبعون . فالآيات التي تحدث على قيام الليل عديدة منها : « والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقِياماً » (الفرقان : ٦٥) ؛ « تتعاجف جنوبهم عن المضاجع » (السجدة : ١٦) ؛ والأحاديث لا تكاد تخلص مثل : « عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم ، وهو دأب الصالحين قبلكم ؛ ومنها عن الإمام ؛ وملفقة للوزر ؛ ومذهب كيد الشيطان ؛ ومطردة للداء عن الجسد ». وبالغ التابعون في هذا حتى ليذكر

(١) ابن الجوزي: « صفة الصفوة » ج ٤ ص ٥٨ ب ، مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ ١٢٧٥ هـ = وأورده ابن حذakan : « وفيات الأبيات » ج ١ ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٨٥٨ م ، وإن ترى بردى : « التلجمون الظاهرية » ، ج ١ ص ٣٣٠ ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ .

(٢) أبو محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج الفارسي : « مصارع العشاق » ، ص ١٣٦ ، طبع الجوائب بالقدسية سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م

عن أربعين منهم أنهم كانوا يصلون المداة بوضوء العشاء ، منهم سعيد بن المسئَّب والفضيل بن عياض وهيب بن الورد وأبو سليمان الداراني وأبو حنيفة ، وهم جميعاً ينتسبون إلى عصر رابعة ؛ فعادة قيام الليل إذن كانت منتشرة عند كل الصالحين سواء . كانوا من أهل الطريق فلما لم يكونوا . وإنما التجدد كثيراً من المؤلفين في التصوف يكرسون فصولاً طوالاً لمسألة قيام الليل ، ولنذكر على سبيل المثال صاحب « عوارف المعارف » الذي عقد أربعة أبواب لقيام الليل^(١) .

وكان قيامها الليل إما مفردة وحيدة أو مع أصحابها وصواحبها . أما أصحابها فن بينهم سفيان الثوري فيما رواه العطار فقال : « قال سفيان الثوري : كنت عند رابعة ذات ليلة . فصلّت حتى مطلع الفجر ؛ وصلّيت أنا كذلك . وفي الصبح قالت : علينا أن نصوم اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقناها الليلة^(٢) ». وهو يروى كذلك حدثاً مشابهاً مع الحسن البصري يقول فيه : « يروى أن الحسن البصري قال : بقيت يوماً وليلة عند رابعة تتحدث عن الطريق وأسرار الحق بحرارة بلغت حدّاً نسينا معه أنني رجل وأنها امرأة . فلما فرغنا من الحديث شعرت بأنني لم أكن إلا قفيراً ، بينما هي كانت غنية بالإخلاص^(٣) ». وهذه الرواية لا يمكن أن تكون صادقة من الناحية التاريخية في ظلّنا لأنها تجمع بين الحسن البصري ورابعة ، ونحن من يرجحون أن تكون وفاتها سنة ١٨٠هـ أو سنة ١٨٥هـ كاً يود أولئك الذين يريدون أن يجمعوا بينهما حتى يفسروا ورود أخبار لها مع الحسن البصري — وسنزري أدلة ترجيح رأينا بعد حين . ولذا سترفض كل ما يروى من أخبار لرابعة مع الحسن البصري . وإنما صيفت هذه الرواية ، كما صيف أمثلها ، من أجل التجدد نكتنا هاتين الشخصيتين الكبيرتين .

(١) من ٤٥ إلى ٤٨ ، من ٢٥٠ إلى ٢٦٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ = ١٩٣٩ م.

(٢) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، (راجعه بعد) نشرة نيكولسون .

(٣) المرجع السابق .

على أتنا نستطيع مع ذلك أن نستخلص من هذا الخبر أنها كانت تُفضي الليل أحياناً بصحبة بعض الصالحين . أما الصواحب فقد روت لنا المصادر من يعنون حيونة^(٢) — كما أشرنا إلى هذا من قبل — وهي التي يذكر عنها في هذا الخبر أنها كانت أقدر على قيام الليل من رابعة .

على أنه يلوح أن رابعة لم تكن تقوى على الاستمرار في هذا التهجد ، خصوصاً لما بالفت في الزهادة فهربل بذاتها وضفت مُنتها فلم تقدر تقوى على السهر الدائم . وأية ذلك ما روى عن أخبار بعض الاصحوص معها ؟ هذا إن سمعت هذه الأخبار ، وإن كان الأرجح أنها من نسج خيال القصاص استنباطاً للعبرة في هذه الأحداث التي جرت لها منهم أو بياناً لكرامات لها أرادوا نسبة وقوعها إليها .

ذلك فيما يتصل بالتهجد الذي كان يُفضي في قراءة القرآن وذكر الله . لكننا لانستطيع أن نعرف بالتفصيل من أى شيء كان يتكون هذا الذكر . فالسماع بالمعنى المعروف بعد ذلك عند الصوفية لم يكن قد نظم على هيئة حلقات ، إذ أن أول حلقة للسماع أنشأها صديق للسرى^١ السعَاطي (المتوفى سنة ٢٥٣ھ) في بغداد ، وهو على التنوخي . أما مجالس الذكر فكانت قد أنشئت ، منها مجلس الحسن في مسجد البصرة الجامع ، ومنها مجلس الذكر الذي أقامه عيسى بن زاذان في الأبلة حوالي سنة ١٢٠ھ . ولابد أن يكون الذكر قد تطور في هذه المجالس فلم يعد يقتصر على مجرد تكرار اسم الله وما يشابهه من الصيغ البسيطة ، خصوصاً ونحن نعلم أنه قد بدأ بإقامة رُبْطٍ ، فكان أول رباط أنشئ ، حوالي سنة ١٥٠ھ في عبادان على يد تلاميذه عبد الواحد بن زيد ، صديق رابعة ، وهو الرباط الذي ظفر بشهادة واسعة حتى كانت للصلة فيه فضيلة وميزة ، ويلوح أن الزَّنج في ثورتهم هم الذين

(١) أبو القاسم النسأبوري : « عقلاء المجانين » ، من ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ .

هدموا سنة ٢٦٠ هـ^(١) فلابد أن تكون قواعد الذكر ، ولو في صورة أولية ، قد صيغت وتطورت في هذا الرباط ، ولا بد أن تكون رابعة على صلة بما يجري فيه : أولاً لصلتها بعد الواحد بن زيد شيخ الذين أنشأوه ، وثانياً لكونه في عبادان أي في ضواحي البصرة ، فمن الطبيعي أن تكون على صلة به ، وإن كانت لم تدخله مراقبة ، لأن الأخبار لا تحدثنا عن نزولها به ، ولعل وصفها امرأة لم يكن يجوز لها الاتصال به ، كما أن الأخبار لم تحدثنا عن نزولها بغير بيتهما الذي أتينا على وصفه في مستهل هذا الحديث ، اللهم إلا أن نفترض في هذا « الكوخ » نوعاً من الصومعة أو الدويرة ، وهو افتراض لا ينبع لأن صلاتها العديدة برجال عصرها تنفي عنه هذه الصفة ، فضلاً عن أن أخبارها تتحدث عن جيرة لها ؟ فمن المستبعد أن يكون « كوكحها » هذا صومعة أو دويرة بالمعنى الحقيق . إنما عكفت على نسكمها وانقطمت للعبادة في بيتهما بالبصرة ؛ ونميل إلى تحديد مكانه في القسم الغربي من المدينة ، بعيداً عن الحى اللاهى الذى هجره مادامت هجرت نوع الحياة فيه .

أما الأداة الأخرى التى كانت تستخدمها للتواجد فى كل قلنا استذكار الموت.

ولهذا اتخذت مشجب قصب طوله من الأرض قدر ذراعين عليه أـ كفانها كينا تتأمله على الدوام فتتعظ بكل المعانى التى تتضمنها فكرته ، وتحتبب أحوال الخوف والفزع والإغماء والبكاء الذى كانت تستدعى إمعاناً في الفراغة . ويلوح أنه كان له أثر شديد في نفسها : فيه كانت تستدعى البكاء، مبتلة ومصلبة . قال المناوى : « وكان كفانها لم يزل عندها ، ويجدون محل سجودها كلما استيقن من كثرة البكاء^(٢) ». وقد كان عصرها عصر بكائين ، خصوصاً أصدقاؤها مثل

(١) راجع في هذا سلسلة : ماسينيون ، « بحث في نشأة المصطلح الفنى للتصوف فى الإسلام » من ١٣١ و ١٣٦ ، باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الصوفية » ، ورقة ١٠٥ - ب ، مخطوط بالظاهرية برقم ٤٦٤ عام .

رياح بن عمرو القيسى الذى «كان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرك فى مأتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا^(١) ». وعلم الحسن البصري قد كان من أول الذين بدأوا هذه السلسلة الخالفة من البكائين الذين زخر بهم القرن الثاني للهجرة في مدينة البصرة . ويلوح أن انتشار هذا البدع إلى بعد حدوثه الذى حال بين رابعة وبين التجديد في هذا المضمار . فلقد كان ينتظر منها — وقد كانت عازفة — أن تستعين في التوажд بأدوات السجاع ، لكن يظهر أن طبيعة العصر — بما طبع عليه من قسوة وميل إلى الحزن والبكاء والصراخ والإغماء وبالجملة كل ما يتصل بالأحزان والغم — قد فرض عليها فرضًا أن تتبع الشنة الجارية والعادة المتتبعة ، وإلا كانت في خطر لا ينظر إلى أعمالها على أنها تنددرج في باب التقوى . ويدو كذلك أنها لم تكتفى باتخاذ ما كان جاريًا ، بل بالفت فيه كا تنفيض بهذا أخبارها وأحكامها على زهاد عصرها . فهي كانت تسمى عبد العزيز بن سليمان الرأسى ، من الطبقة السادسة من تابعي أهل البصرة ، باسم سيد العبادين ، وهو قد «كان إذا ذَكَرَ القيامة والموت صرخَ كَا تصرخُ الشكلى وبصرخُ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع الميتُ والميتان من جوانب المسجد^(٢) ». فيشبه أن يكون تقديرها له كل^{هـ} هذا التقدير إنما كان لافراطه في البكاء والصراخ والفزع من الموت .

على أنا لاندرى إلى أى مدى أثر تأمل الموت هذا في تكيف حياتها وتصوير نظرتها في الوجود . إذ يلوح أن الأمر لم يكن يتجاوز الجانب العاطفى دون أن

(١) المأوى : المرجع السابق ، ورقة ١٠١ ب .

(٢) راجح : ابن تغري بردى : « النجوم الراهرة » ، ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥١ ، س ١٤ ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ ، تحت سنة ١٥٠ هـ التي توفى فيها عبد العزيز الرأسى . هذا . وهو ينقل هذا الخبر عن أبي القفر عبد الرحمن بن الجوزى في « مرآة الزمان » .

يتحول إلى تفكير نظري فيها ينطوى عليه معنى الموت ، أو على الأقل ليس لدينا من الأقوال ما يبين لنا عن تماّج تأملها في الموت والفناء . فكانت تستعينه ب مجرد استدعاء الأحوال الوجدانية ، مما كان يولد في نفسها خوفاً هائلاً . وإلى هذه الفترة يجب أن نعزّز ما ينسب إليها من أوصاف وأقوال تتصل بالخوف وخشية النار والشمور بالعدم . قال المناوي : « وكانت شديدة الخوف جداً . فإذا سمعت ذكر النار أخْفَى عليها^(١) ». وهي أقوال لا تتفق مع الأقوال الأخرى التي تنسب إليها عن نظريتها في النار . ومنعى هذا أنها الآن بازاء مرحلة التكوين في نظرتها الجديدة في الحياة الصوفية .

ومرحلة التكوين هذه ، في هذه النقطة كافية السابقة (أى في التهجد وقيام الليل وفي تأمل الموت) ، إنما كانت لازالت فيها تسير على سُنَّة العصر ، بل والجبل الذي قبله ، فمنذ انتوارج كما عند بقية الصالحين نجد هذه الأحوال كلها . إن رابعة لم تكتشف بعد طريقة الحقيقة . ذلك عهد الطلب عندها .

أما عهد التنقل فقد بدأ لما أن ذهبت إلى الحج . متى تم هذا وكم كان عمرها ؟ هذا ما لا تكشف الوثائق عنه . على أنه لا يمكن أن يتعدى هذه المرحلة المباشرة لوقت التوبة ، لأن فريضة الحج بالنسبة إلى الصوفي من الفرائض الفرورية في مستهل الحياة الروحية . على أن حجتها كان في البدء مجرد إتمام الواجبات الدينية ؛ ولا يمكن أن نفترض في حجاتها الأولى أنه وقع لها تلك الكرامات المزعومة التي تنسب إليها في عدة روايات .

إنما يلوح أن معنى الحج قد تطور في نفسها شيئاً فشيئاً سنة بعد سنة ،

(١) المناوي : « طبقات الصوفية » ، ورقة ٤٠٤ بـ.

ففضال الجانب المادى وازداد الجانب الروحى المجزد . ولن نستطيع أن نتابع مراحل هذا التطور ونرسم له *المتحنى بالدقىقة* ، خصوصاً لأن الروايات الخاصة بمحاجها توغل في أعماق الأساطير ، لأنها تتعلق بكرامات وقعت على يديها ، مثل ما رواه العطار^(١) من أنها ارتحلت ذات يوم إلى الكعبة ومهمها حمار يحمل متعاهما . فنفق الحمار في الطريق ، فقال أصحاب القافلة : سنحمل متعاهك على دوابنا . قالت رابعة : ما كان اتكلى عليكم لما أرحت ؟ بل ثقى بالله تعالى . فارحلوا إذن وحدكم . فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله وهي تقول : « إلهي ! أكذا يفعل الملوك بعيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتني إلى زيارة بيتك ، وهو أنت ذات داع حمار ينفق في الطريق وتدعني في الفيافي وحيدة ! ». ثأرت هذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متعاهما واستمرت في طريقها ولحقت بالقافلة . تلك وأمثالها من الروايات القائمة على الكرامات لا يمكن أن نقيم لها وزناً . لكن يمكن أن نأخذ منها أن رابعة كانت لا تزال تندو إلى الحج على دابة . وفدت روايات أخرى تقول إنها ذهبت وهي تتقلب على أضالعها . قال العطار^(٢) أيضاً : « روى الشيخ أبو على الفارمذى^(٣) أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء ، وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة في سبعة أعوام ». وهذا يجب أن نفترض – على صحة هذه الرواية – أنها قد انصرفت عن اتخاذ المطايا وهي غادية إلى الحج . لكن هذا يجب أن ينسب إلى دور متاخر لما أن دخلت في دور الزهادة الكلاملة .

ونتابع في هذا الموضع نطور معنى الحج عندها حتى آخر حياتها على افتراض

(١) فريد الدين العطار . « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٦١ نشرة نيكولون .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٢

(٣) هو أبو على الفضل بن محمد الفارمذى تلميذ أبي القاسم الشيرى وأستاذ الغزالى . راجع عنه ماورد في كتابنا : « شخصيات فلقة فى الإسلام » ، ص ١٤٠ تعليق .

أن ذلك كان في توازٍ مع نطور حياتها الروحية نحو زيادة التجريد والتزييه والعزوف عن الدنيا والتجرد عن كل مافيهما. ونستطيع أن نقسم هذا التطور إلى ثلاثة مراحل: فالمرحلة الأولى كانت فيها تؤدي تلك الفريضة كما يؤديها بقية الناس ، ولأنكاد ترى في الحج إلا ما يراه المسلم العادى من التبرك بزيارة البيت العتيق وقبل الرسول واستعادة آثار الإسلام الأول وإحياء معانى الإيمان الوليد ليزيد المرء إيماناً وتفى ، فضلاً عن فوائد الاجتماع بالناس وما إلى هذا مما يعرفه الناس العاديون للحج من فوائد . وهى إذن لم تكن تفعل إلا ما يفعله بقية الناس ولم تَهْبِتْ الحجَّ بعدُ مني روحياً خاصاً . ولماذا تقع هذه المرحلة في المهد التالى لتوتها مباشرة؟ ويجوز أن تكون هذه المرحلة قد امتدت سنوات يقدر عددها بعشرة دار تماقثها بعدُ بالأوضاع الحسية في الدنيا ، أى أنها تقع في عهد الطلب والانتقال الأول . وهى كانت لاتزال ترى أن للقيام بالحج ثواباً شرعاً كحقيقة أركان الدين . ولعل ما يمكن نسبته إلى هذا الدور قوله : « إلهى ! وعدت بجزاءين لأمرتين : القيام بالحج والصبر على الشدائـد . فإن لم يكن حجـى صحيحاً مقبولاً عندك ، فما يلئـاه وما أشد هذه المصيبة عندـى ! لكن ماجـزاـءـه هذه المصيبة ؟ »^(١) . فهذه صرخة من أعمـأـةـاـتـدـلـ علىـ أنهاـ لاـتزـالـ تـحرـصـ علىـ المعـنىـ الحـسـيـ المـادـيـ فـالـحجـ .

ثم كانت المرحلة الثانية لما أن بدأت تؤدي الحج على قدميها أو متقلبة على أضلاعها وما إلى هذا من أنواع التعذيب التي يرى الصوف أنها ضرورية لمساعدة ثواب الحج . فإبراهيم بن أدم يحكى عنه أنه أمضى أربعين سنة في حجة واحدة لأنـهـ كانـ فـيـ كـلـ خـطـوـةـ يـصـلـيـ رـكـعـتـيـنـ . وـكـانـ يـقـولـ : « غـيرـىـ يـسـلـكـ هـذـاـ الطـرـيقـ عـلـىـ قـدـمـيـهـ ، أـمـاـنـاـ فـأـسـكـهـ عـلـىـ رـأـسـيـ »^(٢) . ومع إسقاط عنصر المبالغة الضرورية

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦٢ .

(٢) العطار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

فِي مُثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ — طَبِيعًا فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ ! — فَإِنَّهَا يَمْكُنُ أَنْ تُشَيرَ إِلَى أَنَّ الصَّوْفِيَّةَ كَانُوا يَفْتَنُونَ فِي التَّعْذِيبِ لِأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ بِسَبِيلِ الْحِجَّةِ حَتَّى يَزْدَادُ الْأَجْرُ وَيَضَعُفُ الثَّوَابُ . وَالْمَطَّارُ يَرَوِيُّ هَذَا الْخَبَرَ لِيَرْبِطَهُ بِكَرَامَةِ أَخْرَى لِرَابِعَةٍ وَهِيَ أَنَّ الْكَعْبَةَ قَدْ ذَهَبَتْ بِنَفْسِهَا لِلقاءِ رَابِعَةَ وَاسْتَقْبَالِهَا ، وَلِهَذَا لَمْ يَمْجُدْهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْمَهُ فِي مَكَانِهَا بَعْدَ هَذَا الْجَهْدِ الشَّاقِ كَاهَ !

أَمَّا وَقْدَ ارْتَفَعَتْ حَرَارةُ إِيمَانِهَا وَازْدَادَتْ شَعُورَهَا بِنَفْسِهَا بِفَضْلِ هَذِهِ الْمَجَاهِدَاتِ الَّتِي فَرَضَتْهَا عَلَى نَفْسِهَا وَهِيَ بِسَبِيلِ الْحِجَّةِ ، فَقَدْ كَانَ مِنَ الظَّبِيعِيِّ أَنْ يَعْلُمُ مِنْ الْحِجَّةِ فِي نَفْسِهَا . فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى تَطْلُبُ الْكَعْبَةَ لِرَؤْيَةِ الْكَعْبَةِ ، صَارَتْ تَدَاعِبُهَا الْآنَ فَكِرَةُ طَلْبِ الْكَعْبَةِ لِرَؤْيَةِ رَبِّ الْكَعْبَةِ . رَوَى الْمَطَّارُ^(١) قَالَ : كَانَتْ رَابِعَةُ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْكَعْبَةِ ذَاتِ يَوْمٍ ، فَبَقَيْتَ وَحْدَهَا فِي الصَّحْرَاءِ ، وَشَعَرَتِ الْوَحْشَةُ فَصَاحَتْ : « إِلَهِي ! إِنِّي لَيَضْطَرُّبُ فِي هَذِهِ الْوَحْشَةِ . أَنَّالِيَّنَةُ وَالْكَعْبَةُ حَجَرٌ . وَمَا أُرِيدُهُ هُوَ أَنْ أَشَاهِدَ وَجْهَكَ النَّكَرِيْمَ ! » فَنَادَاهَا صَوْتٌ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ : « يَا رَابِعَةَ ! أَنْطَلَيْنِ وَهَذَا مَا يَقْتَضِي دَمُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا ؟ إِنَّ مُوسَى حِينَ رَأَى رَامَ أَنْ يَشَاهِدَ وَجْهَنَا ، لَمْ نُلْقِ إِلَّا ذَرَةً مِنْ نُورِنَا عَلَى جَبَلٍ سَخَرَّ صَمِيقًا ! » . فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ نَرَى رَابِعَةَ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْكَعْبَةِ عَلَى أَنَّهَا حَجَرٌ غَسِيبٌ ، أَيْ أَنَّهَا بَدَأَتْ تَتَخلَّصُ مِنَ التَّلَبِّيسِ بِالْعُنْفِ الْحَتَّى فِي الْحِجَّةِ . وَالرَّوَايَةُ الْآخِرَى الَّتِي يَرَوِيُّهَا الْمَطَّارُ تَقْلِيلًا عَنِ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيِّ الْفَارَمِذِيِّ فِيهَا يَتَصَلُّ بِتَقْلِيبِهَا عَلَى أَضْلاعِهَا سَبْعَةَ أَعْوَامٍ يَمْكُنُ أَنْ تَنْدَرِجَ تَحْتَ هَذَا الْمَعْنَى عَيْنِهِ . فَهَنِئْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ إِذَا قَدْ جَرَدتِ الْكَعْبَةُ عَنِ مَادِهَا وَأَبْقَتْهَا مَعْنَاهَا . وَهِيَ لَا تَرَالَ تَؤْمِنُ بِفَائِدَةِ الْحِجَّةِ إِلَيْهَا . أَمَّا فِي الْمَرْحَلَةِ الْثَّالِثَةِ وَالْآخِرَةِ فَقَدْ زَالَ كُلُّ مَعْنَاهَا وَعَادَتْ لَأَتْرِى لِلْكَعْبَةِ مَعْنِيًّا . ذَكَرَ الْمَطَّارُ قَالَ : « يَرَوِيُّ أَنَّ رَابِعَةَ كَانَتْ بِسَبِيلِ الْحِجَّةِ فَرَأَتِ الْكَعْبَةَ قَادِمَةً

(١) « تَذَكُّرُ الْأُولَاءِ » : ج ١ ص ٦٢ - ٦٣ .

نحوها عبر الصحراء ، فقالت : « لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ! » ولم تتأت أن تنظر إليها ^(١) . هذه فكرة على أكبر درجة من الخطورة ، إن صحت الرواية التي أوردها المطار ، وليس يستبعد أن تكون صحيحة ، فهي نفس الفكرة التي لعبت دوراً خطيراً في مذهب الحلاج وكانت من بين أسباب تكثيره ثم صلبه . ذلك أن الحلاج بعد أن حجّ للمرة الثالثة والأخيرة اعتقاد « أن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو عقلياً في ثوتنا صورة الكعبة كما نجد « من » أقامها ، وأن نحطّم معبد بدننا كما يبلغ « من » جاء إليه ليتحدث إلىبني الإنسان » ^(٢) . فها هي ذي رابعة قد أحتجت في نفسها صورة الكعبة لأنّها تريد أن تجد من أقامها . وبهذا تطور المعنى الحسي للحج فأصبح مجرد مناسبة لروية الله ، بل صار في وسعها أن تستغني نهائياً عن هذه القريبة لأنّها ستجد الله في نفسها ، فاحتاجتها بعد إلى مشاهدته عند الكعبة ! وهذا كلّه كانت تواكه عملية التزية المستمر والتجريدي للتصل في فهمها لسائر معانى الحياة الروحية .

ولعل هذا التطور في التزية والتجريدي قد بلغ أوجه فيما رواد ابن تيمية قال : « قال على الحريري : قيل عن رابعة إنّها أحتجت فقالت : هذا (أى البيت الحرام) القسم المعبود في الأرض ، وإنّه ما واجهَ الله ولا خلا منه » ^(٣) . وهذا يؤيد الرواية التي ذكرها المطار ، وفيه من الجرأة في التعبير قدر هائل يدل على أي مدى يانعه فكر رابعة من جسارة لأنجد لها نظيراً في هذا القرن ولا في الذي يليه عند الصوفية ؛ ولله لم يظهر بوضوح لأول مرة إلا ابتداءً من الحلاج . كيف لا ، وهي ترى في

(١) فريد الدين المطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) ماسينيون : « المحن الشخصي لحياة الحلاج » في كتابنا « شخصيات ثلاثة في الإسلام » ص ٦٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٣) ابن تيمية : « الرد على الحريري » ، ورقة ٩١٠٥ (أوردته ماسينيون في : « مجموع نصوص غير منشورة خامسة بالتصوف الإسلامي » ص ٨ برقم ٨) .

الكمبة صنعاً وفي التبرك بها وتنية؟! إن بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية في الحياة الدينية خلطة واحدة سترها عما قليل تخبطوها بثبات جنان توافق ثقتها بنفسها كلاماً أو غلت في الطريق إلى الله.

منذ ذلك الحين ورابعة لاتندى من الحجج سوى وجه الله، وترى نفسها جديرة بهذه المشاهدة، لأنها أسرفت في قيام الليل وتعذيب الجسد وإيمانة كل إحساس بالدنيا في قلبها، — فهذه مرتبة تستوى فيها مع المتصوفين عامة، — إنما لأنها قد آلت إلى حالٍ من التجدد الكامل والتزييه الخالص بحيث صارت روحاناً نورانياً أقرب ما يكون إلى جوهر الألوهية، والشبيه يدرك الشبيه، فلمَّا لانطبع عن جدارِها إلى معاينة سُبحَات وجه ربها؟! وعلى ضوء هذا نفسِر تلك الأسطورة التي رواها المطار وأشرنا إليها منذ قليل، والتي تقول إن إبراهيم بن أدم أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة، ولما لبنتها لم يجد لها في مكانها فقال ناخماً شاكياً : « وأسفاه ! أظلم بعرى حتى لم أعدْ أرى الكعبة؟ » فسمع صوتاً يقول : « يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة ذهبت للقاء رابعة ». فثار إبراهيم ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها، وشاهد رابعة تقدم مستندة إلى عصا، فقال لها : « أى رابعة ! يا جلال أعمالك ! ثم وما تلك الضجة التي تحدث فيها في الدنيا ؟ فالكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة ». فأجابته رابعة قائلة : « يا إبراهيم ! وما تلك الضجة التي تثيرها أنت في الدنيا بقضائك أربعين عاماً حتى تبلغ هذا المكان؟ ! فالكل يقولون : إبراهيم يتوقف في كل خطوة ليصل إلى ركتين ». فقال إبراهيم : « نعم أمضيت أربعين ربيعاً أجيّاز هذه الصحراء ». هنالك قالت رابعة : « يا إبراهيم ! لقد جئتَ أنت بالصلة ، أما أنا فقد جئتُ بالفقر »؛ ثم ذرفَتْ مُرَ العَيْرات^(١) ». فقولها هنا : « لقد جئتَ أنت بالصلة ، أما أنا فقد جئتُ بالفقر »

(١) فريد الدين المطار : « تذكرة الأولياء »، نشرة بيكالوسون ، ج ١ ص ٦٢ - ٦١

فيه أبلغ دلالة على مرتبة التجريد والتزييه التي بلقتها ، إن صحت هذه الرواية ؟ أو التي ظن الكتاب المؤرخون للاصوفية أنها بلقتها بالنسبة إلى إبراهيم بن أدهم وهو من هو زهداً وعلوًّا كعب في الطريق — إن لم تصدق هذه الرواية . ذلك أنها تقصد من قوله إنه جاء الكعبة ومؤهلاته الصلاة أنه لا يملك إلا هذه الشعائر الدينية والمراسم والطقوس يؤديها بمعناها الظاهر دون أن يجردتها ويرفعها إلى المعنى الباطن ؛ أما رابعة فقد ارتفعت فوق هذه الدرجة التي تقوم على الظاهر الحسوس ، إلى درجة عليا استحال فيها المزَمَمُ الديني إلى رمز ، وأضفت فيها الشعيرة من شعائر الإيمان إلى معنى مجرد . « فالفقر » هنا هو « الفقر من المادة » أي التجرد عنها نتيجةً للتجرد عن الدنيا ، هو التروُحُ المستمر ، هو الشفوف الذي يطلع على النور الأعلى . ورد في « جامع الأصول » أن الفقر أصله رجوع العبد « إلى عدمه الأصل بحكم السبق الأزلي ، حتى يرى وجوده وعمله وما له ومقامه كله فأفضلَ من الله وامتثالنا محضاً ^(١) » ، فيشعر بارتداه إلى حال العدم الأصيل لما أن كان إمكاننا محضاً ، وفيقى في صفات الألوهية ، ويطمس في عين الجمجمة الأحادية ، فيكون على أتم إعداد لقبول الاتحاد بالألوهية — وهذا هو معنى مشاهدة الله وجهاً لوجه : فهو امتزاج الواحد بالآخر إبان لحظاتٍ تطول وتتصحر وتقل وتكثر وفقاً لما يحبه الله من لطف من لذته بالعبد التجدد في حضرته . إن إبراهيم كان لا يزال يرسف في قيود الشعائر لأنَّه يرى النهاية في أداء التكاليف ، أما هي فقد تجاوزت نطاق المراسم إلى المعنوي الثابتة في مملكت الأزل قبل الخلق الزماني ، وتجبردت عن الأعيان الازئلة كما تحيا في الأعيان الثابتة وهي حقائق المكنات في علم الحق تعالى ، هي الوجود الماهوى (Existenz) الذي تسوده الطهارة والبكارة .

(١) الشيخ أحمد ضيام الدين الكشخاعي : « جامع الأصول في الأولياء » ، ص ٣٥١ .
القاهرة سنة ١٢٢٨ = ١٩١٠ م .

ل تستغن عن الكعبة إذاً : فالحضره تنشد في أي مكان . لقد كان هذا البيت العتيق ، « هذا الصنم المعبد على الأرض » ، بمثابة أداءً تعينها على السباحة في بحر الألوهية الرازخ ، وجناح صناعي تذرع به ريشها ينبع في جناحيها الطبيعيين الريش . أما الآن وقد بلغت ما بلغت ، فلتطرّحه . وهذا معنى إقبال الكعبة إليها ، أي أنها لم تعد في حاجة إلى الانتقال كيما تنعم بالحضره ، بل ستتقىدها أياًً كانت هي .

لقد بلغت مرحلة التبادل بين الحضره وبينها . كانت تقبل على الكعبة ، و إذا بالكمبه هي التي صارت تقبل عليها . أقبلت عليها في ذلك العام ، فعليها أن ترد لها الزيارة . قال العطار بعد ذلك مباشرة : « وفي السنة التالية قالت : لما كانت الكعبه قد أقبلت إلى في العام المنقضى ، فسألها أنا عليها هذا العام ». إنها صلة متبادله ، لأنها صلة صداقة ومحبة بين رابعة وبين الحضره الإلهية التي ترمز إليها الكعبه . ومن شأن هذه الصلة أن يكون ثمت تزاور دون ما تتكلف . لهذا قالت تلك العبارة وفيها من البساطه وعدم الكلفة ما يكشف عن الصلة الجديدة التي عقدتها مع الله .

ومن الواضح طبعاً في هذا كله أن انتقال الكعبه هنا وانتقالها هي يجب إلا ينبعها بمعنى حسي ، بل بمعنى مجرد هو سعي رابعة إلى بلوغ الحضره الإلهية للفداء فيها والامتزاج بها ، وسعى الحضره نفسها لمبادرتها هذا السعي وذلك بتلطئها ورضاهما وقبولها في داخل الحضره .

لذا نحسب أن معنى الحج قد رق ولطف وتروحن في نفس رابعة إلى حد أنها لم تعد تشعر بال الحاجة إلى أداء فريضة الحج بالمعنى المادي ، فانقطعت عنه في سنواتها الأخيرة بعد أن امتلأت بهذا المعنى الجديد للحج ، وهذا هو ما يفسر قولهما رأت الكعبه — بمعناها الحسي — قادمة نحوها : « لا أريد الكعبه ، بل رب

الكعبة ، أما الكعبة فإذا أفل بها ! » ولم تنشأ أن تنظر إليها^(١) فمعنى هذا أنها لم تعد ترغب في النظر إلى الكعبة ، الكعبة المحسنة ، البيت الذي يسكنه ، أي أنها ، بصرىع العبارة ، لن تحج بعد ذلك اليوم ، وستأوى إلى بيتها وتقطع فيه ، فنه هو الآخر أيضاً تستطيع أن ترى وجه الله وأن تنعم بالحضور ، فالاقتصار على البيت العتيق الذي يسكنه وثنية ، شأنها شأن وثنية أولئك الذين اقتروا على أصنامهم فرأوا فيها وحدها آلة . لقد قال تعالى : « فَإِنَّمَا تُولُوا قُبْرَةَ وَجْهِ اللَّهِ ». إذاً فما معنى الاقتصار على البيت الحرام !

و تلك أعلى مراتب التز zieh ، بلغتها رابعة فودعت التنقل وأوت إلى بيتها
هي الحرام .

— ٦ —

أوت رابعة إذن إلى بيتها واستقرت في اقطاعها الله . فإذا كان من أمر حياتها الدنيوية ؟

هنا يجب أن نجدد أولاً خلطاً وقع فيه المؤرخون القدماء وجراهم عليه المحدثون الذين كتبوا عن رابعة ، وبخاصة مارجرت اسميث في كتابها عن « رابعة وزميلاتها للتصوفات في الإسلام^(٢) » ، مع أن كثيراً من أولئك الأقدمين أنفسهم قد نبهوا عليه ، وبخاصة عبد الرؤوف الناوي في كتابه الجيد « طبقات الأولياء^(٣) » ، كما سرني عما قليل ، ومن قبله ابن الجوزي في « صفة الصفوة^(٤) » ؛ وقد رأينا من قبل آثاراً لهذا الخلط بنهنا عنها .

(١) المصادر : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

Margaret Smith ; Rabia the Mystic and her Fellow-saints in Islam. (٢)
Cambridge, 1928

(٣) مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ ورقة ١٠٦ - ١٠٧ ب.

(٤) ج ٤ ص ٢٠٢ برقم ٦٧ تاريخ الظاهرية بدمشق .

ذلك هو الخلط بين رابعة الشامية وبين رابعة البصرية صاحبتنا . أما رابعة الشامية فهي التي قال عنها المناوي إنها «رابعة بنت اسماعيل العدوية» ورابعة هذه بعثة تحية ، وهي شامية ، والتي قبلها بمودة [١٠٦] تحية ، وهي بصرية فافتقدا ، والغريب في هذا أن المناوي يقول عنها إنها تسمى «العدوية» أيضاً وهو ملأنجده في المصادر الأخرى . فهل اختلط عليه الأمر هاهنا في هذه الدقيقة؟ لانستطيع الجواب حتى نظر في مصدر آخر مستقل ، لأن حجة الصمت لانصلح كثيراً في البحث التاريخي . والغريب أن ابن الجوزي في «صفة الصفة» لم يشر إلى نسبة هذا . لذا لو كان لنا أن نرجح لقولنا إننا ننبع إلى أن يكون هنا عدم تنبه من جانب المناوي أو غفلة من جانب الناسخ . والمناوي على كل حال إنما يردد هنا ما قاله ابن الجوزي من قبل في «صفة الصفة» في تفرقته بين كليتيهما . قال ابن الجوزي : «رابعة زوجة أحمد بن أبي التواري ، كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا . وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلْمَى أن رابعة العدوية شارك هذه في اسمها وأسم أبيها . وعموم ما يأتى في الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ، والعدوية بصرية ، وهذه شامية» . وليس من شك في أن هذا يدلنا على أن الخلط قد حدث منذ عهد مبكر جداً مادام السُّلْمَى (ولد سنة ٥٣٠هـ - ٩٤١هـ وتوفي سنة ٤١٢هـ - سنة ١٠٢١م) قد نبه إليه . وقد يكون في قول ابن الجوزي هنا «والعدوية بصرية ، وهذه شامية» ما قد يزيد في تأييد مارجحناه من غفلة المناوي (أو الناسخ) بذلك رابعة الشامية على أنها «عدوية» أيضاً ، مادام ابن الجوزي في معرض التفرقة يكتفى بقوله «العدوية» ، فلو كانت رابعة الشامية عدوية هي الأخرى لما جاء إلى هذا التمييز فاقتصر على هذه النسبة . خصوصاً أنه من المحتل جداً أن يكون ابن الجوزي هو مصدر المناوي في هذه التفرقة ، كما هو مصدره في غالب ما يورد من أخبار في هذا الكتاب .

ثم يؤكد ابن الجوزي هذه التفرقة بعد ذلك مباشرة عن راوٍ آخر فيقول : « وقد أخبرنا أبو ناصر قال : أَبْنَا نَا أَبُو الْفَتَّانِمْ بْنَ النَّرْسِيِّ قَالَ : رَابِعَةَ بَالْبَاءِ بَنْقَطَةِ فِي تَحْتِهَا بَصْرِيَّةٌ ، وَرَابِعَةَ بَالثَّنَيْنِ مِنْ تَحْتِهَا شَامِيَّةٌ^(١) .

هناك إذن رابعتان ، إحداهما رابعة العدوية البصرية ، والأخرى رابعة أو رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري . وهذا الأخير هو أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري . « واسم أبي الحواري ميمون . من أهل دمشق . حب أبو سليمان الداراني وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الفزارى وبشر بن السرى وأبا عبد الله النباجى وغيرهم من المشائخ — رضى الله عنهم أجمع — وله أخ يقال له المولى بن أبي الحوارى يحرى مجرأه فى الزهد والورع ؟ وابنه عبد الله من الزهاد ؟ وأبوه أبي الحوارى ... كان من العارفين والورعين . فيتهم بيت الورع والزهد . مات سنة ثلاثين ومائتين^(٢) ». أما زوجه ، رابعة الشامية ، فإنها ماتت سنة خمس وثلاثين ومائتين ، « ودفت برأس زياتيبيت المقدس » ، كما يقول المناوى^(٣) . إلا أنه ورد في خطوطه المنسوبة هذه أنها توفيت سنة « خمس وثلاثين ومائة » . وليس من شك في أن هاهنا تحريفاً ، والأصل « ومائتين » ، لأنها وهى زوجة أحمد بن أبي الحوارى المتوفى سنة ثلاثين ومائتين لا يمكن أن تكون قد توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة . فهل يكون المناوى قد وقع في هذا الخطأ الفاحش وهو الذى حرص على التنبيه على هذه التفرقة وقال بصرامة إن رابعة بنت إسماعيل الشامية هذه هي زوجة أحمد بن أبي الحوارى — من أجل أن ينقذ التاريخ

(١) ابن الجوزى : « صفة الصفوة » ، خطوط الظاهرية بدمشق برقم ٦٧ تاريخ ج ٤ . ١٢٠٢ .

(٢) أبو عبد الله الحسين بن نصر الجوهري : « مناقب الأولياء وشمار الأخبار » ، خطوط في جميع بالظاهرية برقم ٤١ تصويف ، ورقة ١٧٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ورقة ١٠٦ ب .

آخر — وهو سنة ١٣٥هـ — الذي ينسب في بعض المصادر — كما سترى — أن رابعة توفيت فيه؟ لو كان هذا هو مقصد ، فيالسوء مقصد ! فقد أفسد كل مافعله في مستهل حديثه حينما ميز بين كلتا الرابعتين . وليس بعيد أن يكون قد وقع فعلاً فيه — ولم يكن عن تحريف النسخ — إذا ما تذكرنا أنه أكتفى في بيانه لوفاة رابعة العدوية البصرية بذكر سنة ثمانين ومائة؛ وإذا ما تذكرنا كذلك أنه كان متزدداً في إيراد أخباره ، فتردد كذلك في الحديث عن القبر القائم بقرب بيت المقدس ، فقال: « ودفنت برأس زيقاً بيت المقدس . وقيل [١٠٧] المدفونة هناك إنما هي الأولى » أي البصرية . ومع هذا فقد افترضنا أن تكون هنا سقطة قلم والأصل هو: « سنة خمس وثلاثين ومائتين » أي بعد وفاة زوجها أحد بخمس سنين . فهي لا شئ توفيت في ذلك المهد أو قريباً منه زيادة أو نقصاً بقليل .

ونحن نفترض أن ابن الجوزي كان المصدر لمن جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن رابعة . وإن التراه في كل ما أورده من أخبار عن رابعة الشامية يذكر سلسلة من الرواية تتبعها دليلاً باسم أحمد بن أبي الحواري ، فهو إذن الراوى المباشر . وهذا يعطينا مفتاح المشكلة في كل الأخبار التي وردت باسم رابعة — بدون تمييز — مشفوعة بأسماء الرواية . فكل سند يرد فيه ذكر أحمد بن أبي الحواري يجب أن تقدر أنه يتحدث عن رابعة الشامية ، لاعن رابعة العدوية البصرية صاحبتنا في هذا البحث .

لماذا يجب علينا اتخاذ هاتين القاعدتين :

(الأولى) أن نستبعد كل رواية ورد سند رواتها ومن بينهم أحمد بن أبي الحواري ، لأن هذا ما كان له أن يحدث إلا عن رابعة الشامية ، زوجه؛ وهو شامي ولا نعلم أنه أتى البصرة ؟ وفضلاً عن هذا فإن موته سنة ٢٣٠ يجعل من المستبعد جداً أن يكون قد عرف رابعة البصرية حتى لو كان قد ارتحل إلى البصرة

لأنه لابد أن يكون ذلك في سن مبكرة كثيراً ، اللهم إلا إذا افترضنا أنه عمر طويلاً جداً وبدأ التصوف مبكراً . كل هذا على افتراض أن رابعة البصرية توفيت حتى في أبعد سنة تفترض لها وهي سنة خمس وثمانين ومائة . وإذا فكل ما يروى عن ابن أبي الحواري يختص برابعة أو رابعة الشامية وحدها ، زوجه .

(الثانية) أن كل الأخبار التي ثبت سند روايتها وفيهم أحمد بن أبي الحواري يجرب أن نقطعها من حساب رابعة البصرية إذا نسبت إليها غفلة من كل سند . ذلك أن بعضها من الرواة والمؤرخين لا يأتون بالسند ، أو لا يأتون به كاملاً بحيث يصل إلى الراوى الأخير ، ويدركون عن رابعة البصرية أخباراً وردت عن مؤرخين آخرين مشفوعة بسند فيه أحمد بن أبي الحواري أى — تبعاً للقاعدة الأولى — مما يجب أن ينسب إلى رابعة الشامية . فهؤلاء إذن تسقط رواياتهم مجرد ورودها منسوبة في روايتها إلى أحمد بن أبي الحواري في المصادر الأخرى المعنية بسلسلة الرواية .

فبتطبيق هاتين القاعدتين نستطيع أن نميز بين ما يصبح لرابعة البصرية صاحبتنا ، وما يصبح لرابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري . على أن يتميّز — مع ذلك — لن يكون هاهنا كاملاً كما نود ، وذلك لسبعين :

(الأول) أن القليلين من المؤرخين هم الذين حرصوا على الإثبات بسلسلة الرواية كاملة ، لأنهم مُحدّثون فيحرصون على ذكر السند تماماً ؛ وخيرهم في هذا من غير شك هو ابن الجوزي في « صفة الصفوة » .

و (الثاني) أن ثمة أخباراً عديدة لم ترد عند الأولين — أى المئتين بذلك السند التام — ، فلا ندرى ، وهى مُغفلة من كل سند ، أهى حقاً لرابعة البصرية ، أو لعلها لرابعة الشامية ؟ إن منهم من يقدمونها على أنها لرابعة البصرية — لكن من يدرينا لعلها في الأصل لرابعة الشامية وخلطوا فيها كما فعلوا في الروايات الأخرى

التي استطعنا تمييزها وفقاً للقاعدتين السابقتين . وإن منهم كذلك لمن يكتفون بنسبتها إلى مجرد « رابعة » ؟ فليت شعرى أية رابعة يعنون ! أما أصحابنا رابعة البصرية هي الأشهر التي ينصرف إليها خصوصاً ذهن القارئ ، فقد افترضنا — لأننا لا نملك أن نفعل غير ذلك — أن المقصود هو رابعة العدوية البصرية أصحابنا ، وإلا كان على الرواوى أن ينبه إلى ذلك . فإغفاله التنبيه على غيرها يُفسر بقصده إياها وحدها .

ذلك التقدير النهجى الذى قلنا به على أكبر درجة من الخطأورة لأنه سببوا ضعف شخصية رابعة العدوية البصرية أمّا إيضاح مستطاع بوسائلنا . فكما يُؤيد من آراء تُنسب إليها كأن مصدر التناقض الفاحش فيها هو ذلك الخلط بين كلتا الرابعتين ! وكم من مسألة استعجمت مذاهبها وعمميات مسالكها في البحث في رابعة : حياتها وأفكارها ، لا لشيء إلا لوقع هذا الالتباس بين رابعة البصرية ورابعة الشامية ! أجل إن كثيراً من الأخبار والأقوال متبرر بعد هذا التهجّج ، ونحن أحوج ما نكون إلى تمهّل أخبار رابعة لندرتها ، لكن ما قيمة هذه الأخبار مادامت لا تُنسب إليها ، بل ولا إلى أسطورتها هي الخاصة ؟ !

وأول خدية لهذا النهج كل ما ورد من أخبار تفترض أنها تزوجت . وهي :

١ — ما رواه صاحب « الروض الفائق في الموعظ والرقائق »^(١) من أنه :

« لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصري في الدخول عليها هو وأصحابه ؛ فأذنت لهم وأرخت ستراً ، وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بملك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عدّتك ، فاختارى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم ... » إلى آخر ما ذكره هنا من أنها طلبت من الحسن

(١) الشيخ الحريفى : « الروض الفائق في الموعظ والرقائق » ، ص ١١٧ — ١١٨ .
طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة ، ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م .

البعرى الذى كان أعلم هؤلاء أن يجيئها عن أربع مسائل ، فإن فعل فهى له أهل .
والخبر كله غير صحيح أولًا لأنه يتحدث عن الحسن البصري ، والحسن
البعرى ولد سنة ٢١٥ هـ (٦٤٢ م) وتوفى سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) ، بينما
التاريخ الذى سنتهى إليه في بيان وفاتها هو سنة ١٨٥ هـ أو سنة ١٨٥ هـ ، فلا يمكن
وقوع هذا الحادث بينهما . وإنما هو من الأخبار المديدة التي شاء أصحابها
أن يرطبوها فيها بالحسن البصري . وسنرى تفصيل هذا التفضيل لوفاتها المتأخرة
حين الحديث عن تاريخ وفاتها .

وغير صحيح ثانية لأنها لم تتزوج كما سيتأيد فيما يلى :

٢ — ماذ كره اليافعي ^(١) في «روض الرياحين في مناقب الصالحين» في قوله :
«وحكى عن أحد بن (أبي) الحوارى عفوا الله عنه أنه قال : كانت لرابعة المدوية
أحوال (في المطبع : أحوالاً) شتى : فكانت مرة يغلب عليها الحب»
إلى آخر الأبيات التي أوردها من آفاتها في حال الحب ثم في حال الأنس ،
ثم في حال الخوف . والغريب أنه يستمر في الخبر فيقول بعد هذه الأبيات مباشرة :
«قال زوجها : فقلت لها ميلة من الآيات» فكيف يكون الحديث عن رابعة
البعرىية إذا كان زوجها أحد بن أبي الحوارى ؟ كذلك الحال في كل ما ورد
اليافى بعد ذلك «عن زوجها» ، وكذلك ما قاله من أنه «كانت تأتىها الجن
بكل ماتطلب» ، فهذا أيضًا من شأن رابعة بنت إسماعيل الشامية ، كما يتأيد ذلك
ما رواه المناوي حين قال عن رابعة بنت إسماعيل الشامية : «وكانت ترى الجن
عيانًا» ، فهو إذن الشامية التي كانت على صلة بالجن ، لا رابعة البصرية .
على أن ابن الجوزى في «صنف الصفو» ^(٢) قد ذكر هذه الأخبار تحت

(١) اليافى : «محضر من كتاب روض الرياحين في مناقب الصالحين» ، من ١١١

ص ١١٢ ، طبع المطبعة الكتبية ، القاهرة سنة ١٢٧٩ هـ = سنة ١٨٦٢ م .

(٢) ورقة ١٢٠٢ - ١٣٠٣ .

اسم رابعة الشامية ، وروها نقلًا عن أحمد بن أبي الحواري . فهذا يقطع أيضًا بأن اليافى هنا قد أخطأ خطأً ظاهرًا ، اللهم إلا إذا فهمنا من قوله : « رابعة المدوية » أن المقصود هو رابعة الشامية على أساس أنها عدوية أيضًا .

٣— ما رواه چامى في « نفحات الأنس »^(١) من أنها كانت إذا طبخت قدرًا قالت لزوجها : « كُلْه يَا سِيدِي فَا نَصْرَج بِلَا بِالْتَّسْبِيح ». وهو خبر ورد عند اليافى في الموضع السابق ؛ ورواه ابن الجوزى في « صفة الصفة » على أنه خاص برابعة الشامية .

٤— ما أورده العطار من حكاية الحسن معها في سؤالها إياه عن عدة مسائل — وهو ما ذكر من قبل تحت رقم ١ — والعطار يذكر الخبر دون ذكر الحسن ؛ وبدلاً من أربعة مسائل يذكر ثلاثة . ونحن نرى أنه مadam العطار لم يفعل إلا أنه اختصر في الخبر الوارد في رقم ١ ، فهو إذن لم يأت إلا بالخبر عينه ؛ فحكم هذا الخبر حكم رقم ١ ، أي أنه غير صحيح .

من هـذا يتبيّن إذاً أن الأخبار التي تفترض زواج رابعة البصرية إنما هي في الواقع أخبار خاصة برابعة الشامية ، كما يؤيد ذلك ابن الجوزى بما لا حاجة بهم إلى فضل بيان . وعلى هـذا فليس لدينا مصدر واحد يصرّح بأن رابعة البصرية تزوجت .

ذلك هو الجانب السلبي من حجاجنا للبرهنة على أن رابعة البصرية لم تتزوج .
والجانب الإيجابي هو أخبار طلب الزواج منها :

- (أ) أما ما يتصل منها بالحسن البصري ففرض جملة لما ذكرناه في رقم ١ .
(ب) أما الأخبار التي لا يقف حائل دون صحتها فهي خطبة عبد الواحد ابن زيد لها ثم خطبة أمير البصرة محمد بن سليمان الماشي كذلك .

(١) چامى : « نفحات الأنس » ، ص ٧١٩ ، نشرة ليس وناس ، كلكتنا سنة ١٨٥٩ م .

والخطبـة الأولى روـى بنـهاـكـل من عـين القـضاـة المـذـانـى فـي « شـكـواـه »^(١) ثمـ الزـيـدـى فـي « إـتحـافـ السـادـةـ المـتـقـيـنـ »^(٢). قالـ عـينـ القـضاـةـ فـيـ الـحـدـيـثـ عنـ رـابـعـةـ : « وـخـطـبـهـ عـبدـ الـوـاحـدـ بـنـ زـيـدـ ، مـعـ عـلـوـشـانـهـ ، فـهـجـرـتـهـ أـيـامـاـ حـتـىـ شـفـعـ لـهـ إـلـيـهـاـ إـخـوانـهـ . فـلـمـ دـخـلـ عـلـيـهـاـ قـالـتـ لـهـ : « يـاـ شـهـوـانـىـ ! اـطـلـبـ شـهـوـانـيـةـ مـلـكـ ! » . وـرـوـاهـ الزـيـدـىـ بـصـورـةـ أـكـلـ فـقـالـ : « وـخـطـبـهـ عـبدـ الـوـاحـدـ بـنـ زـيـدـ فـخـبـتـهـ أـيـامـاـ حـتـىـ مـئـاتـ أـنـ يـدـخـلـ عـلـيـهـاـ ، فـقـالـتـ لـهـ : يـاـ شـهـوـانـىـ ! اـطـلـبـ شـهـوـانـيـةـ مـلـكـ ! أـيـ شـىـءـ ، رـأـيـتـ فـيـ مـنـ آـلـهـ الشـهـوـةـ ؟ ! »

كـذـالـكـ روـىـ المـرـتـضـىـ الزـيـدـىـ اـلـخـطـبـةـ الثـانـيـةـ قـلـ : « وـخـطـبـهـ مـحـمـدـ بـنـ سـلـيـمانـ الـهـاشـمـيـ أـمـيرـ الـبـصـرـةـ عـلـىـ مـائـةـ أـنـفـ وـقـالـ : لـىـ غـلـةـ عـشـرـةـ آـلـافـ فـيـ كـلـ شـهـرـ أـجـعـلـهـاـ لـكـ . فـكـتـبـتـ إـلـيـهـ : مـاـ يـسـرـنـىـ أـنـكـ لـىـ عـبـدـ وـأـنـ كـلـ مـالـكـ لـىـ ؟ وـأـنـكـ شـفـلـتـنـىـ عـنـ اللهـ طـرـفـةـ عـينـ » .

وـرـوـىـ ذـالـكـ الـخـبرـ أـيـضاـ عـبدـ الرـؤـوفـ الـمـنـاوـىـ^(٣) قـالـ : « كـتـبـ مـحـمـدـ بـنـ سـلـيـمانـ الـهـاشـمـيـ — وـكـانـتـ غـلـةـ مـلـكـهـ كـلـ يـوـمـ نـمـانـيـةـ آـلـافـ درـمـ — إـلـىـ كـبـراءـ آـهـلـ الـبـصـرـةـ فـيـ اـمـرـأـ يـتـزـوـجـهـ ، فـأـجـمـعـواـ عـلـىـ رـابـعـةـ . فـكـتـبـتـ^(٤) إـلـيـهـ : « أـمـاـ بـعـدـ ! فـبـانـ الـزـهـدـ فـيـ الدـنـيـاـ رـاحـةـ الـبـدـنـ ؛ وـالـرـغـبـةـ فـيـهـاـ تـورـثـ الـهـمـ وـالـحـزـنـ ؛ فـهـيـ مـرـازـدـكـ وـقـدـمـ لـمـادـكـ ، وـكـنـ وـصـىـ نـفـسـكـ ، وـلـاـ تـجـمـلـ الـرـجـالـ أـوـصـيـاـكـ فـيـقـسـمـواـ تـرـكـتـكـ ؛ وـصـمـ الـدـهـرـ ، وـاجـمـلـ فـطـرـكـ الـمـوتـ . وـأـمـاـ فـلـوـ خـوـلـنـىـ اللهـ [١٠٤ـ بـ]

(١) عـينـ القـضاـةـ المـذـانـىـ : « شـكـواـهـ » مـخـلـوطـ طـبـرـيـانـ ، وـرـقـةـ ٥٧٣ـ (أـورـدهـ مـاسـيـنـيـونـ فـيـ : « بـجـوـعـ نـصـوصـ غـيـرـ مـنـشـوـرـةـ خـاصـةـ بـالـتـصـوـفـ الـإـسـلـاـمـيـ » ، مـنـ ٧ـ تـحـتـ رقمـ ٦ـ ، بـارـيسـ سـنةـ ١٩٢٩ـ)

(٢) المـرـتـضـىـ الزـيـدـىـ : « إـتحـافـ السـادـةـ المـتـقـيـنـ » ، ٩٢ـ ، مـنـ ٧٥٦ـ .

(٣) « طـبـاتـ الـأـوـلـيـاءـ » وـرـقـةـ ١١٠٤ـ ، ١ـ ، بـ ، مـخـلـوطـ الـظـاهـرـيـةـ رقمـ ٤١٦٤ـ .

(٤) فـيـ الـمـخـطـوـطـ : فـكـتـبـ لـإـلـيـهـ — وـالـسـاقـ يـهـضـىـ مـاـ أـتـيـتـهـ لـأـنـ الـخـاطـبـ مـذـكـرـ فـيـ الـأـفـالـ الـوارـدـةـ فـيـ هـذـهـ الرـسـالـةـ .

أمثال ما حزت وأضعاها [ف] لم يسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين
والسلام ». .

فهاتان الخطيبتان ورفض رابعة لكتلتيما تدللان تمام الدلالة على فكرتها
عن الزوج بالسبة إلى نفسها وهي أنها لا تراه يصلح لها . والذين وضعوا قصة
الحسن المذكورة في رقم (١) إنما قصدوا إلى إبراز هذا المعنى ، خصوصاً حينما
ختموها بأن جملوا رابعة تقول لما أقيمت الحسن الإيجابة عن أسئلتها الأربعة :
« إذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج
إلى الزوج وأترغب له ! نعم أنشدت :

راحني ، يا إخوتي ، في خلوتي
وحبيبي دائمًا في حضرتي
لم أجِدْ لي عن هواه عِوضًا
وهواه في البرايا محتني
حيثما كنتُ أشاهد حُسْنَته
 فهو محرابي ، إلينه يقتفي
إن أَمْتُ وَجْدًا وما ثُمَّ رضا
واعتنى في الورى ! واشقوني !
يا طبيبَ القلب يا كُلَّ الْلَّذِي !
يا سروري وحبيبي دائمًا
شأنى منك وأيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلقَ جمِّاً أرجنجي
منكَ وَضلاً، فهو أقصى مُنْتَيٍ »^(١)
فهذه أسطورة ، وامل الآيات نفسها منحولة عليها ، لكنها مع ذلك تمثل
عن الصورة التي تصورها وأضعوها عن رابعة ؛ وهي تؤذن بأن رابعة كانت ترى
استحالة الزوج بالسبة إليها ، لأنها في شغل بالمهم من أمور الآخرة والحياة الروحية
ومسائلها ، فـأَنَّ لها أن تفرغ للزوج والحياة الدنيا !
لهذا كله نرى أن حكاية زواج رابعة إن هي إلا أسطورة نشأت عن الخلط

(١) الشيخ الحرفيش : « الروض الفائق في الموعظ والرقائق » ، من ١١٨ ، القاهرة سنة

بين رابعة الشامية زوج أحد بن أبي الحواري وبين رابعة البصرية العدوية القيسية صاحبتنا هنا .

فإذا نظرنا الآن في نظرية رابعة في الزواج تأيد لنا الأمر وازداد وضوحاً . وهذا يحسن بنا أن نتحدث عن نظريات رجال عصرها وأصدقاؤها لعلم في أية بيئة نشأت نظريتها ، ولماذا اخندت ذلك الطابع الذي اخنته . وإنما لنجد على رأس هؤلاء الحسن البصري ، رائد حركة الزهادة في ذلك المهد كله ، الذي لا يرى الزواج بالنسبة إلى الزاهد ، بله إلى العبد الصالح . قال : « إذا أراد الله بمقدير خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » . ^(١) كذلك نرى أبا نعيم يقول في « الخلية » ^(٢) : « قال (رياح) سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوي إلى مزابل الكلاب » . وفي هذا ما يدل على تزنة إلى تغير العزوبة بتشابه فرض على من يريد أن ينقطع الله ويبلغ منزلة الصديقين . وذلك لأن في الزواج صرفاً له عن الانقطاع لله وعدم الاشتغال بشيء غير ذكر الله ؟ كما أن ما يلاقيه من رفاهية ودعة يمنع من « كثرة الاشتغال بالله وقيام المialis وصيام النهار ؟ وينسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار — وكل هذا بعيد عن التجدد » كما قال السهروردي ^(٣) في « عوارف المعارف » وفي هذا يقول إبراهيم بن أدم (المتوفى سنة ١٦٠هـ أو سنة ١٦٦هـ) : « من تعود أخذ النساء لا يفلح » ^(٤) .

فإذا صحَّت هذه الأخبار وغيرها مما ينسب خصوصاً إلى الحسن البصري —

(١) الشعراي : « الطبقات » ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(٢) وقد أوردته الشعراي (« الطبقات » ج ١ ص ٤٠) على أنه قول رياح بن عمرو القيسى ، ولكن هذا غير صحيح لأنه ينقل عن صاحب « الخلية » أولاً ، ونانياً لأن هذا القول يفترض إمكان الزواج بالنسبة إلى الصوف ، وهو ما لا يقول به رياح .

(٣) ص ١١٩ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٣٩ .

وليس مانع يمنع من أن تكون صحيحة لأن أصحابها لم يتزوجوا ، فإن كان عدم تأهلهم عن مبدأ ، فلا شك في أن هذه الأخبار تبرع عن آرائهم إن لم يكونوا قد نطقوا بها فعلاً — نقول إذا صحت هذه الأخبار فإن هذا يدل على أن الدعوة إلى التجدد ، أي عدم الزواج ، قد وجدت في عصر مبكر ، أي في أواخر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني . وليس من شك كذلك في أن هذا الرأي الذي دَعَوْا إليه إنما اعتقاده لما رأوه من عدم توافق في الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهادة ، ولم يكن ذلك نتيجة تأثر بنظام رهبنة .
أجل إن الأحاديث العديدة التي اخترعها الصوفية وفيها تمجيد لامزو به إنما هي وليدة القرون المتأخرة ابتداءً من القرن الثالث للهجرة ، لأنها لا تتفق مطلقاً مع ما كانت عليه حياة الرسول وهو القدوة الكبرى ، فما كان ينتظر منه إدفن أن يدعى إلى حياة التجدد والعزوبة على أنها الحياة المثل ، بينما هو — وهو الرسول — لا يسلكها ، بل ولا يقترب منها . ومن هنا كان على الصوفية الواضعين لتلك الأحاديث أن يبرروا ذلك بتفرقهم بين عهدين : عهد إلى سنة مائتين من الهجرة ، وعهد إلى ما بعد المائتين . وإنما لعلم تلك الأحاديث الكثيرة التي تذكر فيها سنوات وتاريخ للهجرة ، وكأن واضعيها لم يكونوا من الفطنة بحيث لم ينتبهوا إلى أن التاريخ بالهجرة إنما تم في عهد عمر ، فكيف يُؤرخ النبي **ص** السنين ابتداءً من الهجرة ! ! وعلى كل حال فقد ذكروا تلك الأحاديث ذوات التواريخ فيها يحصل بمسألة العزوبة . قال أبو طالب المكي في « قوت القلوب »^(١) : « وفي خبر : إذا كان بعد المائتين أبيح العزوبة لأمني ؟ ولأن يربى أحدكم جررو كلب خير من أنت يربى ولدأ ». وقال السهروردي في « عوایف

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، طبع القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ،

العارف »^(١) : « قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الخاذ . قيل : يارسول الله ! وما خفيف الخاذ ؟ قال : الذى لا هله له ولا ولد »^(٢) . واضح ما في هذه التفرقة بين عهدين في التشريع بعد وفاة الرسول من مجافاة لكل ألوان الاحتمال والقبول .

إنما رأى الصوفية أنفسهم بإزاء وضع جديد ابتدعوه ودعوا إليه فكان عليهم أن يبرروه بواسطة الأحاديث الموضوعة ، شأن كل مذهب أو رأى ابتدع في الإسلام بعد وفاة الرسول .

ولا زرانا نتجاوز المقول كثيراً إذا افترضنا أن الحسن البصري كان أول من دعا إلى العزو بـ صراحة ، ووضعها شرطاً من شروط القوى والزهادة الحقة . ومنذ عهده وطوال القرن الثاني للهجرة تضافت الآراء عند بقية الصوفية حول هذه الفكرة ، لأنهم وجدوا فيها ما يتفق مع مقتضيات الأسلوب الذى اخذه لأنفسهم في الحياة . لقد كانوا منتصفين عن الدنيا ، فكيف يمكنون بمحذورهم فيها عن طريق الأهل والولد ؟! وهن لم يعدوا في القرآن آيات يمكن أن تتوال على أن فيها تأييداً لاتجاههم هذا . ورد في القرآن : « إِنَّمَا أَنْهَاكُمْ وَأَهْلَكُمْ عَدُوُّكُمْ فَاحذِرُوهُمْ »^(٣) ؛ وورد كذلك : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا ، وَالباقِيَاتُ الصالحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ نَوْبَا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (سورة الكهف ، آية ٤٦) ؛ ففي الآية الأولى تحذير من الأهل والولد ، إن لم يدع إلى تركهم فهو يحذر منهم . وهذا التحذير يمكن أن يفسره من يأخذ بالأحوط على أنه نوع من النهى ، وفي الآية الثانية تفضيل بين حالتي التأهل والتجرد ، مع القول بأن التجرد

(١) أبو حفص عمر السهوروبي : « عوارف المسارف » من ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٣٩ م .

(٢) وفي « قوت القلوب » ، الوضع السابق ورد هكذا : « خيركم بعد المائتين الخفيف الخاذ الذى لا هله له ولا ولد »

(٣) سورة التغابن : ١٤ .

أو ما في معناه وإن لم ينطوي به بصرامة هنا « خير عند ربك ثواباً وخير أملأ »
فضلاً عما في كلمة « زينة » الحياة الدنيا هنا من معنى لا يخلو من التهمك والقدح ،
وإن فيها للباقة في التعبير كانت مميزة وانحمة لما في جوهر الإسلام من ثنائية ومحاولة
للجمع بين الطرفين المتعارضين في كل المذاهب والمسالك .

فِي القرآن إِذَا مَا يُسْتَطِعُ الصَّوْفِيَّةُ الْاسْتِنَادُ إِلَيْهِ فِي دُعَاهِمْ إِلَى الْعِزْوَةِ حَتَّى
لَا يَعْزِزُهُمْ سُنَّةُ الرَّسُولِ قُولًا وَفُلَّا وَتَقْرِيرًا . عَلَى أَنَّ الْمَشَاهِدَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ —
وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ الْمُشَابِهَةِ لَهَا — أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَصُدِّرُ هَنَا فِي رَأْيِهِ أَوْ فَمِهِ عَنِ الْقُرْآنِ
مِبَاشِرَةٍ أَوْ عَنِ السُّنْنَةِ ؟ إِنَّمَا يَصُدِّرُ أَوْلًا عَنْ مَقْتضَيَاتِ حَيَاتِهِ الْبَاطِنَةِ أَوْ الْخَارِجَةِ ،
ثُمَّ يَغْدُو مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَأَحَادِيثِ النَّبِيِّ عَسَاهُ أَنْ يَجْدُ فِيهَا السَّنَدَ
الْدِينِيَّ لِمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ . فَأَوْلَئِكَ الصَّوْفِيَّةُ — ابْتِدَاءً مِنَ الْحَسْنِ الْبَصَرِيِّ — مِنْ
رَأْوِا عَدْمَ إِمْكَانِ الْجُمْعِ بَيْنَ الْأَهَلِ وَسُلُوكِ الطَّرِيقِ قَدْ ابْتَدَأُوا أَوْلًا بِأَنْ اقْتَنَمُوا
بَعْدَ إِمْكَانِ الْجُمْعِ بَيْنَ هَاتِينِ الْحَالَتَيْنِ الْمُتَعَارِضَتَيْنِ تَعَارِضًا — بَرْ عَنْهُ بَعْضُ الْفَقَرَاءِ
أَجْلَى تَعْبِيرًا لِمَا أَنْ قِيلَ لَهُ : تَرْزُوجُ ! فَقَالَ : « أَنَا إِلَى أَنْ أُطْلَقَ نَفْسِي أَحْرُوجُ مِنِّي إِلَى
الْتَرْزُوجِ ^(١) ». ثُمَّ رَاحُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يَجْدُونَ هَذَا أَصْلًا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ عَنْهُمْ
أَنْ يَجْدُوهُ . وَوُجُودُهُ فِي الْكِتَابِ فَعْلًا فِي أَمْثَالِ تَلْكَ الْآيَاتِ الَّتِي أُورَدَنَاها مِنْذَ
قَلِيلٍ . لَكِنَّ كَانَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَوْقُوْا بَيْنَ مَقْتضَى الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ
وَالسُّنْنَ الْمُضَادَّةِ لِهَذَا الْإِبْجَاهِ ، وَبَيْنَ مَقْتضَى حَيَاتِهِمُ الدَّاعِيَةِ إِلَى التَّصُوفِ الزَّاهِدِ فِي
الرَّوَاجِ . فَلَجَأُوا أَوْلًا إِلَى أَحَادِيثِ إِبَاةِ الْعِزْوَةِ بَعْدِ الْمَائِتَيْنِ ، لَكِنَّ يَلوُحُ أَنَّ
هَذَا الْأَبْدَ أَنْ يَكُونَ مَتأخِرًا عَنِ الْمَائِتَيْنِ ، وَمِنْ وَضْعِ مَنْ أَتَوْا بَعْدَ ذَلِكَ ، خَصْوصًا
فِي الْقَرْنَيْنِ الْرَّابِعِ وَالْخَامِسِ . فَبِقِيَّ إِذَا أَنْ يَجْدُ تَبْرِيرًا لِلْمَسَالِكَ مِنْ كَانُوا قَبْلَ سَنَةِ مَائِتَيْنِ :

(١) أبو حفص السهروردي : « عوارف المعرف » ، ص ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ -
سنة ١٩٣٩ م.

أنعدُم خارجين على الكتاب والسنة ؟ لعل الذين وضموا تلك الأحاديث الخاصة بالعهدين (ما قبل المائتين ، وما بعدها) لم يحرصوا كثيراً على مصير من كانوا قبل المائتين ، وكان من الأترة بحيث قصرت الإباحة على أنفسهم ! لهذا كان على الذين يريدون تبرير أحوال التجرد وعدم الزواج عند من كانوا قبل المائتين أن يلتجأوا إلى ذريعة أخرى هي التفرقة بين مراتبهن إحداها أعلى من الأخرى : مرتبة المتجرد ، ومرتبة التأهل . فقالوا إن التأهل رخصة وسُنّة ؟ أما التجرد — بالنسبة إلى الحدائق الورع — فهو عزيمة وفرض . وفي هذا^(١) يقول بشرين الحارث الحافى (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ = سنة ٨٤١ م) لما قيل له : « إن الناس يتكلمون فيك . فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك السنّة — يعني النكاح . قال : قولوا لهم : أنا مشغول بالفرض عن السنّة ». كذلك ماحكاه صاحب « عوارف المعارف » أيضاً فقال : « سمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلى قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : مازوجت حتى قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ! فقال له : ذلك [١٢٠] الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرُّحْص ، وطريق القوم : التَّرِم بالعزيمة ! — فلام — كذا يقول أبو حفص السهروردى — ما قال الشيخ في جوابه » ، ويأخذ السهروردى في الجواب عن الشيخ عبد القادر الجيلانى ويرد فملته . وال مهم في هذا عندنا أن نبين الوسيلة التي اتخذها الصوفية في بيان أسباب اتخاذهم التجرد بدل التأهل ، ثم مفاضلتهم بين الحالين بما يحمل التجرد فرضًا على الصوف .

ونحسب هذا القدر كافيًّا لبيان الجو الذى عاشت فيه رابعة من حيث مسألة التأهل أو الزواج . فهو بالجملة جو يدعى عند الصوفية إلى عدم الزواج ، لأن الزواج يتنافى مع الوفاء بالحياة الروحية العالية وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله

(١) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وانصراف عن الدنيا وإيمانه للسموات وارتفاع بالضمون الروحي الباطن بارتفاع
الجانب المادي الظاهر . ييد أنه يلاحظ مع ذلك أن هذا كله لم يكن قد استقام
على قاعدة ثابتة .

لكن رابعة جاءت فضررت بهم وأفر في سبيل تقوين عدم الزواج عند
أصحاب الطريق . ونظن أنه كان لها أثرها الحاسم في هذا التوجيه ، بعد أن كان
الأمر في الغالب أمر مزاج شخصي عند الحسن ورياح وإبراهيم بن أدم والداراني
ومن إليهم ؛ إذ صار بثبات قاعدة كان من الصعب على الصوفية من بعد ذلك
انزوج عنها ، وحتى اقطع الشيخ عبد القادر الجيلاني في الجواب *للمبحرون* قوله
لما أن أخفى السائل إياه عن سبب تزوجه . ذلك لأن رابعة امرأة . والغاية المظفى
عند المرأة في الحياة هي الزواج ، ولذا كان له عند المرأة أهمية كبيرة أشد عراحل
عدة من أهميته عند الرجل . فإذا وجدناها ، وهي المرأة ، تحرص على عدم الزواج ،
فابلغها من قدوة عند أهل الطريق ! ومن هنا كانت مسئلة خطبتها مرتين :
لعبد الواحد بن زيد ، الصوفي الكبير ، ولمحمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة ،
غنوية بالدلالة على قوة نفسها في هذا الباب . فإذا جاتهما عن خطبة الأول بقولها بعد
أن حبيبته أيامًا ولم تشا أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر الأكبر في نظرها
ونظر كل صوفي حقيق وهو طلبها للزواج منه : «يا شهوانى! اطلب شهوانية مثلك!
أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة؟!»^(١) — هذه الإجابة هي أبلغ ما يمكن
أن يقال في هذا الباب . ففيها تقرير مُرئ لهذا الصوفى الذى يريد الإقبال على
الدنيا ، وفيها لوم فارس له لأنه لم يفهمها ولم يفهم رسالتها وهى أنها انقطعت الله ،
حبيها الأوحد ، فلا تزيد أن تشغل بغيره ؟ وفي هذه الإجابة كذلك وصف الحال
التي صارت إليها وهى أنها صارت من القداسة والطهارة والروحانية بحيث لا يجوز

(١) راجع قبل ص ٥١ ؛ وقد أورده أيضاً «إنسان العرب» تحت مادة : شهوانية .

لأحدٍ أن يخطر بباله أن فيها أثارةً بعدُ للدنيا والشهوة . وهي معانٍ قد أكدها مرة أخرى في جوابها عن اختيار كبراء أهل البصرة لها زوجةً لـ محمد بن سليمان ، أمير البصرة (كان واليًا على البصرة سنة ١٤٥هـ؛ وتوفي سنة ١٧٢هـ) ، كما ذكرنا ذلك الجواب من قبل^(١) ، وفيه تنصّه بأن ينصرف عن الدنيا ويتها لأمور الآخرة ويصوم الدهر حتى يكون الموتُ فِطْرَةً؛ وهي ليست من يطلب المال والجاه ، وكل ما يملك منها لا يمكن أن يغريها على الاشتغال عن الله طرفة عين .

— ٧ —

إنما ندرت رابعة نسمة الله ؛ وإذا كان الزوج الحق هو زواج الحب ، وحبيبه الوحيد هو الله ، فإذا كان لها أن تقترب بأحد أبغى الله تستطيع الاقتران ؟ !

هنا ثانية نظريتها في الحب فتؤيد نظريتها في الزواج . وهذا هو الجديد حقاً في مذهب رابعة في التجدد والمعزوبة .

ونقدم بين يدي هذه النظرية بقدّمات في المصطلح الفنى وفي تطور معنى الحب عند الصوفية ، فنقول إنه يلوح أن كلمة «محبة» بدت غريبة لما استعملت لأول مرة . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ ماسبيثيون : «كان عبد الواحد بن زيد يرى أن كلمة «عشق» هي الوحيدة المعترف بها في التحدث عن الله ، وكان يرفض كلمة «محبة» على أساس أنها أثر لا يليق من آثار اليهودية والمسيحية ، مؤمناً كل الإيمان بالعشق الإلهي (سورة المائدة : ٢٠) . أما مالك بن دينار ومضر القاري و(ذو النون) المصرى فيفترضون اللفظ «شوق» ، ييد أن كلمة «حب» (تحبّب ، محبة) التي اختارها أبان بن أبي عياش ويزيد الرقاشى وجعفر الصادق (فيما يزعمون) رابعة — هي التي انتهت بالظفر والسيادة بفضل

معروف (الكرخي) والخاسي»^(١). وهو يشير في موضع آخر^(٢) إلى أن كاتب عشق وشوق تشيران إلى الرغبة ، أما كاتبة محبة فتعبر عن الاتصال الجنسي . فإذا كان تقرير ماسينيون هذا المذهب عبد الواحد بن زيد صحيحاً — ولستا ندري من أين استقاه لأنه لا يشير إلى مصدر — فإنه سيكون مذهبًا غريباً حقاً: أولاً لأن كلمة «حب» (وحبة ، وتحبب) قد وردت في القرآن بياناً لإمكان قيام صلة بين العبد والله في آياتين على الأقل هما «فَلَمَّا كُنْتُمْ تَجْبُونَ اللَّهَ فَاتَّبَعْنَى يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ» (آل عمران : ٣١) ، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رِبِّهِمْ إِذْ أَعْزَزْنَا عَلَى الْكَافِرِينَ» (المائدة : ٥٤) ، فكيف يحفل عبد الواحد بن زيد إذن — وهو من رجال القرن الثاني ، أى من المقدسين — من مثل هذا الاستعمال أو يفضل عليه استعمال آخر وهو «الشق» لأنجد له أثراً في القرآن ، فضلاً عن السنة : فالآحاديث التي ورد فيها لفظ «الحب» عديدة^(٣) ، بينما لا نكاد نعثر على حديث واحد ورد فيه لفظ العشق ؟ ففضلاً عن هذا فإن المعنى اللغوي أدى إلى اتخاذ كلمة محبة (أو حب) بدلاً من عشق ، لأن العشق اسم لما جاور الحد في المحبة ، فإذا كان لا يجوز كلمة محبة (أو حب) فكيف يجوز ما فضل عنها وزاد ؟! لهذا نرى صاحب «جامع الأصول» يقول : « ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى ، لأن العشق بجاوزة الحد في المحبة ، ولا يجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه ، بل لا يليغ إلى ذلك القدر ولو اجتمعت محبة الخلق كلهم ». لهذا كله نرى أن مناسب إلى عبد الواحد ابن زيد لا يمكن أن يكون صحيحاً ، ولذا نرفضه جملة .

(١) ماسينيون : «بحث في أصول المصطلح الفنى للتصرف الإسلامى » ، ص ١٧٤ باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) المرجع السابق من ١٩٢

(٣) ذكر الشيخ ضياء الدين الكشخانى خمسة منها في كتابه «جامع الأصول» ، ص ٢٨٣ .

وهذا يفينا في مسألة هامة تعينا هنا وهي أننا نذهب إلى أن أحداً لم يتكلم في الحب (أو الحبة) الإلهي قبل رابعة، وأنها هي أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي ، بالمعنى الحقيقي الكامل للحب ، لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيراً ظاهرياً .

على أن ثمت لفظاً ثالثاً يعبر عن تلك الصلة – إلى جانب «الحب» (أو الحبة) والمشق – وهو «الخلة». ويظهر أن هذا اللفظ قد استخدم على عهد رابعة ، وصار نظرية عند صديقها رياح بن عمرو القيسى . ويفسره صاحب «جامع الأصول»^(١) هكذا : «أما الخلة فهي مشقة من تخلل الشيء في الشيء». وسيخليل خليلاً لتخلل خليله في قلبه ، فوجوده **مُسْتَهْلِكٌ** في وجوده . فإذا تكلم تكلم فيه ، وإذا سكت فهو **نُصْبٌ** عينيه في كل حال . وأنشدوا في ذلك :

قد تخللتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِي
ولذا سَمِيَ الْخَالِيلُ خَلِيلًا
أَنْتَ هُمَى وَهَمَى وَرَفَادِي إِذَا أَرْدَتْ مَقِيلًا
والصوفي إذا بلغ مرحلة «الخلة» هذه بينه وبين الله سقطت عنه التكاليف
واستباح لنفسه مالا يستبيحه الله لنغيره من الناس ، لأن كل ماق الدنيا ملك الله ،
وبالنسبة إلى الله ينتقى مني الحرام والحلال ، فكل حل له ، وفي حال الخللة يكون
العبد الخاليل بمناثبة الله نفسه أو على الأقل يستحل لنفسه من أمره مالا يمكن
غيره أن يستحله . فإذا كان كل ما في الدنيا ملكاً لله ، فخليله الصوفي هذا أن
يستحل ما يشاء من هذا الملك .

ويلوح أن هذا قد صار مذهبَاً منذ أن وضع أنسه رياح بن عمرو القيسى
وكلئيب . إذ نرى أبا الحسين المطفي في كتابه «التنبيه والرد على أهل الأهواء

(١) «جامع الأصول» ، ص ٢٨٦ .

والبدع «^(١) يجعله مذهبًا يندرج تحت أحد مذاهب الزنادقة ، وهو المذهب الذي يسميه باسم مذهب « الروحانية ». والروحانية أصناف ذكر منها خمسة . ولاشك في أنه يقصد « بالروحانية » هنا الصوفية ، لأن المذاهب التي يسرد لها ومن ذكر لها من أشخاص هي مذاهب صوفية . ويسيننا هنا الصنف الثاني من الروحانية ؟ قال الملطي :

« ومنهم صنفٌ من الروحانية زعموا أن حبَّ الله يطلب على قلوبهم وأهوانهم وإرادتهم حتى يكون حبُّه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان ذلك عندهم ، وكانوا عنده بهذه المنزلة ، وقعت عليهم « الخلة » من الله ، مُجْعِلَ لهم السرقةُ والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه « الخلة » التي بينهم وبين الله ؛ لعلى وجه الحلال ، ولكن على وجه « الخلة » كما يجيئُ للخليل الآخرُ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم : رياح وكتيب ، كانوا يقولان بهذه المقالة ويدعون إليها . كذبوا ! أعداء الله ! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يُسأَل يوم القيمة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول : لست هناك ؛ ويدرك ثلاث كذبات -- كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قاله ». وأهمية هذا النص لانتساب لها قيمة لأن المؤلف من القرن الرابع؛ ولأن نسبة هذا المذهب إلى رياح بن عمرو القيسى (المتوفى سنة ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) يجعل المذهب قدّيماً قد تعمّر طويلاً إلى حين عهد المؤلف ، إن لم يكن في أتباعه يؤمنون به فعلى الأقل كان لا يزال مذهبًا يشغل الناس . ثم يهمنا خاصة لأنه مذهب رياح القيسى صديق رابعة . فإذا لاحظنا من ناحية أخرى أن الآيات التي ذكرها صاحب « جامع الأصول » وجملها تميّراً عن فكرة « الخلة » ، هي من الآيات المنسوبة

(١) أبو الحسين محمد بن أحد الملطي: « التنبه والرد على أهل الأهواء والبدع »، من ٩٠ . من ٩١ من مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٥٩ .

إلى رابعة ، بدت لنا أهمية هذا المذهب في بحثنا عن نظرية الحب عند رابعة .
فقد ذكر صاحب «القوت» أن هذه الأبيات لها فقال : «ومن قوله النادر في مقام
الخلة . . . » ، ثم يأتي بذينك البيتين ، كما أنه يقول قبل هذا مباشرة :
« وقد كانت (أى رابعة) تذكر الأئس في وجدها وترفع إلى وصف مهني
الخلة في قوله السائر :

• إني جعلتك في القواد مخدنى وأبحث جسمى من أراد جلوسى
فالمجسم مى للجليس مؤانس وحبيب قابى في القواد أنيسى »^(١)
وبغض النظر عما لنا على صحة نسبة هذه الأبيات إلى رابعة من اعتراض ،
فإننا نكتفى هنا بإبراز ما قصدنا إليه وهو أن أبو طالب الكنى كان يرى أن رابعة
قد « ارتفعت إلى وصف مهني الخلة » ، وأن لها أقوالاً « نادرة » في مقام الخلة ؛
وقوله « نادر » معناه هنا « بديع » ، « جيد كل الجودة » إلخ .

وإذن شاركت رابعة صديقها رياحاً القيسي في القول بمقام الخلة ،
فيجب أن ندخل ذلك في نظريتها في الحب . ولعل هذا أن يفسر لنا تطور نظرية
الحجج لديها إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يفسر ذلك على أنه كان على وجه
« الخلة » بينها وبين الله . أجل ، ليس عندنا من الوثائق ما يكفي لبيان المدى
الذى بلغته في القول بالخلة ؛ ييد أن اعتبار هذا المعنى قد يفيد في إيضاح بعض
الجوانب الغامضة من مذهبها . ومن هنا نرجح أنها لا بد أن تكون قد شاركت
صديقها رياحاً في إيجاد هذا الرأى ، أعني القول بالخلة مع ما تتضمنه من إباحة
أو سقوط للتکاليف ، أو في القليل آمنت به وسلكت وفقاً لما يتضمنه .
على أن مقام الخلة هذا يمكن أن يفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير

(١) أبو طالب الكنى : « قوت القلوب » ؛ وأورده الزيدي في « إتحاف السادة »

والشر . ذلك أن **القيم الأخلاقية** لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بني الإنسان والدنيا . أتاوها — رابعة ورياح — قد تجاوزوا نطاق البشرية وصارا يلوذان بمحوار الألوهية ، وأطروا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت وتخللت روحيهما نفحات الربوبية ، ثم هما من جانب آخر قد خرجا عن الدنيا وأصبحا يطوفان بالملأ الأعلى ، فإنهم قد صارا بعزل عن تلك القيم الأخلاقية ، أعني فوق مستواها .

وهذا رأى خطير ، خصوصاً في مثل هذا العصر المبكر للفكر الإسلامي .

فهو يدل على نضوج سريع لهذا الفكر من ناحيتي الدين والروحية العليا ، وبخاصة إذا لاحظنا أن من العسير أن نجد لمثل هذه الأفكار سابق في الأفكار الشائنة في تلك البيئة ، حتى يكون تأثير عنها . ويلوح كذلك أن هذا المذهب لم يجد صداء السريع ؟ بل لا بد أن ننتظر الحال في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع كما نجد صورة واحدة قوية له .

— ٨ —

نظريّة رابعة إذن في الحب يدخل فيها معنى **الخلة** ؟ لكن هذا هو الجانب العملي أو الأخلاقي . أتا الجانب العاطفي الخالص فيتمثل في بعض الأبيات النسوية إليها ، وفي الأقوال التي يروى أنها تتوهّت بها .

وأشهر هذه الأبيات تلك الرابعة المشهورة :

أُحِبُّكَ حَبِّ حَبِّينْ : حَبَّ الْمَوْى ،	وَحْبَّاً لَأْنَكَ أَهْلَ لَذَا كَا
فَأَتَاهَا النَّدِيْرُ هُوَ حَبُّ الْمَوْى	فَشَغَلَ بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سَوَا كَا
وَأَتَاهَا النَّدِيْرُ هُوَ حَبُّ الْمَوْى	فَكَشَفَكَ لِلْحَبْبِ حَتَّى أَرَاهَا
(١)	وَلَكِنَّ لَكَ الْحَدْفُ فِي ذَا وَذَا كَا

(١) «إعْنَافُ السَّادَة» ، ج ٩ من ٥٧٦.

وأول ما تشيره هو ضجة نسبتها إليها . فكما يقول المرتضى الزيدي : « حملها عنها (أى نسبها إلى نفسه) أهل البصرة وغيرهم : منهم سفيان الثورى وجمفر ابن سليمان الصبغى وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد ». على أن هذا ليس بداعٍ للشك الجدى في إمكان صحة نسبتها إليها ؟ فإلى أن يقوم دليل عكسي ثابت بالوثائق الجازمة ، نستطيع أن نَعْدُ هالرابعةَ حقاً .

في هذه الأبيات تميز رابعةً بين نوعين في الحب : حب الوداد أو الموى ، والحب الخالص . والأول حب ناقص ، والثانى حب كامل . ييد أنها لا تختار هنا بين الواحد والآخر ، إنما تأخذ بهما معاً . ومن هنا فنجد نفترض لهذه الأبيات عهداً مبكراً شيئاً ، لم تكن قد بلغت فيه بعد القام الأعلى للحب .

ولنبذل بعثناهنا بيان التفسيرات التي أدل بها الصوفية لهذه الأبيات ؛ فنجد أول مانجد أبو طالب المكي في « قوت القلوب »^(١) يفسرها هكذا : « فاما قوله : حب الموى ، وقولها : حب أنت أهل له ، وتفرقها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويختبره من لم يشهده . وفي تسميتها ونعت وصفه إنكارٌ من ذوى العقول من لا ذوق له منه ، ولا قدر له به ؛ ولكننا نجتنم ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الموى : أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق ، من طريق النم والإحسان ، فتخالف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ؟ ولكن محبتى من طريق العيان ، فتقرّبت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرّغت لك ، كما قال الحب :

فَرَغَتْ قَلْبَهَا اشْتِفَالًا بِذَكْرِي
وَكَذَا كَلَّ فَارِغٌ مُشْغُلٌ

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم مومى فارغاً » ، أى ملآن

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، ج ٢ من ٦٠ وما يليها . وأوردته المرتضى الزيدي في : « إتحاف السادة » ، ج ٩ من ٥٧٧.

بذكره حتى فاصل فكادت أن تظفر فتقول : هو ابني . فعبر عن الملك بالفراغ
من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فـ كـ ظـ مـ تـ ، ولو لم تفعل لأظهرـ تـ ،
ولـ أـ ظـ هـ رـ تـ . لـ قـ تـ لـ .

وأما الحب الثاني الذي هو أهل الله : تمني حب التنظيم والإجلال لوجه

العظيم ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل
أن أنظر إليك في الآخرة على الكشف والعيان في محل الرضوان ، لأن حبى لك
لا يوجب لك جزاءاً عليه ، بل يوجب على كل شيء مما لا أطيفه ولا أقوم بمحقك
فيه أبداً ؛ إذ كنت قد أحبيتك فلزمني خوف التقصير ، ووجب على الحياة
من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت به من حبتك ، إذ ليس كمثلك شيء ،
قال الحبيب :

أصبحتُ صَبَّاً، ولا أقول بَنْ خَوْفَالْمَنْ لا يُخافُ مِنْ أَحَدْ
إِذَا تَفَكَّرْتُ فِي هــوَى لَهــ لَمْسَتْ رَأْسِي : هَلْ طَارُ عَنْ جَسْدِي ؟ !
لَوْلَا أَنَّ الْحُبَ يُنْطَقُ ، وَالشُّوقُ يُفْلَقُ ، وَالوَجْدُ يُحْرِقُ . فَالْحُبُّ لَا يَلِامُ
لِغَيْبَةِ النَّفْسِ عَنْهُ ، وَإِلَّا نَامَ . تَقُولُ (أَيْ رَابِعَةً) : فَتَفَضَّلَتْ عَلَيَّ بِفَضْلِ كَرْمِكَ ،
وَمَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ مِنْ تَفَضُّلِكَ ، فَأَرِينِي وَجْهَكَ عِنْدَكَ آخِرًا ، كَمَا أَرِينِيَّهُ الْيَوْمَ
عِنْدَكَ أَوْلًا ؛ فَلَكَ عَلَيَّ مَا تَفَضَّلَتْ بِهِ فِي ذَاكَ عَنْدِي فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا حَدَّلَى
فِي ذَاهَنِنَا ، وَلَا حَدَّلَى فِي ذَاكَ هَنَاكَ ، إِذْ كُنْتُ أَنَا وَصَلَتْ إِلَيْهِمَا بِكَ ؛ فَأَنْتَ
الْمَحْمُودُ فِيهِمَا لِأَنَّكَ وَصَلَتْنِي بِهِمَا . فَهَذَا الَّذِي فَسَرَنَاهُ « وَجْدُ الْمُحْبِينَ الْمُحْقِقِينَ » .

وخلاصة تفسير أبي طالب الملكي هذا هو أن حب الموى هو الصادر عن طريق النعم والإحسان ، أعني الحب الناشئ عن المنح والمهبات والأفضال ، فهو حب التنعم بأنعم الله ، هو حب حتى ، لأن المقصود بالنعم هنا التعم المادية ، لا المهببات القدسية . ييد أن هذا الحب ليس متغيراً بتغير أحوال النعم : فإذا كثرت

زاد وإذا قلت نقص؛ إنما هو حب ثابت، لأن صاحبه نظر إلى المعنى السكامل وراء النعمة أيتهاً كان مقدارها ، وهو معنى لا ينفي، لأنه مجرد الفضل ، ودليل الرضا ؛ فهو إذاً لا يتجزأ ولا يختلف باختلاف المتنعم به ، وبهذا يلحق بالمعنى الروحي اللامادي . وإن فالاختلاف بينه وبين الحب الآخر ، الخالص « لوجه العظيم » ، ليس في ماهيته بقدر ما هو في دواعي إثارته ومصادر إيجاده . ولهذا كان عن طريق العيان المباشر .

أما الحب الذي هو أهل له فهو — في تفسير صاحب « القوت » — « حب التمعظ والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال » — أعني أنه الحب الذي لم يكن باعثه نعمة ، ولا مدخل فيه للمقنة الحسية ، بل باعثه المحبوب نفسه لذاته وبذاته . وهذا الحب لا يستوجب جزاء عليه ، بل كل الواجبات تقع على الحب وحده ، وهي واجبات إنما يفرضها مجرد الحب ، ويستلزمها مجرد وجود المحبوب ؟ فلما كان وجوده لا متناهياً ، فإن الحب لا متناهٍ ، والواجبات هي بالتالي لا متناهية ، ولذا يجب هذا الحب على المحبوب كل شيء مما لا يطيقه ولا يقوم بمحنه فيه أبداً . ومن هنا مازجه الخوف : الخوف من عدم الوفاء بالواجب ، وهو خوف دائم لأن الواجب في هذه الحال هو كما قلنا لا يفني أبداً ، ولا يقوم المرء بمحن المحبوب فيه أبداً . ومن هنا أثيرت هذه المسألة التي ذكرها الحاسبي فقال : « قيل لمضر القارىء : الخوف أولى بالحب أم الشوق ؟ فقال : هذه مسألة لا أجيب فيها : ما اطلمت النفس على شيءٍ قطٍ إلا أفردته ». ^(١) على أن هذا الخوف هو الذي يثير القلق في الحب ، والقلق هو الذي يهب هذا الحب — بالرغم من طابعه السكوني الاستاتيكي — جانباً حركياً ديناميكياً ظاهراً ؛ وهو جانب لا ينتهي إلا في مقام الوصول السكامل ، وأئن للصوف الحقيق أن يبلغه ! هيهات ! هيهات !

(١) أورده أبو نعيم في « حلية الأولياء » ، ج ١٠ ، ص ٧٨ . القاهرة سنة ١٩٣٨.

وهذا المعنى أفضى فيه المحتسب في الوضع نفسه فقال : « الحب لله في نفسه استئنارُ القلب بالفرح لقربه من حبيبه . فإذا استئنار القلب بالفرح استلزم الخلوة بذكر حبيبه . فالحب هاجع غالب ، والخوف في قلبه لازم لا هاجع ؛ إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية ، وهدِي لأركان شدة الخوف ، وحل الأنْس بقلبه الله - فعلامة الأنْس استقال كل أحدي سوى الله . فإذا ألف الخلوة بمناجاة حبيبه ، استقرَّت حلاوةُ المناجاة المقلَّكَه حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها . ومن ذلك قول ضيف العابد : عجبًا للخلية كيف استئنارت قلوبهم بذكر غيرك ! ! . وفي هذا وصف جيد دقيق لهذا « الحب لله في نفسه » ، وهو ما تمنيه رابعة بالحب الثاني الذي « هو » (أى الله) أهل له .

نعم يتبع صاحب « القوت » تفسيره فيقول إن الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخرًا ، كما أراها وجهه عنده ذلك اليومً أولًا ؛ ومعنى ذلك أن الله قد تفضل عليها في هذه الحياة الدنيا بمعاينته سُبحات وجهه ، وكذلك سيتفضل عليها برؤيتها إياه في الآخرة . فكان قوله : « ذا » ، يشير إلى المعاينة في الدنيا ، وقوله : « ذاك » يشير إلى المعاينة في الآخرة . نعم إنها لا ترى لنفسها فضلاً في هذين الأمرين ، بل الله وحده الفضل في كليهما ، وله وحده الحمد على كليهما ، لأن الظفر بهما كان عن طريقه .

وهذا التفسير كله لا نكير عليه ، إلا شيء من عدم التوفيق ، خصوصاً في جانب حب الهوى . على أنه حاول أن يربط بينهما عن طريق فكرة المعنى الباطن في النعمة ، لا كهما أو كيفها ، مما أضفي على حب الهوى طابعاً روحيَاً ظاهراً . ووفق خصوصاً في إبراز فكرة العيان المباشر في الحب الأول لأنها معقد الصلة بين كلا الحبين ، إذ أن في هذه المعاينة المباشرة ما يضمن الجاذب الروحي في حب

الموى . إنما الذي يؤخذ عليه هنا هو أنه بالغ في إيضاح فكرة العيان بالنسبة إلى حب الموى ، حتى جعله يتجاوز عن معناها الحرفي . فهي تقول إن حب الموى هو شغلها بذكر الله عن سواه . فهي إذاً في مقام الذكر ؟ وحقيقة الذكر هي ، كما يقول الكلاباذى ، «أن تنسى ماسوى المذكور في الذكر»^(١) ؛ فونسيان كل شيء ، وذكر شيء واحد هو الله . ولذا يتم على مرحلتين : نسيان ماسوى الله ، والخلص من هذا النسيان . وفي هذا يقول صاحب «جامع الأصول»^(٢) :

«الذكر : وأصله هاهنا اخلاصُ من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق . وصورته في البدايات : الذكر الظاهر ؛ وفي الأبواب : الذكر الخفي ؛ وفي المعاملات : ذكر الفعل لما يريد — برؤية الأفعال كالماء منه والأمور كلها بيده ؛ وفي الأخلاق ذكر الأخلاق الإلهية والتשוק إلى التخلق بها . ودرجته في الأدوية : تلقى المعرف والحقائق منه ، وإلقاء السمع في إسرارِ إليه . وفي الأحوال : لزوم المسامة والمناجاة . وفي الولايات : دوام المصادفة والمناغاة . وفي الحقائق : دوام المشاهدة والمعاينة . وفي النهايات : شهودٌ ذكر الحق إليك ، والخلص من شهودٌ ذكرك إليك ، ومعرفة افتاء الذكر في بقائه مع ذكره» . فمن هذا يتبيّن أن في الذكر مشاهدة ومعاينة ، ولكنها ليست معاينة الوجه للوجه بعد كشف الحجاب ؛ وإنما اخْتَلط حب الموى وحب الله في نفسه ، أو الحب الذي هو أهل له . وربما حر يصة على توكيد التفرقة في هذه الرابعية . أجل ، قد تنتهي إلى المزج بينهما لما أن يبلغ الذكر مرتبة الحقائق ثم يصاعد منها إلى مرتبة النهايات ؟ بل هذا هو ما حدث لها فعلًا ؟ يمتد أنها في هذه المرحلة التي تعبّر عنها هذه الآيات لما تفعل بعد .

(١) أبو بكر الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ - ١٩٢٠ م) : «العرف المذهب أهل التصوف» ، من ٧٤ القاهرة ١٩٣٣ م

(٢) من ٣٥١ .

إِنَّمَا لَا تَرَالْ تَقُولُ بِثَنَائِيَّةً فِي الْحُبِّ : حُبُّ الْمَذْكُورِ ، وَحُبُّ الدَّكْرِ ؛ وَلَمْ تَفْعَلْ
بَعْدُ مَا سَيَقَلُهُ الْحَلَاجُ مِنْ تَفْضِيلِ حُبِّ الْمَذْكُورِ (= حُبُّ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ ، الْحُبُّ
الَّذِي هُوَ أَهْلُ لَهُ) عَلَى حُبِّ الدَّكْرِ (= حُبُّ اللَّهِ لِنِعْمَتِهِ) ، وَهُوَ حُبُّ فِيهِ مُنْعَةٌ
حَسِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ) ^(١) . فَتَرَى رَفَعَتْ رَابِعَةً هَذِهِ الثَّنَائِيَّةَ ؟

قَبْلِ الإِجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ نَعُوذُ فَنَتَّقُمُ مَا يَتَصَلُّ بِتِلْكَ الْأَيَّاتِ . فَنَقُولُ
إِنَّمَا عَنْ تَفْسِيرِ أَبِي طَالِبِ الْمُكَفِّيِّ هَذَا أَخْذُ الْفَزَالِ فِي « الْإِحْيَاءِ » ^(٢) ، فَقَالَ :
« وَلَطَّاهَا أَرَادَتْ بِهِ « حُبُّ الْمَوْى » حُبَّ اللَّهِ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْهَا وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهَا بِمُحْظَوظَةِ
الْعَاجِلَةِ — ؟ وَبِهِ « حُبُّهُ لَمَا هُوَ أَهْلُ لَهُ » الْحُبُّ بِجَاهِهِ وَجَلَاهُ الَّذِي انْكَشَفَ لَهُ ،
وَهُوَ أَعْلَى الْحَبَّيْنِ » . وَالْفَزَالُ بِهَذَا لَمْ يَفْعُلْ إِلَّا أَنْ نَقُولَ مُلْخَصًا كَلَامَ صَاحِبِ
« الْقُوَّةِ » بِحُرْفَهُ ، شَانِهِ فِي أَغْلَبِ فَصْوُلِ كِتَابِهِ « الْإِحْيَاءِ » فِي الْمُوْضُوَاتِ
الْمُشَتَّرَكَةِ بَيْنِهِ وَبَيْنِ « قُوَّةِ الْقُلُوبِ » ، مَا يُعْطِيْنَا شَاهِدًا آخَرَ عَلَى مَقْدَارِ مَا لَدِيِّ
الْفَزَالِ مِنْ أَصْلَاهُ !! وَالْرَّازِيدِيُّ ^(٢) فِي شَرِحِهِ « لِلْإِحْيَاءِ » قَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا فِي
هَذَا الْمَوْضِعِ نَفْسَهُ فَقَالَ بَعْدَ إِبْرَادِ تِلْكَ الْأَيَّاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي نَصِّ « الْإِحْيَاءِ » :
« وَقَدْ تَكَلَّمَ صَاحِبُ « الْقُوَّةِ » عَلَى هَذِهِ الْأَيَّاتِ بِكَلَامِ سَاطِعِ الْأَنْوَارِ ، يَعْرَفُهُ
مِنْ رُزْقِهِ (= الْحُبُّ) وَيَنْكِرُهُ مِنْ حُرْمَهُ . وَالْمَصْنُفُ (= أَبُو حَامِدِ الْفَزَالِيِّ)
رَحْمَهُ اللَّهُ أَشَارَ إِلَى زُبُونَةَ كَلَامِهِ (= أَيْ كَلَامَ صَاحِبِ « الْقُوَّةِ » ، أَبِي طَالِبِ
الْمُكَفِّيِّ) » .

فَلَنْمَضَ عَنِ الْفَزَالِ إِذْنًا إِلَى الشَّيْخِ الْحَرِيَّنِيِّشِ الَّذِي ذَكَرَ هَذِهِ الْأَيَّاتِ فِي
إِطَارٍ آخَرَ وَإِنَّ كَانَ بِصَدْدِ الْحَدِيثِ عَنْ رَابِعَةِ ، فَقَالَ : « قَالَ سَعْدُ بْنُ عَمَّانَ :

(١) رَاجِعٌ : مَا يَنْبَغِيْنَ : « عَذَابُ الْمَلَاجِ » ، ص ٦٢٣ - ٦٢٤ ، وَرَاجِعٌ
خَصْوَصًا : مَا يَنْبَغِيْنَ : « بَحْثٌ فِي أَصْوَلِ الْمَصْلُوحِ الْفَنِيِّ لِلتَّصُوفِ الْإِسْلَامِيِّ » ، ص ١٩٣ ،
پَارِيِّسٌ سَنَةُ ١٩٢٢ .

(٢) الرَّاضِيُّ الرَّازِيدِيُّ : « اتِّحَافُ السَّادَةِ » ، ج ٩ ، ص ٥٧٧ .

كَتُبَ مُعْذِنُونَ الْمُصْرِي رَحْمَهُ اللَّهُ فِي تِبَّهِ بْنِ إِسْرَائِيلَ ، وَإِذَا بِشَخْصٍ
قَدْ أَقْبَلَ ، قَوْلَتْ : يَا أَسْتَاذَ ! شَخْصٌ قَدْ أَتَى . قَوْلَ لَى . انْظُرْ مَنْ هُوَ ، فَإِنَّهُ
لَا يَضُعُ أَحَدُ قَدْمَهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ إِلَّا صَدِيقٌ . فَنَظَرَتْ فَإِذَا هِيَ امْرَأَةٌ . قَوْلَتْ :
إِنَّهَا امْرَأَةٌ . قَوْلَ : صِدِيقَةٌ وَرَبُّ الْكَمْبَةِ . فَابْتَدَرَ إِلَيْهَا وَسَلَّمَ عَلَيْهَا قَوْلَتْ : مَا لِرَجَالٍ
وَمُخَاطَبَةِ النِّسَاءِ ! قَوْلَ : أَنَا أَخْوَكَ ذُو النُّونَ ، وَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ التَّهَمَّ . قَوْلَتْ :
صَرَحْبَاً ! حِيَاكَ اللَّهُ بِالسَّلَامِ ! قَوْلَ لَهَا : مَا حَمَلْتَ عَلَى الدُّخُولِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟
قَوْلَتْ : آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ — قَوْلَهُ تَعَالَى « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً
فَهُمْ أَجْرَوْا فِيهَا ؟ ! » . — قَوْلَ لَهَا : صِنْفُ الْمُحْبَّةِ ! قَوْلَتْ : سَبَحَنَ اللَّهُ ! أَنْتَ عَارِفٌ
بِهَا ، وَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْمَعْرِفَةِ وَتَسْأَلُنِي عَنْهَا ؟ ! قَوْلَ لَهَا : لِلسَّائِلِ حَقُّ الْجَوابِ .
فَأَنْشَدَتْ تَقُولُ : أَحْبَكَ حِينَ ... »^(١) ثُمَّ يَأْتِي بِالْأَيَّاتِ الْأَرْبَعَةِ .

وَوَاضِعُ أَنَّ هَذِهِ الْقَصَّةَ أَسْطُورَيَّةٌ إِنْ قَصَدَ بِهَا الْمَرْأَةُ رَابِعَةً كَمَا يَرِيدُ الْمُؤْلِفُ
أَنْ يَوْمِيَ إِلَيْهِ . وَذَلِكَ أَنَّ ذَا النُّونَ الْمُصْرِيَّ إِنَّمَا وُلِدَ حَوَالَى سَنَةِ ١٨٠ هـ
(= سَنَةِ ٧٩٦ م) أَيْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَوَفَّتْ حَوَالِيهِ رَابِعَةٌ ؟ فَهُنَا اسْتِحْالَةٌ
تَارِيَخِيَّةٌ إِذْنُ . وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاقِيَّصِ الشَّائِعَةِ عِنْدَ مُؤْرِخِيِّ الصَّوْفِيَّةِ لِرَبْطِ
بَيْنَ كَبَارِ الْشَّخْصِيَّاتِ فِي التَّصُوفِ ، حَتَّى لَوْمَ يَتَفَقَّهُ هَذَا مِنْ الْإِمْكَانِ التَّارِيَخِيِّ ؟
وَمِنْ شَعْرِهِ بِهَذِهِ الْاسْتِحْالَةِ التَّارِيَخِيَّةِ سَرْعَانَ مَا رَاحُوا يَزِيفُونَ فِي التَّوَارِيخِ نَفْسَهُمْ
حَتَّى يَسِّرُوا هَذَا التَّلَاقِ . وَالْعَلَةُ فِي هَذَا الْحَرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى الرَّبْطِ وَاللَّقَاءِ هِيَ تَوَاتُرُ
السَّنَدِ بِحِيثُ يَتَصَلُّ الإِسْنَادُ الْحَلِيُّ ، لَأَنَّ فِي اتِّصَالِهِ ضَمَانًا لِصَدَقَةِ وَرَفْعًا لِلذَّاتِيَّةِ فِيهِ :
كَمَا هُوَ شَأنُ الرُّوحِ الْمُرْبِيَّةِ فِي كُلِّ تَصْوِيرِهِا : فِي النَّبِيَّةِ^(٢) تَحْرِصُ عَلَى التَّسْلِسلِ

(١) الشِّيْخُ الْحَرِيفِيُّشُ : « الرُّوْحُ الْفَائِقُ فِي الْمَوَاعِظِ وَالرَّفَاقَيْنِ » ، الطَّبْعَةُ الْيَبْنِيَّةُ ، الْقَاهِرَةُ
سَنَةُ ١٣٠٤ هـ — سَنَةُ ١٨٨٦ م ، ص ١١٧ — وَالْأَكْيَةُ مِنْ سُورَةِ النَّاءِ رقمُ ٩٩ .

(٢) رَابِعُ كَتَابِهِ : « الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْوُجُودِيَّةُ فِي الْفَسْكُرِ الْعَرَبِيِّ » ، ص ١٤٣ —
ص ١٤٤ ، الْقَاهِرَةُ سَنَةُ ١٩٤٧ .

الطولي بحث يكون الأنبياء جيماً سلسلة واحدة متصلة بالحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تواريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين ؛ وفي الرواية ، المحدثين ؛ وفي الإجازات في مختلف مراافق الحياة الدينية . فهذا هو الذي يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الفذة في عالم الروح العربية — ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخي الحق المتصل — : أعني أن العلة هي القضاء على الذاتية ، وتأكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ؛ ولذا نرى الإجازة الحقيقة ، أو الإسناد الحق ، لا بد أن ينتهي بالنبي أو الملك الصادر مباشرة عن الله في خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها في هذا الباب فكرة المصالحة وتسلسلها التاريخي حتى تنتهي بالنبي ، والوسائل عديدة في موضوع المصالحة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها ^(١) .

إنما تفيد في بيان الفكرة التي كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجرد الناس بأن يتلقى عنها معانى الحبة . فإذا كان في تقدير الصوفية أن رابعة هي التي لقت الناس مذهب الحبة ؟ فمن يتكلم بعدها عن الحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة . لهذا نرى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا إخوصاصاً أن يرفعوا من شأن ذي النون بأن يجعلوه يتلقى علم الحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى ، رابعة .

على أنها نرى هذه القصة ترد بصورة أخرى في كتاب « مصارع المشاق » لأبي محمد السراج القاري ^(٢) ، صورة قد ازداد زخرفها وارتفعت نبرتها ، ومن هنا

(١) راجع مثلاً « مصالحة الرسول صلى الله عليه وسلم » ، للاقسام التوحيدى الشيشندي القادرى ، وفيها يبين تسلل المصالحة منه إلى شيخه ثم من شيخه إلى شيخ حتى يرتفع إلى النبي ، في مخطوطة الفاتيكان برقم ١٢٤٢ ورقة ٣٢ ب إلى ٣٣ ، وراجع فهرست مخطوطات برلين ١٦٠٦ - ١٦٠٨ وفهرست مخطوطات الفاتيكان لليقى لاقيدا ص ١٩٢ .

(٢) من ١٨٠ - ١٨١ ، طبع الجواب باستانبول سنة ١٣٠١ - ١٨٨٣ م وقد بقلاها ، عن السراج ، الزيدى في « أتعاف السادة » - ٩ ص ٥٨٨ .

انتهت على هيئة مأساة . ذكر السراج القارى فقال : « قال ذو النون : يسأنا
أسير على ساحل البحر ، إذ بصرت بجارية عليها أطمار شَمَر ؛ وإذا هي ناحلة ذاتلة .
فدنوت منها الأسمع ما تقول . فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان . وعصفت الرياح
واضطربت الأمواج وظَهَرَتْ الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض .
فلما أفاقت بُحَّتْ (!) نم قالت : سيدى ! بك تقرب المتقربون في الخلوات ؟
ولمظمتك سبحة الحيتان في البحار الآخرات ، ولجلال قدسك تصافت الأمواج
المتلاطيات . أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفالك الدَّوَار ،
والبحر الزَّخار ، والقمر النَّوار والنجم الزَّهَار ؛ وكل شَيْءٌ عندك بقدار ، لأنك
الله العليُّ القهار :

يا مُؤْنِسَ الْأَبْرَارِ فِي حَلَوَاتِهِمْ	يا خَيْرَ مَنْ حَلَّتْ بِهِ التَّزَّالْ
مَنْ ذَاقَ حُبُّكَ لَا يَرَالِ مِنْيَا	فَرَحَّ الفَوَادِ — مِنِيَا — بِلَالَ
مَنْ ذَاقَ حُبُّكَ لَا يُرَى مِنْبِسَا	مِنْ طُولِ حَزَنٍ فِي الْمَشَا إِشْعَالْ

قلت لها : زيدينا من هذا ! فقالت : إليك عنى . ثم رفعت طرفها
إلى السماء ، وقالت :

أَحَبُّكَ حَبِيبِنْ : حَبَّ الْوَدَادْ	وَحْبَّاً لَأَنْكَ أَهْلَ لَذَاكَ
فَأَمَا الَّذِي هُوَ حَبَّ الْوَدَادْ	غَبَّ شُغْلَتْ بِهِ عَنْ سُوكَ
وَأَمَا الَّذِي أَنْتَ أَهْلَ لَهْ	فَكَشْفَكَ لِلْحَجْبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ذَا ذَاكَ لِي	وَلَكَ لَكَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ذَا ذَاكَ

ثم شَهَقَتْ شَهَقةٌ فإذا هي قد فارقت الدنيا . فبقيتْ أتعجب مما رأيتُ منها ؛
إذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشَّمَر ؛ فاحتملنها ، فغيثنها عن عيني ، ففسَّلنها
ثم أقبلن بها في أ��انها ؛ فقلن لي : تقدَّمْ فَصَلَّ عَلَيْهَا . فقدمتْ وصليتْ عَلَيْهَا
وهو خلفي . ثم احتملنها ومضين ». والقصة لا شَكَ رائعة ، لكنها تنسب كلها إلى

أسطورة رابعة ، وما ذكرناها هنا إلا لأنّه وردت فيها أبياتنا هاتيك . وكما هو الشأن دائمًا في القصص حينما يتقاوم بها المهدُ ، ضاع اسم رابعة ، ونسبت الأسطورة إلى جارية مجهولة ؛ ثم رقت حواشيه فأمعن فيها إزميل الخيال المثال ، وتداعت أطرافها فصال فيها الفنُ المسرحي وقال : فكان انتباخ prologue في هذه النجوى التي وجهتها إلى الله ، وكان وصف لتجربة العشق الإلهي العنيفة القاسية ترددت فيها الأحداث الباطنة على مسرح القلب ، فلما بلغت العقدة ، بأن ارتفعت بالحب إلى حب الجلال والجلال ، حب الله في ذاته ولذاته ، كانت الخاتمة فأسدلت ستور مأساة غرامها الإلهي على مشهد أولئك الملائكة — النسوة اللائي رفعنها إلى حيث ترقد رقدها الأخيرة في السماء ، وكأنها جرثمن في «فاوست الثاني» ؟ لكن الذي رفعها إلى علیين لم يكن الأنوثة الخالدة Das Ewig=weibliche ، بل المشتى الإلهي الشهيد . لكن من يدرى ! فعلم الأنوثة الخالدة والعشق الإلهي سيتان :

وعدم ذكر اسم رابعة في كلتا الروايتين المنقدمتين لا يمكن أن ينهض دليلا على أن الأبيات ليست لرابعة ، خصوصاً إذا لاحظنا تأخر زمن صاحبها ، وما اعتورها من ألوان التزييق المشكك في صحة الروايتين إجمالاً . بل يجب أن نضع اسم رابعة مكان الجاربة «في الرواية الثانية» ، «ول المرأة الصدّيقه» في رواية صاحب «الروض الفائق» ؟ ثم نضيفهما معاً إلى أسطورة رابعة دون أن يقبح ذلك في صحة بعض قسميات هذه الأسطورة تاريخياً ، ومن بينها صحة نسبة الأبيات الأربع إلى إليها . على أن مجرد صياغة أمثل هذه الأساطير أنصر دليلاً على قيمة هذه الأبيات ، مما حل الرواية على أن يتندعوا لها إطاراً رائعاً يتفق وجلاها وعُق معناها ؟ ولعل هذا أن يفسر لنا السر في ألوان التزويف والاستعراض المسرحي الذي عمل من أجلها .

وفي وسعنا الآن بعد هذا العرض التاريخي لتفسیر هذه الرباعية أن نجمل المقصود منها فنقول إن رابعة كانت لا تزال في ذلك الحين تتراجح بين حبين : حب الهوى ، أو حب الوداد ، وهو حب مبعثه نعم الله على العبد ، وهو لهذا ليس خالصاً لوجه المحبوب ؟ والذكر فيه – وإن اقتصر على المحبوب – فإنه لا يزال يجول في ليل المحسوس ، لأنَّه تجريد مستمر للمحسوس ، وبالتالي ذكر للمحسوس ، وفي الذكر بقية من القماق . ثم حب الله في نفسه كما يقول الحاسبي ، أو « الحب الذي هو (= الله) أهل له » كما تقول هي ، وهو حب لا باعث له إلا المحبوب نفسه ، وليس فيه حب للذكر ، أى النعمة والمحسوس ، بل هو حب للذكر وحده ، ولو وجه ذى الجلال والإكرام . وفيه تكشف الحجب حتى تنيسر للعاينة . وليس في قوله هنا ما يؤذن صراحة بأنَّها ظفرت بهذه المعاينة فعلاً لوجه الله ؛ بل هي في معرض الوصف لما عسى أن يؤدي إليه هذا الحب . وهي لا تزال تشعر بأنَّ ظفرها بالعاينة في كلا النوعين من الحب لا يمكن أن يأتي إلا عن طريق المبة من الله ، شأن ذلك شأن التوبة كما رأينا آنفًا ؛ مما يؤكِّد مرة أخرى أنها لا تزال في الدور السالب الذي تلتقي فيه كل شيء عن الله ، فلا تزال إذن في حال انفعال مطلق بالنسبة إليه .

— ٩ —

لهذا كان عليها أن تناضل في طريق الحب حتى تحيط الجانب السالب إلى جانب إيجابي ، شأن كل صوف حق . لأنَّ السلب هو دور تمييدي فحسب ، فلو اقتصر عليه الصوف لما وصل . ويمكن أن يشبه الأمر هنا بأمر العقل الفقالي وأمر العقل المنفعل : فهذا الأخير مرحلة تمييدية ، فيها تقبل خالص للصور منطبقة على المحسوسات ، ولا يزال للره فيه عالة على الخارج ؛ وإنما يبلغ العقل مرتبة

الكمال إذا استحال إلى عقل فعال ، يبدع المدركات ويفيض بالمعقولات . فتل العقل الفعال والعقل المنفعل هو مثَل الدور الإيجابي والدور السلبي في طريق التصوف ، ومنه طريق الحبة .

لكن الانتقال والتتصاعد من دور السلب إلى دور الإيجاب مليء بالمتاعب والمجاهدات وألوان الألم وخيبة الأمل . وكنا يذَكِرُ تلك الصفحات الرائعة التي كرسها صوفٌ مثل يوحنا الصليبي San Juan de la Cruz لما يعاينه المرء في «الالية الظلاماء» . فإذا كان حال رابعة في ليلتها هي الظلماء ؟

لدينا عنها روايات وأقوال ، يأتى على رأسها ما حكاه المطارق في «التذكرة» فقال : «يمكِن أن رابعة كانت تتوح باستمرار . فسئلَت : لماذا تتوحين وما نبت ألم عساك تشکين منه ؟ فأجابت : واحسرتاه ! العلة التي أشکوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجه . إنما دواؤها الوحيد رؤية الله . وما يعني على احتمال هذه العلة إلا رجائي أن أحقق غايتي هاتيك في العالم الآخر » .

ما أشبه قوله هذا بقول أوغسطين : «أموت من كوني لا أموت كما أرى وجهك ! كلّاها يسعى لرؤيه الله ، لكنه لم يبلغ بعد مرتبة تسمح بتحقيق هذه الرؤية ؛ ففقط من بلوغ هذه الدرجة في الدنيا ؛ ولذا يطلب الموت لأنّه وحده الذي سيسير السبيل إليها . إنه إذن في حال اليأس من البلوغ ، والقنوط من الوصول .

وما أبدع العبارة في وصف ما تشکوه ! اندلعت عليها الرغبة في الرؤية ، حتى استحالَت مرضًا ، مرضًا تالم له ، لأنّ الحب قد صار من القوة والنفوذ بحيث صارت له آثار توغل في أعماق الروح فتصيبها بالعلة . هنا «المرض حتى الموت» من شدة الألم العالى ؛ هنا «الصرخة من أعماق المهاوية» ، هاوية الليلة الظلام للحواس ، وإن كانت تبذل كل ما وسعتها للخلاص منها ؛ بل هي في عروج من

« ليلة الحواس » إلى « ليلة الروح » ، لكنها لازال تختبئ في الظلام ، وهياكله بعد أن يزغ الفجر . نعم ، إن طائفًا من النور يطوف بروح رابعة بين الحين والحين ، وهو طائف « الرجال » المنحدر إليها من حفاف علَّيْنِ ؛ لكنه نور محجوب ، نور خاطف ، نور يصارع الليلة الظلماء في لففة وإبعاء كأنه الخيوط الأولى المتناثرة في صفحة الأفق الواسع . ومع هذا فلتستعاق بأهداب هذا النور الخاطف ، ففيه من الرؤى ما يعينها على أن تستذوق مقدمًا *Avant-goût* أثارة مما ستذوقه بعد في الحضرة الكلاملة . هي رؤى من نوع تلك التي وصفها يوحنا الصايني فقال : « تختطف البصر صُورٌ ... ورؤى للقدسين والملائكة ... وأصوات وإشارات ... وتسم الأذن كلمات غريبة ...؛ ويستروع الشم عطوراً فاغنة ...؛ ويستطيع الذوق طعوماً شهية محضّة الحلاوة ؟ ويحسّ اللسان نعومة عميقة . لكن هذه الظواهر جهانمية على الأخص ، لهذا لا بد من الظن أنها ليست من مصدر إلهي » ^(١) . فلا بد من استبعاد حتى هذه الصور نفسها ، خوفاً من أن يقتصر عليها الماء قتل قدمه ، أو بالأحرى يحسب نفسه قد وصل وما كان من الوالصين . ولذا فإن في بوارق هذا الرجال من الفرار بقدر ما فيه من الفائدة .

إن هذا الرجال في الآخرة ، وهو الاشتياق إلى الجنة ، لا يزال متلبساً بالمحسوس لأنّه يفترض أنّ الحب لا يزال يطلب جزاءً ، وأنه ليس خالصاً لوجه الله ، بل فيه طمع في الجنة ، طمع في مادي محسوس . ومن هنا كان عليها أن ترتفع فوق هذه المرتبة التي تبَرَّ عنّها القصة التي رواها العطار ، فتفعل ما سيفعل يوحنا الصليبي من اطراح هذه البوارق الخداعية . وذلك بأن تدع في الشوق إلى الجنة نفسها خطيئة ؛ وهو ما عَبَرَت عنه أجيال تسبير فيها حكايات الكلاباذى في كتاب « التعرف

(١) يوحنا الصليبي : « صعود الكرمل » ، ج ١ من ٩١ ترجمة هـ . هورنائيه ،
باريس سنة ١٩٢٣ : Saint Jean de La Croix : Montée du Carmel , tr. H. Hornaert

لذهب أهل التصوف » في باب « اطائف الحق بهم في غيرته عليهم » فقال : « دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله ما أعرف لعلتني سبباً أعراضت على الجنة فلست بقلبي إليها ؛ فأحسب أن مولاي غار على فماتبني ؟ فله العتبى » ^(١) . وقد روى ذلك المأوى في « طبقات الأولياء » فقال : « ومرضت (أى رابعة) ، فقال لها عوادها : ما سبب علتكم ؟ قالت : نظرت بقلبي إلى الجنة فآذاني ، فثبتت أن لا أعود » ^(٢) . والمغنى قريب في كلتا الروايتين ، وخلاصته أنها صارت تعد النظر بقلبيها إلى الجنة بمناشة إثم اقترفته ، يعاقبها الله عليه ؛ ولذا تابت عنده وقررت أن لا تعود إليه . فيينا في رواية المطار السالفة نرى رابعة لا تزال ترمي الجنة بنظرها وتضم رجاءها فيها ، نجد هنا ترى في هذا منكراً تستحق من أجله العقاب ، أو في القليل العتاب من الله . وهذا يؤذن بتطور هائل في سلوك رابعة — إنها الآن في مقام قاب قوسين أو أدنى .

— ١٠ —

ألا فلتتقدى إذن بكل شجاعة في هذا الطريق ، أى رابعة ! لقد بدأت الخطوة الأولى في المرحلة الخامسة النهائية ، فإذا يتحجر لك ؟ أبقيه من تقاليد وأوضاع ، وسوار من سنة فقهاء ، وحرف صامت جامد ؟ إذن فلتكسرى التقاليد والتقليدي الأوضاع ! إذن فلتستنى سنة أخرى ، فما سنة الفقهاء إلا إحدى السُّنن ، هي سنة الجميع والجماعة ، فلا تصلح للفرد الممتاز ! والحرف الصامت ماذا يخيفك منه ؟ الحرف يقتل ، والروح تُحيي ؛ والحرف دمز ، والمقصود هو المعنى ، فهيأً أعني الثورة على الحرف القاتل كيما ترفي رأية الروح الحية ؛ واتحيط بي قيد الرمز ، حتى تنعمى مع الأرواح الزكية بالمعنى العالية المستوراة ! تشجعى إذن وتقدى غير هيابا !

(١) « التعرف لذهب أهل التصوف » ، ص ١٢١ ، نشرة آبرى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ . وذكر ذلك المطار في « التذكرة » ، ج ١ من ٥٠ .

(٢) مخطوط الظاهري بمدحش رقم ٤٦٤ عام ، ورقة ١٠٥ ب .

وتقدمت رابعة تمشي أولَ الأُسر على استحياء لا يزال يشيم في مثل قوله
الذى لا بد أن يننسب إلى ذلك المهد ، وهو ما رواه المنانى من أن سفياناً الثورى
قال لرابعة : « ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ،
فما كونَ كالأخير السوء . عبدته حباً وشوقاً إليه »^(١) . فهى هنا تقصر على
وصف حالها الجديدة ، وهى أنها بدأت تدخل فى ملوكوت « الحب الذى « هو »
أهل له » ؛ فلم تعد تحب الله إلا لله ، لا طمعاً فى الجنة ولا خوفاً من عذاب النار .
فلهجتها لا تزال هادنة ، وكأنها إنما ت يريد أن تميز بين صنفين من العابدين : صنف
يعبد الله على رغبة أو رهبة ، وصنف قد صار بمعزل عن الرغبة والرهبة وارتفع
إلى معنى الحب الأعلى الذى لا يطلب من وراء ذلك غير وجه المحبوب ؛ وتكتفى
بأن تدمع الحب الأول بأنه حب أجزاء السوء ، أما الآخر فهو حب العابدين المقيمين .
تلاك إذن خطوة أولى ، فلتتبعها بثانية بأن تبدأ فى عتاب الله نفسه على اتخاذه
هذه المعانى : الرهبة والرغبة ، والتجانه إليها فى دعوى الناس إلى طاعته . وإذا
كانت قد بدأت العتاب ، فما ذلك إلا لأنها قد تحققت فى مقام الخلقة بينها
 وبين الله ؟ فلا تثريب عليها أن تلتجأ إليه ؛ إذ ما أجمل العتاب بين الخلائق ! وهل
تقوم الخلقة والصدقة حقاً إلا مع العتاب ؟ لذا زراها تتقول هنا ما يرويه المنانى
أيضاً حين قال : « قال مالك بن دينار : أتيتها (أى رابعة) فإذا هي تتقول :
كم من شهوة ذهبتُ لذتها وبقيتْ تبعتها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب
غير النار ؟ ! »^(٢)

من هنا تبدأ الجرأة في الالهجة لدى رابعة في حديثها مع الله ، ولو لا أنها بمقام
الخلقة ، لتعتذرنا ذلك بالاجتراء بهـ التطاول .

(١) عبد الرؤوف المنانى : « طبقات الصوفية » ، مخطوط الظاهرية ، رقم ٤٦٤ عام ،

ورقة ١٠٥ .

(٢) الموضع نفسه .

والآثار التي لدinya في هذا الباب قليلة وباللأسف الشديد، لا تكاد تتجاوز اثرين:
 الأول ما أورده ابن تيمية في رسالة سئل فيها أن يدلّ برأيه في بعض الأقوال
 الغريبة الواردة عن بعض الصوفية، ومن بينها أنه « قيل عن رابعة إنها حَجَّتْ
 قالت (أي وهي تشير إلى الكعبة) : **هذا الصنم المعبود في الأرض** ، وإنه
ما وَبَلَهُ اللَّهُ وَلَا خَلَّا مِنْهُ »^(١).

وابن تيمية يرى أن هذا القول لا بد أن يكون كذباً على رابعة، لأنها كانت
 من الإيمان والتقوى بحيث لا يتصور صدور هذا عنها. ثم راح يفند هذا القول—
 أيا كان صاحبه ؟ قال : « وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت إنه الصنم
 المعبود في الأرض — فهو كذبٌ على رابعة . ولو قال هذا منْ قاله لكان كافراً
 يستتاب ؟ فإن تاب ، وإلا قُتِل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ،
 ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلوة إليه . وكذلك ما نُقلٌ من قولها:
 والله ما وَبَلَهُ اللَّهُ وَلَا خَلَّا مِنْهُ — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلوية لا فرق
 بين ذلك البيت وغيره في هذا المعنى ؟ فلأنَّ مزيَّةَ إِعْطافِهِ وِيُصْلَى إِلَيْهِ وَيُحْجَجُ ،
 دون غيره من البيوت ! وقول القائل : ما وَلَجَ اللَّهُ فِيهِ — كلام صحيح . وأما قوله :
 ما خلا منه — فإن أراد أن ذاته حَالَةٌ فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل ،
 وهو منافق لقوله : ما وَلَجَ فِيهِ . فهذا — مع أنه كفر و باطل — يوجب ألا يكون
 للبيت مزيَّةٌ على غيره من البيوت ؛ إذ الموجودات كلها عندم كذلك »^(٢).

ويلاحظ على ابن تيمية هنا أولاً أنه يكذب هذا القول على أساس
 عقلي يفترض فيه أن رابعة — وهي التقية المؤمنة كما هو مشهور عنها ،

(١) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والسائل » ، ج ١ ص ٦٢ ، الفاشرة ١٣٤١ =
 سنة ١٩٢٢ م .

(٢) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والسائل » ، ج ١ ص ٨٠ — ص ٨١ ، الفاشرة
 ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢ م .

وابن تيمية يفهم التقوى هنا بمعناه الخالص ، أى السنّي الحرف – لا يمكن أن تقع في مثل هذا الكفر ، – ييد أن هذا التكذيب يقتضي أن يكون هذا كفراً في نظر رابعة نفسها ، حتى لا يجوز لها أن تقول هذا – وهو اقتضاه لأصل له ، لأن رابعة ترى في هذا سمواً بالإيمان ، مادامت هي في سبيل التجريد عما هو ديني كلّ ، ما يدل على المعنى الحسنى . وهل أدلّ على المعنى الحسنى من الكعبة وما يلابسها من طقوس ومراسيم تتصل بالطواف وتقبيل الركن والمقام وما يشبه عبادة الحجر الأسود ورمي الجمار وما يقال فيه من دعوات ! ونقدها لهذا كله – ضمناً – ليس يصدر عن نفس الدوافع التي صدر عنها أمثال ابن الروندى في نقه « لرمي الحجارة ، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يُبصر ، والعدو بين حجرين (الركن والمقام) لا ينعمان ولا يضران : وهذا كله مما لا يقتضيه عقل : فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كفرق بين أبي قبيس وحراة ، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت^(١) ». بل يصدر عن الإيمان في السمو بالحياة الدينية بحيث تصفو من كل شوائب الحسن . وابن تيمية قد أخذ هذا القول بما يؤخذ به أمثال أقوال ابن الروندى هذه ، ومن هنا أنكر أن يكون ذلك القول لرابعة . فإن ابن تيمية إذن قد أخطأ فهم المقصود من كلام رابعة ، وعلى أساس هذا الفهم الخاطئ بنى تكذيبه ، وما بني على خطأ فهو خطأ ، وإن فتكذيبه غير قائم على أساس صحيح . ولماذا فلا نستطيع أن نقيم له وزنا .

كما يلاحظ ثانياً أنه ، وقد كاتب يعرض الرد على القائلين بوحدة الوجود والقائلين بالحلول ، قد فهم هذا القول النسوب إلى رابعة على أساس فكرة الحلول أو وحدة الوجود ، فأخطأ فهم مررة ثانية ، لأن ما استهدفته رابعة ليس يقتضي الحلول أو وحدة الوجود إلا بتعسّف لامducta له هنا ؛ لأن قوله « والله ما وَلَّهُ الله

(١) راجع كتابنا : « الإلحاد في الإسلام » ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ثم ص ١٢٩ - ١٣٢ .
م - ٦ شهيدة

ولا خلا منه» — لا يقتضي غير التسوية بين هذا البيت وبين غيره من البيوت؛ فالاقتصر على هذا البيت وما استتبع ذلك من قيام نوع من الوثنية حوله هو اقتصر لامبرله ، لأنه أسرّ لاخليقة في ربوة شيء معين يفضل على غيره ، مع أن المخلوقات تستوي عند الله من وجهة نظره ، والأشياء خصوصاً كثراً من الأحياء . وابن الرواندي حينما قال بهذه التسوية بين البيت الحرام وبين غيره من البيوت لم يقم ذلك على أساس من الحال أو وحدة الوجود ، فما كان أبعدها عن ذهنه ! كذلك رابعة : رأت أن الوقوف عند بيت دون آخر ، أى عند آخر من الخلق دون آخر ، فيه تضييق من أفق الخلقيـة ، وفيه حصر الأنـوـهـيـة ، فضلاً عـما فيه من حـسـيـةـ فـاضـحـةـ ، بل وشركـ في إضفاء جانب إلهـيـ على هـذاـ الـبـيـتـ المـادـيـ القـافـيـ . وفي القرآن تنبـيـهـ على ما كان عليه أـهـلـ مـكـةـ من عـبـادـةـ هـذـاـ الـبـيـتـ ، وذلك في قوله تعالى : «فليعبدوا ربـ هـذاـ الـبـيـتـ ، الذـىـ أـطـمـمـهـ من جـوـعـ وـأـنـهـ من خـوـفـ» (سورة قريش : ٤) ، فـقيـهـ ردـ علىـ أولـئـكـ الذـينـ عـبـدـواـ أوـ كـادـواـ هـذـاـ الـبـيـتـ من دونـ اللهـ . وإنـ ذـرـاءـ إـنـماـ تـمـلـىـ هـاتـيـنـ الآـيـتـيـنـ كلـ مـعـناـهـاـ وـتـابـعـ الغـرضـ المـقصـودـ مـنـهـماـ حينـماـ تـقـولـ قـوـطاـ هـذـاـ عـنـ الـبـيـتـ الحـرـامـ : إنـ الصـنـمـ المـبـودـ في الأرضـ ، وـإـنـهـ مـاـوـلـجـهـ اللهـ ولاـ خـلاـ منهـ .

وإنـماـ الـحـالـولـ هـنـاـ أـنـ تـفـالـيـ فـيـ تـقـدـيسـ هـذـاـ الـبـيـتـ بـحـيـثـ تـشـمـرـ بـأـنـ اللهـ كـانـهـ حالـ بـهـ كـآـلـ إـلـيـهـ أـمـرـ الـحـجـ ، عـلـىـ الـأـقـلـ فـيـ أـذـهـانـ الـجـهـورـ مـنـ النـاسـ : فـهـذـاـ فـلاـهـ مـاـيـسـمـيـهـ اـبـنـ تـيـمـيـةـ نـفـسـهـ^(١) باـسـ الـحـالـولـ الـعـيـنـ ، لأنـ القـولـ بـحـلـولـ اللهـ فـيـ شـيـءـ معـينـ . إـنـسانـ أـوـ جـهـادـ أـوـ حـيـوانـ . وذلكـ فـيـ مـقـابـلـ الـحـالـولـ الـمـطـلـقـ . ولـهـذاـ فـكـلامـ اـبـنـ تـيـمـيـةـ هـنـاـ حـافـلـ بـالـمـغـالـلـاتـ ، خـصـوصـاـ فـيـ تـجـزـئـتـهـ تلكـ

(١) راجـعـ اـبـنـ تـيـمـيـةـ : «ـجـمـوعـةـ الرـسـائـلـ وـالـمـسـائـلـ» ، جـ ١ـ مـ ١٧٢ـ ، الـقـاهـرـةـ . سـنـةـ ١٣٤١ = ١٩٢٢ـ .

العبارة : « وَاللَّهُ مَا وَلَجَهُ اللَّهُ وَلَا خَلَّا مِنْهُ » إلى جزئين ، جعل أولهما حبيباً والآخر باطلًا إن قصد به الحلول ، منافقاً لقوله مأولج فيه ، متناافقاً في نفسه إن قصد القول بأن الانحدار ملازم له . وإنما كان عليه أن يأخذ القول جملة فيفهم منه إنكار الحلول المبين لأن الله لم يلح هذا البيت بالذات ، إذ الله لا يحمل في شيء ، وهو حال في كل شيء ، بمعنى أن كل شيء قوامه بالله ، ولكن هنا لا يقتصر على شيء دون غيره . ففي تقديس البيت إلى ذلك الحد ما يقتضي أن هذا البيت وحده قوامه من الله بينما غيره ليس قوامه منه ، وهذا هو الشرك بعينه .

والحق أن من المميزات الكبرى للإسلام في جوهره وأصوله ، أنه حاول دائماً منذ البداية لا يحصر العبادة على مكان ، لأن كل مكان يصلح أن يكون بيت عبادة الله . وهو إنما أتى بهذا بثباته رد فعل ضد اليهودية والمسيحية في حصرها عبادة الله في مكان معين بالذات بحيث لا يصلح في غيره . فالصلوة في الإسلام يمكن أن تقام في أي مكان ؛ أما في اليهودية والمسيحية فلا بد أن تقام في مكان بالذات : ككنيسة أو بيعة على التوالي . والمعنى العميق في اتجاه الإسلام هذا الاتجاه هو الإشعار بأن الأولوية في كل موضع ، وأن كل مكان أخذته عامر بها وصالح وبالتالي أن يكون بيت الرب . وفكرة المسجد أو الجامع لانتطوى على أي معنى من معاني التفضيل لمكان دون مكان ، كما هي الحال في فكرة الكنيسة والبيعة ، إنما — كما يدل عليه اسمه — تنحصر في فكرة الاجتماع في مكان واحد تحقيقاً خصوصاً للمعنى المقصود من صلاة الجماعة وبخاصة صلاة الجمعة .

ألا إن فكرة عبادة الأماكن لفكرة حاربها الإسلام الأول بكل قوة وعنف كما يظهر في الآية التي أوردناها من قبل : « فَلَيَعْبُدُوا رَبَّهُذَا الْبَيْتُ » ؟ وكانت حلته هذه موجهة ضد تيارين : تيار اليهودية والمسيحية اللتين اقتصرتا على المكان المعين خضرتا فيه إمكان العبودية والعبادة والصلوة ؛ وتيار الوثنية المرتبطة التي

قدست البيت المتيق والحجر الأسود الذى فيه حتى كادت أن تجعله محلاً للألوهية. ولهذا كان على الإسلام الساُر المتطور — لاذك الجامد المتحجر الذى يمثله أمثال ابن تيمية والسلفية عامة — أن يتبع تلك الحلة حتى تُثْبِت ثمارها الكاملة العamerة بالتسامي الروحي فوق كل ما هو حسنى أو مشير به ، فترزول البقية الباقيه من الوثنية العريبية : وهذا هو مافعلته رابعة العدوية ، وما فعله الحالاج من بعدها . لقد بَعَث النبي الطلائع الأولى ، فعلى المسلمين على مر الزمان الأبدى أن يتبعوا الحالات حتى تتحقق النيات البعيدة التي لَمَّاً من بعيد إليها دون أن يخطو في السبيل إليها إلا الخطوات الضئيلة الأولى .

وإذن فال فكرة التي عنها صدرت رابعة في هذا القول فكرة ممتازة تنبع من صميم الإسلام الحى .

كذلك قوله الثاني . قال المناوي : « وَسَمِّمَتْ (أي رابعة) قارناً يقرأ : « إن أصحاب الجنة اليوم في شُفُلٍ فَاكِهُون » ^(١) — فقالت : مَا كَيْنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي شُفُلٍ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ! » ^(٢) وكلمة « فَاكِهُون » هنا معناها — في كثير من التفاسير — يقتضون الأبكار . ومن هنا امتنع ضمير رابعة من هذا المعنى الشهوانى ، وهى التي ارتفع عندها معنى الجنة إلى أعلى درجة من درجات الروحية . وقولها هذا — إن كان صحيحًا في نسبته إليها ، وليس ثمت ما يدعونا إلى الشك في هذه النسبة — قد بلغ درجة خطيرة من الجرأة والاجتراء : فهو يتضمن أولاً نقداً للقرآن وما فيه من أوصاف حسية شهوانية ؛ وهو يتضمن ثانياً طعنًا في الجوانب الحسية الشهوانية من الإسلام .

وهاتان مسألتان على أكبر جانب من الخطورة . ذلك أننا لأنهم فيها ورد

(١) التراثات : سورة يس : ٥٥ :

(٢) عبد الرؤوف الناوي : « طبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٠ ب ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ .

إلينا من الأخبار سواء عن عهد النبي أو عن عهد الخلفاء والأمويين أن نقداً قد وجه إلى القرآن والإسلام من هذه الناحية : ناحية الحسية الشهوانية . فليس في القرآن ما يدلنا على وجود ذلك الجدل في أيام النبي حول ما ورد في القرآن من أوصاف شهوانية ، والقرآن هو أصدق وثيقة تصور لنا نقد الناقدين في ذلك المصر ؟ كذلك لم يكن ينتظر ، والبيئة كانت على معرفة من سذاجة وفطريّة ، أن يصدر مثل هذا النقد ، لأنّه يفترض درجة عالية من التطور الروحي كان أهل تلك البيئة في ذلك الحين بعيدين عنها .

أ كانت رابعة إذن أول من بدأ هذا النقد ؟

لن نستطيع الإيمان عن هذا بالإيمان أيضاً ، وذلك لأن حركة الزندقة كانت قد قوّيت في تلك الأثناء - وبخاصة في الربع الثالث من القرن الثاني المجري - وانتشرت آراؤها إلى حد بعيد ، خصوصاً منذ أن صارت موضع اضطهاد عنيف من جانب الخليفتين المهدى والمادى فيما بين سنة ١٥٣ هـ (سنة ٧٦٩ م) وسنة ١٧٠ هـ (سنة ٧٨٦ م) ، فكان طبيعياً أن تكون رابعة على علم بها ، مادامت الدولة قد شغلت بها إلى هذه الدرجة البالغة الخطرة^(١) . أثرى رابعة قد تأثرت بهذه الحركة أو كانت على صلة وثيقة بها ، مع الفارق الشاسع بين نوادرها ونوابها أولئك الزنادقة ؟

فرض نسقه ولا نستطيع تحقيقه بيقين . لكننا لازم مانعاً جدياً في أن تكون قد تأثرت بذلك الأفكار التي أثارتها حركة الزندقة ، وبخاصة عند ابن المفع الذي وجه عنابة خاصة إلى القرآن وحاول معارضته ، ولا بد أن يكون قد وآكب هذا قيامه بنقد القرآن ، ويجوز أن يكون قد تعرض لشيء مما تعرّضت له

(١) راجع العرض التفصيلي لهذه الحركة في كتابنا : « من تاريخ الإسلام في الإسلام » ، ص ٢٨ - ٧١ . القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

رابعة ، أى قد الجانب الحسنى فيه . ييد أنها لا تجدى في رد أبي القاسم الزيدى ، ولا في المصادر الأخرى التي ذكرت زندقة ابن المقفع ، ما يشير إلى هذا بوضوح^(١) . وخلاصة رأينا في هذه المسألة إذن ، هي أن رابعة يمكن أن تعد أول من تعرض لنقد القرآن والإسلام من ناحية ماقى القرآن من أوصاف حسية شهوانية تتصل باللجنة خصوصاً ، وأنها يمكن كذلك أن تكون قد تأثرت في هذا بحركة الزندقة التي انتشرت في ذلك العهد انتشاراً خطراً حمل الدولة على مكافحتها بكل شدة ؛ وأنها رمت من وراء هذا النقد ، لا إلى المدم والطمن ، بل إلى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والإسلام إلى أعلى درجة من الروحية مستطاعة ، وكانت في هذا تكافع خصوصاً ضد تيار المُشَبَّهَة والجسمة والخشوية من أرادوا أن يأخذوا القرآن بمحروفة . وهذا يمكن أن تعد قولتها هذه من آرائها الكلامية ؛ ييد أن إيمانها لا يسمح لها بتفصيلِ أوسم في مذهبها الكلامي ، وكل ما نستطيع قوله في هذا الباب هو أنها كانت من خصوم المُشَبَّهَة والجسمة .

وكان طبيعياً ، وهذه العبارة من الخطورة على النحو الذى بيناه ، أن تجد لها كثيراً من الطاعنين عليها . وقد ذكر المناوى أن ابن عربى كان من هؤلاء . قال : « وعاب عليه ابن عربى هذه المقالة ، وقال إنها ماعرفت ، وإنها المسكينة ، فإما شف لهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين في تجريح الفير بيادى الرأى والتعريف في حق فهو مرموم ؛ إنهم مُنْزَهون عن ذلك^(٢) ». ومن هذا النقد نرى أن ابن عربى ينكر عليها هذا القول لأنها فهمت الآية هذا الفهم - لكن الذنب ليس ذنبها ، فالفسرون - غالباً - يفهمونها بهذا المعنى ، أعني : أن أصحاب اللجنة مشغولون بافتراض الأباء . ولا شك في أن هذا كان المعنى الشائع

(١) راجع للرجوع السابق ، ص ٤٣ - ٥٣ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٥ (ب) - ١٠٦ (أ) ، مخطوط الظاهرية بمثقب رقم ٤٦٤ .

السائل في أيام رابعة ، قبل أن يتتطور تفسير القرآن نحو التفسير بالباطن مما كان وليد حركة الصوفية في القرون التالية . فلا ثرثرة على رابعة إن كانت إذن قد فهمت الآية على هذا التحويل ، بل هذا هو وحده الذي كان ينتظر منها في مثل ذلك العصر . على أن إيجاز العبارة لا يدلنا - مرة أخرى - على ما قصدت إليه من هذا النقد : فهو نقد لتفسير المفسرين ، وإذن فالعبارة قيلت في معرض التهم عليهم ، أم هو نقد القرآن نفسه ؟ على أن هذا الفرض الثاني هو الأقرب احتمالا ، كما يقتضيه سياق العبارة : إذ قالت هذه المقالة حينها سمعت قارئا يقرأ الآية ؟ فهي لم تكن إذن بازاء مفسر ، بل قارئ عادي .

— ١١ —

تطورت الحياة الروحية عند رابعة إذن إلى الذروة من التجريد والنسامي عن كل ماهو حسي . وواكب هذا استفراغها الكامل في الله ، بحيث أفتلت أبواب الحواس . وإلى هذا ينتسب ما ورد لنا من أقوال تنبئه بما آلت إليه حالها من إمامنة الحواس ، بحيث يمكن أن يقال إنها ماتت من الدنيا . فقد « ذكر أن رابعة الددوية كانت في الصلاة ، فسجدت على البواري ، فدخلت قطمة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة »^(١) ، أي إلى أن انصرفت من الصلاة .

ف الحال التي تعبّر عنها هذه القصة هي حال الفناء عن الوجود الخارجي ، وذلك بالفناء في الوجود الباطن ، وجود الحق ، بحيث تستهلك فيه ، فيغيب عنها الوعي وتؤول إلى حال من اللاشمور - الكامل ، فيسقط عنها التمييز . وهي الحال التي

(١) في المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان عربي ، ورقة ٧٧ ب ضمن رسالة تسمى كتاب الصلاة بمقدمة المؤلف . وقد ذكر هذه المكالمة أيضا المطار ، في « تذكرة الأولياء » ، ج ١ من ٦٤ .

يشير إليها الصوفية بالرمز بمحكمة صواحبات يوسف عليه السلام الراوي قطعن أيديهن « لفقاء أوصافهن ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف ما غيبهن عن ألم مدخل عليةن من قطع أيديهن ^(١) » ؛ فيرمز بهذه المحكمة عند الصوفية إلى ما يجب أن يكون عليه الصوف في حال فنائه عن دنيا الحواس . وهذا الرمز نفسه يناسب إلى رابعة القول به ، ولعلها أن تكون أول من قال به . فقد روى العطار قال : يمكى أن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيقاً البلخى غدوا لزيارة رابعة . فسألتهم عن معنى الصدق ، فقال الحسن : « ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه » — قالت رابعة : هـذا غرور . وقال شقيق البلخى : « ليس بصادق في دعواه من لم يشكّر على ضرب مولاه » — قالت : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه » — فصاحت رابعة : بل ثمت أفضل من هذا كله . فقالوا لها : تكلمي أنت إذن ! فقالت : « ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللانى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . وقد تكون هذه الرواية صحّيحة إذا استبعدنا اسم الحسن البصري وأبدلنا به اسمًا آخر ، وقد تكون موضوعة كلها على نسق ما يقتضيه النحوذ الذى أصبح لدى مؤرخي الصوفية المجددين للتصـوف عن الصوف . إذ أن هذه الحال — حال الفناء عن الآلام — قد صارت منذ القرن الثالث من الميلاد الرئيسية للصوف الحق . فالسرى السقطى (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ — سنة ٨٧٠ م) يقول عن الصوف إنه لو ضرب وجهه بالسيف وهو في حال الفناء لما أحسن بالله ^(٢) . كذلك يحدثنا المجموعى أنه يمكى عن أبي الخير الأقطع أنه

(١) الكلباذى : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ٩٥ ، نشرة آذرى ، القاهرة

سنة ١٩٣٢

(٢) السراج : « اللمع » ، ص ١٩٣ ب في المخطوط ؛ راجع لشارة نيلسون ، سنة ١٩١٤ بلندن

أصحاب قدمه جرح مالبث أن فسد حتى أشار الطبيب بيتر قدمة ، غير أن أبو الخير لم يشأ ذلك . هنالك قال تلاميذه للطبيب : لو بترتها إبان صلاته لما أحسن شيئاً ، لأنه في الصلاة يغيب عن حواسه . ففعل وفق ما قالوا . فلما فرغ أبو الخير من صلاته شاهد قدمه وقد بترت ^(١) . وهكذا تكون صورة الصوف الفارق في الفناء وفقاً لهذه الأمور . فمن الممكن أن تكون هذه الرواية التي ذكرها العطار ، وكذلك مسألة دخول القصبة في عينها إبان الصلاة وهي مما رواه العطار أيضاً ، نقول من الممكن أن يكون هذا كله من الأخبار التي اخترعت إنعاماً للصورة وفقاً للنموذج الذي كان قد تكون عن الصوف . وإذا كانت هذه الرواية الأخيرة – دخول القصبة في عينها – مما ورد في الكتب العربية ، فإن الرسالة التي وردت فيها مجملة المؤلف ، بحيث لا يستطيع أن نقرر ما إذا كان قد أخذها هو الآخر عن العطار ، ذلك الرجل الجامح الخيال في غير ما احتفال الموقان التاريخية .

لماذا يجب أن نخلع هامشاً عريضاً لما في هذه الروايات من المبالغة ، وأن نفهم منها مجرد الارتفاع فوق الآلام ، وإن كانت رابعة قد ظلت حتى موتها شعلة زيتها الألم . فالواقع أنها بقيت تتلقى حتى آخر نفس من أنفاسها دروسها في علم الثالثة في مدرسة الآلام . كيف لا ، والآلم هو داعماً قوت الأرواح المائمة في الطريق إلى الله ؟ ولن يفرغ المرء من هذا الطريق أبداً ؛ لهذا فلا بد له أن يستمر في معاناة الآلام أبداً . ولا شك في أنه كان لرابعة فضل كبير في تمجيد الألم ، والدعوة إلى ما يمكن أن يسمى باسم عبادة الألم لما وآثر في الحياة الروحية في الإسلام ورأى جديداً سيعزف عليه الصوفية من بعد – وعلى رأسهم الحلاج خاصة – أعمق الحنان الألم ، فيتبرى مضمونهم الباطن إلى درجة عالية . ورابعة ترى في الألم نعمة يمنحها الله لعباده الخالصين ، وليس لها أن تسأل الله تحنيف آلامها ، لأن إراده الله هي

(١) المعورى : « كشف المحبوب » ، ص ٣٠٤ ترجمة بيكاسون .

هذا الامتحان بالآلام ، فكيف توجه بالدعاء إليه متجاهلة تلك الإرادة ؟
فمكذا كان جوابها لسفيان الثورى لما أن سألهما أن تدعوا الله حتى يخفف
آلامها^(١) . وهذا من بين الدواعى العديدة التي دعتها إلى رفض كل ما كان
يعرض عليها من مال ، وهى كانت على ما هي فيه من شظف عيش وإيلاق :
ذلك أنها تزيد من هذا أن تقتات بألم الحرمان ، وناهيك به من قوت ، حسب
الأولياء أن يظفروا به ! وفي هذه الدعوة إلى الألم نجد عنصراً ممتازاً أدخلته رابعة
المدوية في الروحية الإسلامية .

— ١٢ —

وتاتبعت رابعة حملتها على الأخرويات بالصورة الحسية المفهومة عند سائر
الناس ، وغزا هذا كلّه ثنوًّا معنى الحبة والرحة بحيث تشمل الناس أجمعين . فلم
يعد يعنيها خلاصها وحدتها بقدر ما يعنيها خلاص الآخرين معها . ولنناف هذا
الباب قصة رواها الأفلاكى في « مناقب المارفين » (باقمارسية) هاك ترجمتها :
« ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى ما
وهي تعلو مُشرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تتبعين ؟
فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء كي ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء على الجحيم ، فلا
تبق هذه ولا تلك ، ويظهر القصور ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير
خوف ، ويمدونه على هذا النحو : (بلا مطعم في جزاء أو خوف من عقاب)
— ذلك أنه لو لم يكن ثبت رجاء في الجنة وخوف من الجحيم ، أفك كانوا يعبدون
الحق ويطيمونه ؟ »^(٢) .

(١) المطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٩ و ٧٠ ، نشرة نيلكون .

(٢) الأفلاكى : « مناقب المارفين » ، خطوط باوريس ، قسم فارسى قديم ، رقم ١١٤ .

ففي هذه الحكاية — التي لا نعلم مبلغها من الصحة ، والتي فيها ما فيها من التزويق بحيث تذكرنا بقصة مصباح ذيوجانس ، أترأها صيفت على غرارها؟ — نقول إن في هذه الحكاية ما يدل على أن رابعة قد أرادت أن تخالص الناس نهائياً من فكرة الجنة والنار ، لأنها رأت فيها مصدراً لإفادة المعنى الحقيقي للعبادة . إذ العبادة الحقة هي تلك التي تقام لوجه الله غير طالبة جزاماً ولا شكوراً؛ هي تلك التي لا تكون على حرف ، ولا بسبب خوف ، ولا يدخل فيها أى معنى من معنى الترغيب أو الترهيب .

وهي في سبيل هذه الدعوة قد بدأت بنفسها ؛ فهى غير راغبة في الجنة ولا وجلة من النار . ذكر العطار أن رابعة كانت تقول : « إلهي ! إن كنت عبدتك خوف النار فأحرقنى بالنار ، أو طمماً في الجنة فخرّمها على ». وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك ». وقالت أيضاً وهى لميحة القلب : « إلهي ! ابن القيت بي يوم الحساب في النار لأذعت سراً يبعد النار عنى بألف سنة ». وكانت تقول : « إلهي ! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعنيه لأعدائك ، وكل ما قدرته لي في الجنة امنعه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك »^(١) . وكل هذه الأقوال تدللنا بوضوح على أن معنى الجنة والنار قدرق عند رابعة بحيث كاد أن يزول ، لأنه لا يتفق مع العبادة الصحيحة ؛ وقولها الثالث الأخير يدل على إمعانها في تجريد المعنى الحسى للأخريويات بالنسبة إلى نفسها .

ثم لما طهرت نفسها من هذا المعنى راحت تدعوا الناس إلى هذا التطهير ، بحيث تصبح العبادة لله وحده من غير طمع في شيء أو خوف من شيء . وهذه الحركة الرمزية التي تعبّر عنها القصة التي ذكرها الأفلاكي إنما قصد بها إلى إياض معنى دعوتها بطريقة عينية بارزة . إذ رأت أن الناس إنما يعبدون الله رجاء دخول الجنة

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٧٢ و ٧٣ .

أو مخافة النار ، فهل معنى هذا أنه إذا لم يكن ثمة جنة ولا نار لن يعبدوا الله ؟ هذا سؤال أفت به رابعة على جماعة من الصالحين ذكرها لها أنهم يعبدون الله خوف النار وطمئناً في الجنة . وهنالك سألواها : « وأنتِ ، لماذا تعبدين الله ؟ » — فأجبت : إنما أعبده لذاته . أفلَا يكفي نعمة منه أنه يأمرني بعبادته ؟ ^(١) إنها ترى إذن في مجرد أمر الله بعبادته نعمة سابقة كافية بحيث لا يرجو المرء بعدها أمراً .

على أن المقصود الأبعد في ذهن رابعة هو أن تسمى الحياة الدينية في الإسلام بأن تزيل مافي القرآن من معان حسية وتحيلها إلى معان روحية خالصة ، فلها الفضل الأكبر في بدء هذه الحركة التي ستبلغ أوجها عند أبي يزيد البسطامي ^(٢) . ومن هنا يظهر دورها البارز في الحياة الروحية في الإسلام ^{عامة} .

— ١٣ —

وقد نسب المؤرخون إلى رابعة جملة من الكرامات . وقد رأينا كيف حاول المطار منذ البداية أن يحيط رابعة بالكرامات منذ ميلادها ؛ وهو كذلك قد حرص على أن يملأ ترجمته الخيالية لرابعة بألوان من الكرامات لاحصر لها فهارها ينفق في الصحراء وهي سبيل الحج ، فتدعوا الله ، فينهض الحمار مليئاً بالحياة . وهي تعلم الغيب كما يظهر من القصة التي رواها عن أرغفة الخبز التي أرسلت بها إليها سيدة مع خادمتها . واللصوص لا يستطيعون السرقة منها ، وكان الله يحرس كل مالها ، وإن لها معهم لقصاصاً عديدة ، ذكر بعضها المطار ، وذكر غيرها آخرون مثل تلك التي وردت في المخطوط رقم ١٢٤٢ (عربي الفتى كان) ورقة ٨٣ من أن لصاً دخل بيتها فلم يجد غير إبريق فلما هم بالخروج قالت له

(١) المطار : « تذكرة الأولياء » ، ص ٦٩ .

(٢) راجع بعثنا بنوان : « شطحات الصوفية » فيه تفصيل القول في مذهب أبي يزيد البسطامي في هذه الناحية : ١٢ ص ٢٥ — ٢٤ ص . القاهرة سنة ١٩٤٩ .

رابعة : ياهذا ! إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شئ . فقال : إن لم أجد شيئاً . قالت : يامسكنين ! توضاً بهذا الإيريق وادخل في هذا الخدع ، وصل ركعتين ، فإنك ماتخرج إلا بشئ . فعمل ما أمرته . فلما قام يصلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدى ومولاي ! هذا قد أتى بابي ولم يجد شيئاً عندى ؟ وقد أوقته بيابك ، فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

« فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فابرح يصلى إلى آخر الليل . فلما كان وقت السحر ، دخلت إليه رابعة فوجده ساجداً وهو يقول في سجوده معانباً نفسه - شرعاً - :

إذا ما قال لي ربِّي : أما استحييت تعصيني ؟

وتحقق الذنب من خلقى وبالصبيان تأني ؟

فأقول له لما يعذبني ويُقصيني ؟ !

« قالت له : حبيبي ! كيف كانت لياتك ؟ فقال : بخير ! وفدت بين يدي مولاي بذلٍ وافتقارٍ ، فقبل عذرٍ وجَّبَ كسرى ، وغفرلِي الذوب ، وبَلْغَنِي المطلوب .

« ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كفها إلى السماء ، وقالت : سيدى ومولاي ! هذا وقف بيابك ساعة قبلتني ؟ وأنا مذ عرفتك بين يديك . أترأك قبلتني ؟ فنوديت في مرّها : يارابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قرّ بناء^(١) .

وفي هذه الحكاية نرى الأسطورة الشعبية تصوّر رابعة صاحبة كرامات مع اللصوص بمحبت تهديهم إلى الإيمان ، كما تصور درجتها عند الله في الشفاعة والقرب . وهي من نوع ما زرناه كثيراً في ترجمات الأولياء والقديسين الخبالية ، كما هي الحال عند القديس فرنشكوك الأستيري مثلًا .

(١) مجموعة رسائل وتطبيقات وتقديرات برقم ١٢٤٢ فانيكان عربى ورقة ١٨٣ .

وإن الشبه لقريب كل القرب في هذا الباب بين القديس فرنسيسكو الأسيزي وبين صاحبتنا رابعة . فالحيوان والطير يألفها ، بمحبت كانت الفزلان — وهي النفور من الإنسان — تقبل عليها وتحلق حولها وتتمسح فيها . والعطار يروى لنا هذه القصة ، وهي أن « رابعة صعدت جيلاً ، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان ، وبقيت حواليها آمنة كل الأمان . وبخاتمة أقبل الحسن البصري فمررت الفزلان ، فقال لها : يارابعة ! لماذا فررت كل الفزلان مني ولم تفرّ منك أنتِ ؟ فسألته : ماذَا أَكَلَتِ الْيَوْمَ يَا حَسَنَ ؟ فَأَجَابَ : أَكَلَتْ طَعَامًا طَهِيَ بِالْزَيْتِ . (١) فقالت له رابعة : يا من تأكل من دهنها ، كيف لا ت يريد منها أن تفرّ منك ؟ » ومنها ترى السبب في تألف الحيوان لرابعة وهو أنها كانت لأنها كل من لمه أو ما يخرج منه . ولو لا أن هذه القصة أسطورة كلاماً ، لاستخلصنا منها ما يتصل بحياة رابعة من الرزء بمحبت حرمت على نفسها أكل الحيوان وما يخرج منه . وعلى كل حال ، فالمهم في هذا أن العطار لم يذكر صلاتها بالحيوان دون أن يبرر عقلياً السر في هذه الألفة فيما بينها وبينه ، والتفسير لا يخلو من البراعة ولا نجد مثله في ترجمات القديس فرنسيسكو الأسيزي .

وأكثُر الكرامات التي يرويها العطار لرابعة قد جرت مع الحسن البصري ، مما يؤكد جانب الخيال والاحتراض إلى أبعد حد فيها . فهو يذكر كذلك أن الحسن وبعض أصحابه ذهبوا إلى رابعة وكان الوقت ليلاً فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا ؛ فوضمت رابعة طرف أصابعها في فمه ثم أخرجتها فظلاً يشع منها حتى مطلع الفجر نورٌ كأنه نور مصباح . والعطار يفسر هذا أيضاً فيقول : « إن سأّل أحد كيف حدثت هذه الكرامة ، فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى . فإن قيل لك إن موسى عليه السلام كاننبياً وأن رابعة لم تكننبية ، فاجبه قائلاً :

(١) « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، من ٦٥ ، نشرة نيكلسون .

إن من ينفذ الأوامر التي أتى بها الأنبياء يشارك في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛ وكما أن للأنبياء معجزات ، فإن للأولياء كرامات ^(١) . وهو يذكر قصة أخرى مع الحسن وهي أنه ذهب إليها وكانت قد وضعت قدرًا فيه لحم ، فلما بدأ الحديث عن معرفة الله ، رأت أن هذا الحديث أفضل من الطهي ، فتركت القدر دون أن تفتح تحته النار . فلما فرغ من صلاة العشاء « أفرغت ما في القدر فوجد أن اللحم الذي كان فيه قد طهى بقدرة الله . فاكثنا (الحسن وهي) من هذا الطعام ، وكان له طعم لم تذوق مثله قط من قبل » ^(٢) . نعم ها يقومان بالمعجزات أو الكرامات معًا : فهو يلاقى على الماء سجادة و يصلى عليها ، وهى تلاقى سجادتها فى الماء و تصعد عليها . على أن القصة تنتهى بعبرة عالية ؛ فالحسن لا يستطيع أن ينافسها في هذه الكراهة لأنها لا يستطيع الطيران فى الماء ، فابتأس ، فعزّته رابعة فانهت : « ما فعلته لا يستطيع السمك أن يفعله ، وما فعلت أنا لا يستطيع النباب أن يفعله . وإنما المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناها » ^(٣) . وفي هذا القول إشارة إلى أن المهم عند الصوفى ليس هو الإتيان بالكرامات ، بل الترقى في مراح الحياة الروحية ؛ وقيمة الصوفى ليست في عدد كراماته و نوعها ، بل في السلوك إلى الله بحيث يرضى عنه ويحظى بالقبول منه .

وكل هذه الكرامات هي من الأنواع الشهورة المألوفة في الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين ، والعملية التي أتبجحتها عملية واحدة .

ولم نستعها هاهنا إيماناً منها بأن هذه الكرامات قد وقعت ، ففيها ثيارات هيبات أن يخطر هذا ببالنا ! إذ نحن نذكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها . إنما هي تقدم لنا الأسطورة الشعبية التي حيكت حول الشخصية التي تنسب إليها

(١) فريد الدين المطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٥ ، نشرة نيلكسون :

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٧٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦٥ .

هذه الكرامات أو تلك الخوارق . وقيمتها إذن ليست في صدقها من حيث الواقع والتاريخ ، فإنها جميعاً خلوا من هذا الصدق ، وإنما في بيان تطور الصورة التي يتصورها الفضيير الشعبي أو الأسطوري لأولئك النفر من الناس .

ونحن نرى فيها يتصل برأمة أن هذه الأسطورة لم تنشأ إبان حياتها ، وإنما نشأت متأخرة بعد هذا بقرنين على أقل تقدير . ونشأت أول مانشات مرتبطة بأسطورة الحسن البصري التي كانت قد بدأت تتكون قبل ذلك بهد غير طويل . واشتبت الأسطورتان مما في أمثال هذه الحكايات التي أورد أغلبها فريد الدين العطار وهو أكثر المؤرخين الصوفية حرّاً على تصيد النوادر والخوارق والفرائض . ولا نحسبنا مبالغين إذا قلنا إنه كان للعطار نفسه نصيب ما في تكوين هذه الأسطورة باختراع البعض من هذه الحكايات المتصلة بالكرامات ، أو في القليل مما زيف البعض مما كان متناقلًا بين الناس ، ووثقى من الأحاديث ما شاء له خياله البعيد الفور . والذى يحملنا على عدم تحميمه نصياً أكبر في الاختراع أن الخطوطات العربية تكشف لنا شيئاً فشيئاً عن الأصول العربية للكثير مما يأنى به من حكايات كانوا لا نجد لها في غيره من المصادر العربية فيخوب إلينا أنه الذي ابتدعها . لهذا يجب أن نحكم عليه في هذا الباب إلا بكثير من الحيطة والأنفة .

وهذه الأسطورة لازالت ترن أصواتها في الخيال الشعبي بكل قوتها ، وذلك في العبادة التي تقام حول قبرها . وهذا يقودنا إلى الحديث عن قبرها ، هذا المختلف في مظنة وجوده أشد الاختلاف .

فقوم قالوا إن قبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا ، وهو قرية

الطور إلى شرق القدس . فأبوبن محمود بن إبراهيم بن سرور المقدسي (المتوفى سنة ٧٦٥ هـ) يقول في كتابه « مثير الغرام » : « قِدَمْتُ (أي رابعة) بيت المقدس وما به ؛ وقبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا . وهو ظاهر يزار . وكانت وفاة رابعة سنة خمس وثلاثين ومائة » ^(١) . وعنده أخذ شمس الدين السيوطي (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ) في كتابه : « إتحاف الأخصاف فضائل المسجد الأقصى » ^(٢) . ويزيدنا مجير الدين الحنبلي تعصيلاً فيقول في كتابه : « الأنس الجليل » ^(٣) وهو يذكر الأعيان والزهاد الذين دخلوا بيت المقدس ، وهو قد ألف كتابه سنة ٩٠١ هـ واعتمد فيه على « مثير الغرام » : « إن قبر رابعة بنت إسماعيل أم الخير العدوية البصرية على رأس جبل طور زيتاً شرق بيت المقدس بجوار مسجد عيسى عليه السلام ، من جهة القبلة ؛ وهو في زاوية ينزل إليها من درج . وهو مكان مأнос يقصد للزيارة » .

كذلك نرى ابن خلkan في « وفيات الأعيان » يقول : « وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقه على رأس جبل يسمى الطور » ^(٤) وفي إثره ابن شاكر الكتبني يقول : « وكانت وفاتها على قول ابن الجوزي في هذه السنة (أي سنة ١٣٥ هـ) . وقال غيره سنة خمسة وثمانين (أي ومائة) . وهي مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار ؛ رضى الله عنها » ^(٥) .

وفريق ثان ترجح بين التأييد والإنكار فيما يتصل بكل من هذا قبر رابعة

(١) إبراهيم بن سرور المقدسي : « مثير الغرام » ، من ٤٩ . طبع القدس سنة ١٩٤٦ .

(٢) مخطوط في المكتبة الخالدية بالقدس . وقد تحصل الأستاذ أحمد سامي الخالدي بهذه البيانات فله متأخر الشكر .

(٣) ج ١ ، ص ٢٨٥٠ .

(٤) ج ١ ، ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م .

(٥) صالح الدين محمد بن شاكر الكتبني : « عيون التواريخ » ، ورقة ٧ ب - ١٨ . مخطوط رقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق - أخبار سنة ١٣٥ هـ .

العدوية صاحبنا . ومنه ابن العماد في « شذرات الذهب » ، إذ قال : « وقبها (أى رابعة) على رأس جبل يسمى الطاور بظاهر بيت القدس . وقيل ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية »^(١) . وكذلك عبد الرؤوف المناوى قال في ترجمته لرابعة بنت اسحاقيل العدوية زوج أحمد بن أبي الحوارى : « ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتها بيت القدس . وقيل المدفونة هناك إنما هي الأولى (أى رابعة العدوية البصرية) »^(٢) . ومن الواضح أن المناوى نقل هذا الخبر عن مؤرخ تحدث عن رابعة العدوية البصرية ، ونسبة إلى رابعة الشامية ، والدليل هو أنه جمل وفاة رابعة الشامية سنة خمس وثلاثين ومائة مع أنه يقول إنها زوج أحمد بن أبي الحوارى ، وهذا توفي سنة ٢٣٠ هـ فكيف تكون زوجه إذن إذا كانت ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة !! فالخلط إذن في رواية المناوى هنا ظاهر فاضح . وفريق ثالث أنكر أن يكون ذلك قبر رابعة العدوية . فابن بطوطة في رحلته يقول عن القدس ومزاراته : « ومنها قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البدية ، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة »^(٣) . وكذلك المروي في كتاب « الزيارات »^(٤) قال عن هذا القبر الموجود بظاهر بيت المقدس إن القبر لرابعة البدوية ، وهي امرأة أحمد بن أبي الحوارى .

وإذا أخذنا الصمت حجة وجدنا الواسطى الذى ألف كتابه « فضائل البيت المقدس » سنة ٤١٠ هـ لا يذكر أن قبر رابعة بطور زيتها .

على أن الذى فصل في المسألة بصورة فاطحة هو ياقوت في « معجم البلدان » تحت لفظ « القدس » فقال ، وهو يتحدث عن ابن طاهر بن على بن أحمد الحافظ المعروف بابن القيسارى : « ومات ابن طاهر ودفن عند القبر الذى على جبلها

(١) ج ١ ، من ١٩٣ ، القاهرة سنة ١٢٥٠ هـ = سنة ١٩٣١ م .

(٢) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهيرية بدمشق ، ورقة ١٠٦ ب - ١١٠٧ .

(٣) ج ١ ، من ١٢٤ ، س ٣ . (٤) من ٤٠٠ .

(جبل القدس) ، يقال له قبر رابعة المدوية ، وليس هو قبرها ، إنما قبرها بالبصرة . وأما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الحوارى السكاكى ، وقد اشتبه على الناس ^(١) . وهذا أوضح بيان لهذه المشكلة ، وفيه القول الفصل . ذلك أننا لا نعلم أن رابعة المدوية قد رحلت إلى الشام حتى تموت هناك .

فكيف يوجد قبرها إذن في ظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا !
وإذن فالقبر الموجود بظاهر القدس على رأس طور زيتا إنما هو قبر رابعة الشامية سميّتها المشهورة ، أى رابعة زوج أحمد بن أبي الحوارى كما بذنا من قبل . واحتلّت الأرض على الناس هذه المرة كما اختعلّط عليهم في أكثر لواضعيّة بين هاتين الصوفيتين . وشهرة رابعة العدوية البصرية قد أذنت الناس رابعة الشامية فتسبوا القبر الخالص بهذه إلى الأولى .

على أن نمت مسألة أخرى هي مسألة قبر ينبع إلى رابعة العدوية في دمشق . وقد زرته في ١٢/١٩٤٧ فوجده بداخل بيت تختله الآن شعبة الإخوان المسلمين في منطقته . وقد كشفنا عن القبر فلم نجد عليه شاهداً ما . ويسكن إلى جواره شيخ جاوز الثمانين هو الشيخ عبد القادر القضماني وقد سأله عما يعرف من أحوال هذا القبر فأجاب بأنه يقيم إلى جواره منذ أكثر من خمسين سنة ، وأنه قاوم كل إغراء له بمغادرة هذا المكان لكنى الجديده ، حتى المهاجرين ، لأنّه عرف من كرامات صاحبة القبر ما جعله يتبرّك به . وهو يؤكّد («رأينا هذا بأعيننا ، ولمسناه بأيدينا») — مكذا بدأ حديثه بلهجـة ملؤها الإيمان والسداجة) أنّ هذا القبر فوائد مجردة : من ينها أنه لم تحدث قط سرقة في هذا الشارع ، طوال الخمسين سنة التي أقام فيها إلى جوار هذا القبر ؟ وأنّه لم يصب منه بيت بالتنازل التي انهالت على هذا الحي من دمشق إبان ثورة سنة ١٩٢٥

(١) ياقوت «معجم البلدان» ، تحت لفظ «المقدس» ، ج ٤ ، من ٦٠١ ، لشارة فشتليله .

على الرغم من أن بيوت الشوارع المجاورة قد أصيّبت كلها من قنابل الفرنسيين هذه ؟ وأن الذي يزور القبر ليلاً السبت مرتين متاليتين تقضى الحاجة التي من أجلها قام بهذه الزيارة . ولا يزال كثير من النساء والشيوخ يمرون بالقبر فيتبشون قليلاً وينظرون من نافذته ذات القضبان المربعة ، يقرأون الفاتحة على روح صاحبته ويطلبون البركة . وبالمجملة ، فهو لا يزال عامراً بالحجاجين إليه للتبرك ؛ ولا تزال ذكرى رابعة العدوية حية في ثفوس أهل دمشق والشام عامة .

والقبر عبارة عن مستطيل من البناء المصنوع من الحجر يبلغ طوله قرابة مترين في عرض نيف ومتراً ويقع على أرض تعلو بعض العلو عن أرض الغرفة الواسعة التي تحتلها الشعبة ؛ وهو في غرفة خاصة على يمين الداخل . ومن فوق القبر قبو خشبي نصفه السفل مستطيل ونصفه العلوي هرمي ، وقد كسى بالحمل . والدار الموجود بها الشعبة والقبر يلوح أنها ليست قديمة ، إذ هي مكونة من بعض الأحجار القديمة في أصلها السفلي ، وفوق الباب كتابة تشير إلى منشئ الدار ، ولكن دون ذكر التاريخ .

ترى من يكون هذا القبر ؟ ولماذا نسب إلى رابعة العدوية ؟ مسألة لا يمكن القطع فيها ؛ وكل ما يمكن افتراضه هو أن يكون قد عمل رابعة الشامية — وأصلها من دمشق — قبر في هذا المكان ؛ وعلى توالي الزمان نسي اسمها الحقيقي ، واستبدل به اسم رابعة المشمورة ، رابعة العدوية كما حدث بالنسبة إلى القبر الموجود بطور زيتا بظاهر القدس . أما كيف نفسر وجود هذين القبرين لشخص واحد ، فيمكن أن يقال إن رابعة الشامية قد توفيت بالقدس فدفنت هناك ؛ ولكن لما كان بليها الأصلى الذى حيث فيه طوال عمرها هو دمشق ، فقد أقيم لها قبر رمزي في دمشق كذلك ، لعله هو الوجود اليوم . على أن هذا فرض خسب ، وإن كان ثبت شواهد على وجود قبرين وأكثر اشخاص

واحد . ففي دمياط قبر لشيخ يدعى إبراهيم الشر باصي ، وفي بلدنا ، شرباص ، (على نهر النيل على مسافة ١٧ كيلومتراً جنوب دمياط) قبر للشيخ نفسه ؛ وأهل بلدنا يعتقدون أن القبر الحقيقي هو الموجود في شرباص ، أما القبر الموجود في دمياط فلا يحوي غير يده التي قطعت وهو يحارب الصليبيين في حملة لويس التاسع . وإذاً ظاهرة وجود قبرين في مكانين مختلفين لشخص واحد من الظواهر المشاهدة كثيراً بالنسبة إلى الأولياء المسلمين .

وهناك خبر أورده المطار لو كان قد دقق فيه لكنانا مؤونة الكثير من هذا البحث . ذلك أنه يقول ابن محمد بن أسلم الطوسي ونعمي الطرطوسى زارا قبر رابعة فقالا : « يا رابعة ! لقد افخترت بأنك لم تخنى رأسك للدنيا ولا للآخرة ، فأين أنت الآن ؟ » فصاح صوت من قبرها يقول : « طوبى لي ! ما فعلته هو ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى »^(١) . ومحمد ابن أسلم الطوسي ، الصوفى المشهور ، والمحدث الذى روى أحاديثه أبو نعيم فى « الحلية »^(٢) ، قد توفي سنة ست وعشرين ومائتين . وليس لدينا وبالأسف من التفاصيل عن حياته ما يسمح بمعرفة رحلاته ، على أن زيارته للبصرة أرجح من زيارته للقدس لقرب الأولى وبعد الثانية . وعلى كل حال فالخبر ليس بذى قيمة كبيرة ، لأنه يقوم على أخبار بعيدة عن المقول وذلك في ذكره أن صوتاً صاح من القبر رد عليهما ! !

والخلاصة أن رابعة قد توفيت في البصرة ، وأنه لا بد أن يكون لها قبر هناك هو الذى زاره أو يمكن أن يزوره محمد بن أسلم الطوسي ونعمي الطرطوسى — إن صح الخبر الذى أورده المطار في جملته ، لا في تفصيلهطبعاً ! — وامل القبر تهدّم في

(١) المطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٧٣ ، نشرة نيكاسون .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ، ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٥٣ ، طبع مصر سنة ١٩٣٨ وراجع عنه أيضاً « طبقات الشهراوي » ، ج ١ ، ص ٨٣ .

أحد التخرييات التي أصابت البصرة فدمرتها عن آخرها أو كادت.

— ١٥ —

بقي علينا أن نعرض لمسألة تاريخ وفاة رابعة. وهنا نرى الأمر يختلط
مرة أخرى.

فهناك روایة يلوح أن ابن الجوزي صاحبها تقول إن وفاتها كانت في سنة
خمس وثلاثين ومائة (= ٧٥٢م). فقد ذكر ابن خلkan^(١) أن ابن الجوزي ذكر
هذا التاريخ في كتابه «شذور العقود». على أن ابن الجوزي في «صفة الصفوقة»
لم يذكر لها تاريخ وفاة. ومن ذكر هذا التاريخ ابن نفرى بردى في «النجوم
الظاهرة»^(٢)، والمرتضى الزيدى في «اتحاف السادة»^(٣)، وأبن شاكر الكتبى
في «عيون التوارىخ»^(٤)، وأبن العادى في «الشذرات»^(٥).

ورواية ثانية تقول ابن تارىخ وفاتها سنة مئانين ومائة ، وصاحبها الذهبي .
قال ابن نفرى بردى في كلامه عن سنة مئانين ومائة : «الذين ذكر الذهى وفاتهم
في هذه السنة : قال : وفيها توفى ... ورابعة المدوية . قلت : وقد تقدمت وفاتها
في قول غير الذهبي»^(٦). ومن الذين تابعوا الذهبي على هذا التاريخ عبد الرزوف
المناوى في «طبقات الصوفية»^(٧) فقال : «ماتت سنة مئانين ومائة ؛ وقيل
غير ذلك » .

(١) ابن خلكان : «وفيات الأعيان» ج ١ ، ص ٢٥٦ الفاشرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥٠ .

(٣) المرتضى الزيدى : «اتحاف السادة» ، ج ٩ ، ص ٥٧٦ و ٦٨١ .

(٤) ج ٣ ورقة ٧ ب عن سنة ١٣٥٠ ، وينظر أن هذا قول ابن الجوزى ، مخطوط الظاهرية
برقم ٤٤ تاريخ .

(٥) ابن العادى : «شذرات الذهب» ، ج ١ ص ١٩٣ عن سنة ١٣٥٠ .

(٦) ابن نفرى بردى : «الجعوم الظاهرة» ، نشرة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩
ج ٢ ص ١٠٠ س ٢٣ — ٢٤ .

(٧) مخطوط الظاهرية برقم ٤١٦٤ ورقة ١١٦ .

ورواية ثالثة تقول إنها توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ؟ ذكر ذلك ابن خلkan^(١) وابن شاكر الكتبى^(٢).

فأى هذه الروايات الثلاث نختار ؟

يرى الأستاذ ماسينيون أن الرواية الثالثة هي أصح الروايات (وكذلك يمكن الأخذ بالثانية)، وأن جمل تاريخ وفاتها سنة ١٣٥ إما قصد به إلى جعلها تلميذة الحسن البصري (ولد سنة ٢١ هـ = ٦٤٢ م، وتوفى في غرة رجب سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م). ونصيف إلى هذا أنه قد قصد بذلك هذا التاريخ المتقدم تبرير الحكایات التي رویت يدهما: فكيف كان يمكن التقاوئها لو كانت رابعة توفيت سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ بينما هو توفي سنة ١١٠ هـ ؟ خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الروايات تتحدث عن مكانة رابمة ورسوخ قدمها في الطريق إلى درجة أعلى من الحسن ، كما شاهدنا في روايات المطار .

والأستاذ ماسينيون يرهن على اختياره لتاريخ سنة ١٨٥ بدلاً من ١٣٥ بالبراهين التالية: أولاً صداقتها المشهورة لأبي المهاجر رياح بن عمرو القبسي ، وهو قد توفي حوالي سنة ١٨٠ ، بل حوالي ١٩٥ هـ (٣) (سنة ٨١٠ م)؛ فلو كانت رابمة توفيت سنة ١٣٥ هـ لما صاح اجتماعها برياح بن عمرو القبسي . وثانياً إلتقاؤها بسفيان الثوري الذي آتى البصرة بعد سنة ١٥٥ هـ . وثالثاً حكاية خطبة الوالى المبassi للبصرة ، محمد بن سليمان الماشي ، لها ، وهو قد كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ

(١) ابن خلkan : « وفيات الأعيان » ج ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٢٥ .

(٢) ١ ، ص ٣٢٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ

(٣) ذكر ماسينيون التاريخ الثالث: حوالي ١٨٠ هـ في « بحث في أصول المصطلح » [من ١٩٣ تعليق ٣ ، ص ١٩٥] ولكنه عدل عنه في كتابه « مجموعة نصوص غير منشورة » [باريس سنة ١٩٢٩ ، ص ٦] فذكر التاريخ الآخر وهو: حوالي سنة ١٩٥ .

وتوفى سنة ١٧٢ هـ^(١) ونضيف نحن إلى هذا أيضاً صلتها الوثيقة بعد الواحد بن زيد
التوفى سنة ١٧٧ هـ (= م ٧٩٣) .

وهذه الحجج حجج حاسمة ، ولا شك في أن التاريخ : ١٣٥ هـ إنما قصد به
إلى تكفين لقائهما بالحسن البصري حتى يتم الإسناد وتصح الروايات التي تتحدث
عن اجتماعاتهما . لكن موضع الصعوبة بعده في الاختيار بين سنة ١٨٠ وسنة ١٨٥
لأن هذه الحجج إنما تتعلق باستبعاد سنة ١٣٥ هـ . بيد أننا لا نستطيع ، بحسب
مالدينا من وثائق حتى الآن ، أن نفصل بين هذين التاريفين .
وإذن فرابعة توفيت إما سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ (= سنة ٨٠١ م) .

(١) راجع ماسينيون : « بحث في أصول المصطلح الفي للتصوف الإسلامي » ، ص ١٩٣
تعليق ٠ ؛ باريس سنة ١٩٢٢ .

أخبار رابعة

نوصوص منشورة وغير منشورة

تصريـس

هانحن أولاء نورد فيها بلي طائفة من الأخبار والأقوال التي خلقتها لنا المؤرخون والكتاب عن رابعة العدوية ، سمعنا من ورائها إلى أن نضع بين أيدي الناس الآثار الباشية من هذه الصوفية ، لتكون بثابة شواهد للتحليل الذي قمنا به ، ومواد لذيرنا من ي يريدون استئناف البحث في حياتها ونظرتها الروحية ، فنوفّر عليهم مزرونة مجهودات شامة بذلكها في التقبّب عن مختلفاتها النادرة ، وعسى أن تكون في هذا أسوة للعاملين في ميدان الفكر العربي والإسلامي ، فيضم كل باحث ما عثر عليه من آثار نادرة عن الشخصية أو المذهب الذي هو بقصد البحث فيه ، ولعل لهذا في بعض الأحيان من العائدية ما يفوق عمل التحليل نفسه .

ولسنا نزعم في شيء ، أننا أتينا على كل ما بقي لدينا حتى اليوم من آثار رابعة . ففيها ! ففيها ! فالنصوص غير المنشورة لا تزال تهدنا بالكثير الذي قد يفوق كل ما حصلناه حتى اليوم بعديد المرات . والنصوص المنشورة لم نورد منها إلا كل ما وقع بين أيدينا ، برغم كل ما بذلناه من جهود في هذا السبيل . وقد أغفلنا منها تلك التي لا تورد أشياء جديدة ، بل أخباراً تکاد تتكرر بعينها في أكثر من نص مما أوردناه ، مثل ابن خلkan (١ ، طبع القاهرة سنة ١٢٧٥ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧) و « طبقات » الشمراني (١ ، ص ٨٦ ، القاهرة سنة ١٢٩٩) و محمد بن علي الأسنوی (المتوفى سنة ٥٧٦٥ = ١٣٦٣ م) مؤلف « حياة القلوب » (بهامش « قوت القلوب » ، لأبي طالب اللكي ، القاهرة سنة ١٣١٠) ومثل كتب التاريخ العامة . كذلك لم نورد ما ورد أكثر تفصيلاً ودقة في المصادر الأخرى التي نقلت عنها هذه الأخبار المتأخرة .

— ١ —

الباحث (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = سنة ٨٦٩ م) ، «البيان والتبيين» :

(١) ح ٣ ، ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ :

«الثوري عن حبيب بن أبي ثابت .. قال : وقيل لرابعة القيسية : هل علت عملاً قطْ ترين أنه يقبل منك؟ قالت : إنَّ كَانَ شَيْءٌ ، نَخُوفُ مِنْ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ»

(ب) ح ٣٢ ، ص ١٢٢ ، نشرة السنديني : في باب «نساك البصرة وزهادها» :

«عاصِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ ، وَبُجَاهَةُ بْنُ عَبْدَةِ الْعَنْبَرِيَّانِ ؛ وَعَمَّانُ بْنُ أَدْهَمٍ ؛ وَالْأَسْوَدُ بْنُ كَلْثُومٍ ؛ وَصَلَّةُ بْنُ أَشْيَمٍ ؛ وَمَذْعُورُ بْنُ الطَّفْلِيِّ ؛ وَمِنْ بَنِي مَنْقُرٍ : جَعْفَرُ وَحَرْبُ ابْنَاهَا جِرْفَاسٌ . كَانَ الْحَسْنُ يَقُولُ : إِنِّي لَا أَرَى كَالْجَعْفَرَيْنَ جَعْفَرَا ، يَعْنِي جَعْفَرَ بْنَ جَرْفَاسَ وَجَعْفَرَ بْنَ زَيْدَ الصَّدِىقِ».

ومن النساء : معاذة المدوية ، امرأة صلة بن أشيم ؛ ورابعة القيسية »

(ح) الباحث : الحيوان ، ح ١ ص ٧٨ ، طبع مصر سنة ١٩٠٧ :

«إِنَّ تَهْيَأَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ هَذَا التَّعْشِيقِ أَنْ تَدْمِعَ عَيْنَهُ ، احْتَاجَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا وَرَعِيْ أُمُّ الدَّرَدَاءِ ، وَمَعَاذَةَ الْمَدُوِّيَّةِ ، وَرَابِعَةَ الْقَيْسِيَّةِ ، وَالشَّجَاعَةِ الْخَارِجِيَّةِ» .

— ٢ —

السراج (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ = سنة ٩٨٨ م) ، «اللمع» ، نشرة

نيكلسون ، ص ٣٢٢ :

ذكرها في «باب في الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء» ، حيث أوردتها من بين جملة أشخاص منهم محمد بن واسع وعبد الواحد بن زيد وأيوب السختياني .

— ٣ —

الكلبادى (المتوفى سنة ٩٩٠ هـ = ٢٨٠ م) : «التعرف لمذهب أهل التصوف» ، نشرة آربرى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ :

(١) « قوله في الرضا» ، ص ٧٣ :

«... قال سفيان (الثورى) عند رابعة : اللهم ارض عَنِّي ! فقالت له : أما تستحي أن تطلب رضامن لست عنه براضٍ ؟!»

(ب) «لطائف الحق بهم في غيرته عليهم» ، ص ١٢١ :

«دخل جماعة على رابعة يمودونها من شكوى ، فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله ما أعرف لعلني سبيا : عُرِضْتُ على الجنة فلَمْ يقبلني إليها ؛ فأحسب أن مولاي غار علىَّ ، فعاتبني ، فله العُتبَى^(١)». .

— ٤ —

المجويرى : «كشف المحبوب» ، (ترجمة نيكلاسون الإنجليزية ، ليدن سنة ١٩١١ ، ص ٣٥٨) : «ولقد قرأت أن رجلا من أهل الدنيا قال لرابعة : سلينى حاجتك . فقالت : إنى لأستحي أن أسألك من يملكون ، فكيف أسألك من لا يملكون !؟»^(٢)

— ٥ —

أبو سعيد بن أبي الخير في «أسرار التوحيد» للمنور (المتوفى منه ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م) ، بطرد غراد سنة ١٨٩٩ ، ص ٣٤٥ : قال أبو سعيد بن أبي الخير

(١) التي = الرضا .

(٢) راجع هذا القول في «إعحاف السادة للزميدى» ، م ٥٢٦ ، ص ٥٢٦ ، كما سيرد بعد ص ١١٨ ، ثم ص ١٢٥ ..

إنه سمع من أبي على الفقيه أن رابعة سئلت : كيف بلغت هذه المرتبة العالية في الحياة الروحية ، فأجبت : بقولي دائمًا : اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلي عنك ومن كل حائل يحول بيني وبينك .

- ٦ -

ماسينيون : مجموع نصوص لم تنشر خاصة بالتصوف الإسلامي :

(١ - ٦) (١٩٥/٨١٥) رباح القيسى (١٨٥/٨٠١) رابعة vers

Chez ces deux ascètes, tous deux de l'école de Basra, l'essor de la vie ascétique mène à des états mystiques déjà différenciés, pose des problèmes de casuistique et de dogme délicats. رابعة est la sainte par excellence de l'hagiographie sunnite.

: (متقارب) : (trad. E, 194) = (II, 57) « قوت القلوب » لأبي طالب المكي .

[عن رابعة]

أحبك حبين : حبَّ الموى	وحبَّ لأنك أهلٌ لذاكا
فاما الذي هو حب الموى	مشغل بذكرك عنْ سواكَا
واما الذي أنت أهلُ له	فكشكِّل لاحْجَب حتى أرَاكَا
فلا الحد في ذا، ولا ذاك لي	ولكن لك الحد في ذا وذاكا

= (رابعة. ms. Damas Zah. tas. 115, s.v. « الخالية » : أبو نعيم)

(trad. E, 196):

[قبل رباح] : هل طالت بك الليالي والأيام — بـم ؟ — بالسوق إلى لقاء الله . فسكت ... [قالت رابعة] لكنني : نعم !

... قال أبو عمر عبد الله بن عمرو ، قال : نظرت رابعة إلى رباح وهو يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه ، فقال : أتحبه ؟ قال : نعم ! قالت : ما كفت .

أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمبة غيره تبارك اسمه قال : فصرخ رباح وسقط
محشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول : رحمة منه تعالى
ذكره ألقاها في قلوب العباد للأطفال . —

3. (id)=(trad. E, 195, n. 3):

قال [رباح] : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين
حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي إلى مزابل الكلاب .
(p. 750) = (trad. p. 164 f. «التبيه» وملطي ap. خشيش النساي) 4.
ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يتغلب على قلوبهم وأهواهم
وابرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا
عنه بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة من الله ، فعمل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر
والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ولكن
على وجه الخلة ، كما يحصل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه ، منهم رباح
وكليب كانوا يقولان بهذه (f. 165) المقالة ويدعون (ف نص ماسينيون :
يدعون) إليها . . .

5. (trad. E 196) f. «التبيه»: ملطي ap. «الاستقامة» ، خشيش) .
ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال القلوب وتنظيم للدنيا ، ومحبة لها ،
لما عظمت عندهم تركوا طعامها ولذذ شرابها ولبن لباسها وطيب رائحتها ،
فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ، وكان من إهاتها مواثنة الشهوات عند اعتراضها
حتى لا يشغلن القلب بذكرها ويضط عنده ما ترك منها < كانا يقولان بهذه المقالة
> . . .

6. (b ms. Barlin, f. 37) ، شكوى ، عين القضاة المعناني)

(رابعة) . . . وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علو شأنه ، فهجرته أيامًا

حتى شفعت له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهوانی ! اطلب
شهوانيةً مثلك ! »

(٥٥ ، جلاء ، الوسي ap الشذرات ، ابن الماد) (p. 8) .

(عن رابعة) « وعزتك ما عبدتك رغبةً في جنتك ، بل لحبتك ، وليس
هذا (أى الجنة) ما قطعت عرفي في السلوك إليه » .

8. (trad. p. 276) : ٦٥، ٩١ f. الردعلى الحريرية ، ابن تيمية) :

قال (على الحريري) : قيل عن رابعة إنها حَبَّتْ فقالت : هذا [أى البيت]
الضمُّ المعْبودُ في الأرض ، وإنَّه ما وَلَجَهَ اللَّهُ ولا خلا منه » ^(١) .

9. (مناقب العارفين : وأفلاكی) ms. Paris af. parsum ١١٤، f. ٤١١ a)

= (Huart, Saints ٣١٠) .

روزی جماعی صاحب دلان دیدند که رابعه بستی آتش کرفه بود ،
وبستی آب ، وباستعمال می دوید ، سوال کردند که أى بانوی آخرت بجا می
روی ، ودر چیستی ، کفت می روم آتش در بهشت زنم وآب در دوزخ ریزم ،
تا این هر دو حجاب ره روان از میانه بر خیزند ، ومقصد مُمِّن شود ، وبنده کان
خدادارابی غرض رجا وعلت خوف خدمت کند ، چه اکد رجای جنت
وخوف جحیم نبودی ، یک حق را پرسیدی ، و茅اوعت ننمودی ؟ ^(٢)

(١) راجع بمجموعه الرسائل والسائل لابن تيمية - ص ٨٠ - ص ٨١ ، القاهرة
سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

(٢) هاک ترجمه :

ف ذات يوم رأى جماعة من النساء رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى ماء وكانت
تمدو بسرعة — فسألوها : أينها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبتقين ؟ فقالت : أنا
ذاهبة إلى السماء حتى ألقى بالثار في الجنة وأصب الماء في الجحيم — فلا تبني الواحدة ولا الأخرى
وظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ولا خوف ، ويعبدونه على هذا النحو —
ذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء في الجنة وخوف من الجميع أذكاناً يعبدون الحق ويطعونه ؟

١٥. (أبو نعيم) ، loc. cit. ms Damas Zah tas. ١١٥ s. v.

(رباح) = (١٩٥، n. ٢) :

— عن رباح — قال (الله تعالى للموحدين يوم الدين) : فهل تعرفون ربكم إذا رأيته؟ قالوا: إن ما عرفنا نفسه. قال: فيتجلّ لم تعلّم فتخرُّف له سجدة.

١٦. « قوت » ، أبو طالب السكري (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ = م ٩١٦) :

(éd. Caire, I, 183) = (p. 45) :

اختلف أهل العلم أيضاً في عبدٍ ترك ذنبًا وعمل في الاستقامة، ونفسه تنازعه إليه وهو يجاهدها، وفي آخر ترك الذنب وانكش في الإصلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب ولم يكن على قلبه منه ثقل ولا مجاهدة — أى هذين أفضل؟ فقال بعض علماء الشام (= أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني) : الذي تنازعه نفسه وهو يجاهدها أفضل... وقال علماء البصرة (= رباح بن عمرو القيسي) : الذي سكت نفسه عن التنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة... أفضل.

— ٧ —

عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب
النيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ) ، دمشق سنة ١٩٢٤.

[١٢٥] : ريحانة

قال إبراهيم بن الأدم رحمه الله: ذكرت لـ ريحانة، ففرجت إلى الأبلة،
[١٢٦] فإذا أنا بخارية سوداء قد أثر البكاء في خديها خطأ، فذاكرتها
م — ٨ شهيدة

شيئاً من أمر الآخرة، فأنشأت تقول:

منْ كان راكِبَ يوْمٍ لِيْسَ يَأْمُنُهُ
ولِيْلَهُ تائِهًا فِي عَقْبِ دُنْيَا
فَكَيْفَ يَلْتَذَّ عِيشًا لَا يَطِيبُ لَهُ !
وَأَنْشَدَتْ أَيْضًا :

صَبَرْتُ عَنِ الْلَّذَاتِ حَتَّى تَوَلَّتِ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَحْمِلُهَا التَّقْيَى
وَلَهَا أَيْضًا :

وَمَا عَاشَقُ الدُّنْيَا بِنَاجٍ مِنِ الرَّدِّيِّ
فَكَمْ مَلِكٍ قَدْ صَفَرَ الْمَوْتُ يَتَهَّى
وَلَهَا أَيْضًا :

حَسْبُ الْحُبُّ مِنْ الْحَيْبِ بِلْهُ
وَالْقَلْبُ فِيهِ إِنْ تَنْفَسَ فِي الدُّجَى
وَأَنْشَدَتْ أَيْضًا :

بِوجْهِكَ لَا تَمْذُبِنِي فَانِي
مُنْجَدِّدٌ مِنْ خَرْفَةِ الْعَلَالِيِّ
وَأَنْتَ بِجَارِيِّ الْأَبْرَارِ فِيهَا
وَأَنْشَدَتْ أَيْضًا :

اجْمَلُ لَنْفَكَ فِي الْلَّيَالِي نَبَهَةٌ
وَأَنْسَنَ إِلَى طَولِ الْقِيَامِ خَلْدًا

(١) كذا ! ولعل مواباه : طم.

(٢) كذا بالكسر ، مع أن بقية أواخر الآيات بالضم .

(٣) فـ الطبوـع : قيـام ... الأـحلـام .

وأيضاً :

نَوَّذْ سَهْرَ اللَّيْلِ فَابْتَالَ النُّورَ خُسْرَانَ
 وَلَا تَرْكَنْ إِلَى الذَّنْبِ نِيرَانَ
 فَكَنْ لِلْوَحِيْ دَرَاسًا :
 [١١٧] إِذَا مَا الَّيْلَ فَاجَمَ فَهُمْ فِي الَّيْلِ رُهْبَانَ
 يَمْلَوْنَ كَمَالَ مِنَ الْأَرْيَاحِ أَعْصَانَ
 وَأيضاً :

أَرَى الدُّنْيَا مَنْ هِيْ فِي يَدِيهِ
 تَهِينُ الْمَكْرُومَاتِ بِهَا بَصَغْرٍ
 إِذَا اسْتَفْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعْتَهُ
 عَذَابًا كَلَا كَبَرْتَ لَدِيهِ
 وَتَكْرُمًا كَلَا هَانَ عَلَيْهِ
 وَخَذْ مَا كَنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ

...

حَيْوَة

قال راشد بن علقمة الأهوازى : كانت حيونة إذا جئها الليل تقول في دعائها :
 يا واحدى ! تمنعني بالليل التلاوة ، ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار ؟ ! إلهى !
 وددت أن النهار ليل حتى أنعم بقربك !

قال سلام الأسود : طلعت عليها الشمس يوماً فآذتها ، فقالت :
 إن كنت تسلم أنت بك والله فاصرف سعوم الشمس عنّي ، سيدى !
 قال : فَقَتَمَ السَّهَاءَ فِي الْوَقْتِ .

قال سلام : صامت حيونة حتى اسودت ، فموتها في ذلك ، فرفقت طرفها
 [١٢٨] إلى السماء وقالت : قد لامني خلقتك في خدمتك ؟ فوعزّتك وجلالك !
 لأخدمك حتى لا يعيق لي عَصَبٌ وَلَا قَصَبٌ . ثم أثنات تقول :
 يَا ذَنْبِي وَعَدَ الرَّضَا لَحِبِيْهِ أَنْتَ الَّذِي مَا إِنْ سَوَّاكَ أَرِيدَ

قال سلام الأسود : نظرتُ إليها في يوم شديد الحر ، فقالت : اسكت ! عند
النَّبْلَغ يفرح الواردون ، وعند العَرْض تقطع الأسباب ، وعند قوله خذوه تنشر
أعلام العارفين .

زار رابعة حيونة ، فلما كان جوف الليل حل النوم على رابعة ؛ فقامت
إليها حيونة فركتها برجلها وهي تقول : قوى ! قد جاء عُرْسُ المهددين . يامن زين
عِرَائِسَ اللَّيْلِ بِنُورِ التَّهَجِدِ !

قال ^(١) سلام : وقفت حيونة يوماً على عبد الواحد ثم نادت : يامتكلم ! تكلم
عن نفسك ! والله لو مُتَّ ماتبعتُ جنازتك . قال : وَمِمَّ ؟ قالت : تتكلم على الخلقة
وتقربنَّ لهم ! ما شبهتك إلا بعلمٍ صبيٍّ علمه أن يحفظ بالقصىٌّ فإذا بكر من بيته أمه
نسى ، فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب يا عبد الواحد ! اخرب نفسك بدَرَّةَ الأدب ،
وتزود زاد الفناعة ، وأجمل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك ؟ ثم تكلم على
الخلقة . قال سلام : فلقد عَرِق عبد الواحد وأقام ما يتكلم على الناس سنة . وأنشدَتْ :

وليس الميتٌ في قبره فطُرٌّ ولا أخخي ولا عشرٌ
بات من الأهل على قرْبِه كذلكَ مَنْ مسكنُه القبرُ

قال سلام : سمعت حيونة تقول : من أحبَّ الله أَنِّي ، ومن أنس طَرِيب ،
ومن طرب اشتفاق ، ومن اشتفاق وَلَه ، ومن وَلَه خرم ^(٢) ، ومن خرم وصل ، ومن
وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت
عليه بوارق الأحزان .

وكانت تقول : اللهمَّ هبْ لِي سَكُونَ قابِي [١٢٩] بعقد الثقة بك ، وأجمل
جميع خواطري وآفقة برضاك ، ولا تجعل حظي الحرام منك ، يا أمل الآملين !
قال إبراهيم : زارت ريحانة حيونة ، فلما جَنَّ اللَّيْلِ جاء المطر والريح الشديد ،

(١) في هذه الفضة مهاجة للوعاظ من الصوفية — فتأملها .

(٢) خرم (من باب كرم) خrama : كان ذا مجون وخلاعة .

فجزعت ريحانة ، فضحكـت حـيـونـة وـقـالتـ لها : يا مـدـبـرـةـ الـعـمـلـ ! لـوـ عـلـمـ
أـنـ فـيـ قـابـيـ حـبـةـ غـيرـهـ أـوـ خـوفـ سـوـاهـ لـوـ جـانـهـ^(١) بـالـسـكـينـ .

سلمونة

قال سهل بن سعد : كانت عندنا بباب دار امرأة مجنونة اسمها سلمونة ، وكانت تُغَيِّب شخصها بالنهار فلا ترى ، فإذا كان الليل صعدت السطح وجاءت تتداء إلى الصباح : سيدى ومولاى ! جئْنَتَنِي عن عقلِي ، وأوحشْتَنِي عن خلقك ، وأَنْسَتَنِي بذَرْكَ ، وقد نفيت عن خلقك ، فوا أَسْفَا ! إنْ نفيتُ عنك .

ميمونة

قال إبراهيم بن الأدم : رأيت في المدام كأن فانلا يقول : إن ميمونة السوداء زوجتك في الجنة . قال : فكنت أطلبها حتى وجدت أثرها بمحض ، فطلبتها فقيل إنها مجنونة لأنَّاً لَأَنَّاً . قلت : فانِنِي هـ ؟ قـيلـ : دفـعـنـا إـلـيـهاـ أـغـنـامـاـ تـرـعـاـهـاـ فـيـ الجـانـةـ . خـرـجـتـ إـلـىـ الجـانـةـ فـإـذـاـ هـ قـائـمـةـ نـصـلـيـ ، وـالـشـاةـ وـالـذـنـبـ فـيـ مـكـانـ وـاحـدـ ؛ فـوـقـتـ مـتـجـباـ . فـلـماـ قـضـتـ الصـلـاـةـ قـالـتـ : يـاـ إـبـرـاهـيمـ ! الـمـوـعـدـ فـيـ الجـانـةـ لـاهـناـ . فـعـجـبـتـ مـنـ فـطـنـتـهاـ . قـلـتـ : يـاـ سـبـحـانـ اللهـ ! أـلـستـ مـؤـتـمـنـةـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـغـنـامـ ؟ قـالـتـ : بـلـ . قـلـتـ : فـلـمـ عـطـلـتـهاـ حتـىـ توـسـطـتـهاـ الذـنـبـ ؟ قـالـتـ : سـلـمـنـهـ إـلـىـ مـنـشـهـ . ثـمـ قـالـتـ : ارـتفـعـتـ الـحـشـمـةـ بـيـنـ وـبـيـنـ مـنـ أـنـاـ قـائـمـةـ بـيـنـ يـدـيـهـ ، فـهـوـ الذـىـ رـفـعـ الـوـحـشـةـ بـيـنـ الشـاةـ وـالـذـنـبـ . ثـمـ وـلـتـ وـأـنـشـأـتـ تـقـولـ :

قلوبُ العارفين لها عيونٌ	ترى ملا يراه الناظرون
والسننِ بسرِ قد تناجي	نَغِيبُ عن الكرام الكاتبينا
[١٣٠] وأجنحةٌ تطير بغیر ريش	إلى ملکوت رب العالمينا
فسقیها شراب الصدق صرفاً	وتشربُ من كنوزِ العارفينا

(١) الضمير يعود على القلب .

— ٨ —

الزبيدي «إنحصار السادة المتدينين في شرح إحياء علوم الدين للغزالى» :

(١) ٩ ، ص ٥٧٦

... (وقال) سفيان (الثورى) رحمه الله تعالى (لرابطة) ابنة اسماويل المدوية البصرية المابدة رحها الله تعالى ؟ وكانت إحدى الحبيبن ؟ ماتت سنة ١٣٥ . وكان الثورى يقعد بين يديها ويقول : علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة . وكانت تقول له : نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان الثورى زاهداً عالماً ، إلا أنها كانت تحمل إشارات كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها الثورى يوماً : لكل عقد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة و (ما حقيقة إيمانك ؟) قالت : ما عبده خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فاكون للأجير السوء إن خاف عمل) أو إذا أعطى عمل ، (بل عبده حباه وشوقاً إليه) . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إن لا تستحيي أن أسأل الدنيا من يملكتها ، فكيف أسلها من لا يملكتها ؟ فكان هذا جواباً لأنها قال : مليني حاجتك . وخطبها عبد الواحد بن زيد فعجبته أيامًا حتى سئلت أن يدخل عليها ، فقالت له : يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أى شى رأيت في من آلة الشهوة ؟ ! وخطبها محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة على مائة ألف وقال : لي غلقة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك . فكتب إليه : ما يسرنى أنك لي عبد ، وأن كل مالك لي ، وأنك شغلتني عن الله طرفة عين . (و) قد قالت في معنى الحبة ، أبياتاً (نظاماً) تحتاج إلى شرح ، حملها عنها أهل البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثورى وجعفر بن سليمان الصبى وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد وهى هذه :

(أحبك حبـين: حبـ الموى
 فأما الذى هو حبـ الموى
 فـشـلـ بـذـكـرـكـ عـمـنـ سـواـكـ
 وأما الذى أنتـ أـهـلـ لـهـ
 فـكـشـفـكـ لـالـحـجـبـ حـتـىـ أـرـاكـ
 ولكنـ لـكـ الـحـدـفـ ذـاـ وـذـاكـ لـىـ)
 [٥٧٧]

وقد تكلم صاحب «القوت» على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه من رزقه وينكره من حرمـهـ . والمصنـفـ رـحـمـهـ اللهـ أـشـارـ إـلـىـ زـيـدةـ كـلـامـهـ . فـلـتـورـدـ كـلـامـهـ
 أـولـانـمـ كـلـامـ صـاحـبـ «الـقوـتـ» . قـالـ المـصـنـفـ : (ولـعـلـهاـ أـرـادـتـ «ـبـحـبـ المـوىـ»ـ
 حـبـ اللهـ لـإـحـسـانـ إـلـيـهاـ وـإـنـعـامـهـ عـلـيـهاـ بـحـظـوظـ العـاجـلةـ ، (وـبـحـبـهـ لـاـ هـوـ أـهـلـ لـهـ)ـ الحـبـ
 جـلـالـهـ وـجـلـالـهـ الـذـىـ انـكـشـفـ لـهـ ، وـهـوـ أـعـلـىـ الـحـبـيـنـ)ـ فـقـدـ أـشـارـ بـذـلـكـ إـلـىـ أـنـ كـلـامـهـ
 يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـحـبـ بـهـذـاـ السـبـبـ أـقـوـىـ الـأـسـبـابـ وـأـثـبـتـهـ دـوـامـاـ . وـأـمـاـ صـاحـبـ «ـالـقوـتـ»ـ
 فـقـالـ : فـأـمـاـ قـوـلـهـ : «ـحـبـ المـوىـ»ـ وـقـوـلـهـ «ـحـبـ أـنـتـ أـهـلـ لـهـ»ـ وـتـفـرـقـهـ بـيـنـ الـحـبـيـنـ .
 فـإـنـهـ يـحـتـاجـ إـلـىـ تـفـصـيلـ حـتـىـ يـقـفـ عـلـيـهـ مـنـ لـاـ يـعـرـفـهـ وـيـخـبـرـهـ مـنـ لـمـ يـشـهـدـهـ . وـفـيـ تـسـمـيـتـهـ
 وـنـعـتـ وـصـفـهـ إـنـكـارـ مـنـ ذـوـ الـعـقـولـ مـنـ لـاـ ذـوقـ لـهـ مـنـهـ وـلـاـ قـدـرـ لـهـ بـهـ ، وـلـكـنـ تـجـنـبـ
 ذـلـكـ وـنـدـلـ عـلـيـهـ مـنـ عـرـفـهـ : مـعـنـىـ حـبـ المـوىـ — أـىـ رـأـيـتـكـ فـأـحـيـتـكـ عـنـ مشـاهـدـةـ
 الـيـقـيـنـ ، لـاـ مـنـ خـبـرـ وـسـمـعـ تـصـدـيقـ مـنـ طـرـيقـ النـمـ وـالـإـحـسـانـ ، فـتـخـتـلـفـ مـحـبـيـ

إـذـاـ تـغـيـرـتـ الـأـفـعـالـ لـاـخـتـلـافـ ذـلـكـ عـلـىـ ؟ـ وـلـكـنـ مـحـبـيـ مـنـ طـرـيقـ الـعـيـانـ ، فـقـرـبـتـ

مـنـكـ ، وـهـرـبـتـ إـلـيـكـ ، فـاشـتـفـلتـ بـكـ لـاـ تـفـرـغـتـ لـكـ كـاـمـاـ قـالـ الـحـبـ :

فـرـأـغـتـ قـلـبـهاـ اـشـتـفـالـ بـذـكـرىـ وـكـذـاـ كـلـ ظـارـغـ مـشـغـولـ
 وـعـلـىـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : (وـأـصـبـحـ فـؤـادـ أـمـ مـوـسـىـ فـارـغـاـ)ـ^(١)ـ أـىـ مـلـآنـ بـذـكـرـهـ
 حـتـىـ فـاضـ فـكـادـتـ أـنـ تـظـهـرـهـ فـتـقـولـ : هـوـ اـبـنـيـ . فـعـبـرـ عـنـ الـمـلـلـ بـالـفـرـاغـ مـنـ ضـدـهـ ،
 لـوـلـاـ أـنـ أـوـلـيـنـاـ عـلـيـهـ بـرـيطـنـاـ فـكـظـمـتـ ، وـلـوـ لـمـ تـفـعـلـ لـأـظـهـرـتـ ، وـلـوـ أـظـهـرـتـ لـقـلـ .

(١) سورة القصص : آية ٩.

وأما الحب الثاني الذي هو أهل له : تغى حبَّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم
ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا استحق على هذا الحب ولا أستأهل —
أن^(١) أنظر إليك في الآخرة على الكشف والعيان في محل الرضوان ، لأن حبي لك
لا يوجب لك جزاء عليه بل يوجب علىَّ كلَّ شيء مما لا أطيقه ولا أتوم بمحقك
فيه أبداً ، إذ كنت قد أحبتني فلزمني خوف التقصير ، ووجب علىَّ الحياة من
قلة الوفاء والخروف لما نفرستُ به من حبك ، إذ ليس كذلك شيء ، كما قال الحبيب :
أصبحتُ صباً ولا أقول بنْ خوفاً لمن لا يخافُ مِنْ أحد
إذا تفکرتُ في هواي له لستُ رأمي : هل طار عن جسدي ؟
لو لا أن الحب ينبع الشوق يقلق ، والوجود يحرق . فالحب لا يلام لنية النفس
عنه ، وإلا نام . تقول : فتفضلت علىَّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ،
فأريتني وجهك عندك آخرًا ، كما أرانيه اليوم عندك أولاً ؟ فلما علىَّ ما تفضلت
به في ذاك عندي في الآخرة ، ولاحدلى في ذاهابنا ، ولاحدلى في ذاك هناك ،
إذا كنت أنا وصلت إليها بك ؟ فأنت المحمود فيما لأنك وصلتني بها .
فهذا الذي فسرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنس في
و jego وترفع إلى وصف معنى من الخللة في قوله السارُ :

إني جعلتك في الفؤاد مُحَدَّثي وأباحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسمُ مني للجليس مؤانٌ وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى
ومن قوله النادر في مقام الخللة :

وتخلالتَ مسلكَ الروحِ مني وبه سُمُّى الخليلُ خليلاً
فإذا مانطقةتَ كنتَ حديثي وإذا ماسكتَ كنتَ الغليلاً
وقد أهل ذلك لها كل ما نقله عنها من العلماء ووصفوها به ، فوصفنا من

(١) أن المصدرية وما بعدها واقع في محل نصب لأنه مفعول : أستحق ... أستأهل .

نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها ، لأننا ظنتنا بقولها ذلك إن كان لها في الحبة قدم . ولا يسعنا أن نشرح في كتاب حقيقة كشف ما أجلناه ، ولأن نفصل وصف ما ذكرناه . ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يُدْلِي بمحتبه ولا يقتضي الجزاء عليها من محبوه ، ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته ، فهو مخدوع بالحبة ، ومحبوب بالنظر إليها . وإنما ذلك مقام الرجاء — الذي ضده التلوف — ليس من الحبة في شيء ، ولا تصح الحبة إلا بخوف المقت في الحبة . وقال بعض المارفين : ماعرفة من ظن أنه عرفه ، ولا أحبه من توم أنه أحبه — هذا كلام صاحب « القوت » .

(ب) = ٩ بالماهش ص ٦٨١ في باب : « بيان جلة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم » :

« وقالت رابعة العدوية يوماً : من يدلنا على حبيبنا؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه » .

في شرح الزبيدي : « (وقالت) أم الخير (رابعة) بنت اسماعيل (العدوية) البصرية قدس سرّها المتوفاة سنة ١٣٥ (يوماً : من يدلنا على حبيبنا؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه) — اعلم أن رابعة قدس سرها كانت رأساً في المعرفة والحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام العية . وإنما قالت ما قالت وهي في مقام الاستفراق الذي هو من نتائج الحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ؛ والمحبُ في مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذى . فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم ، ففمتنع عنه القواطع . فـ أدق نظرها رحمة الله ! »

[فـ صلب ص ٦٨١ ٩]

(ـ) = ٩ بالماهش ص ٦٨٢ : الباب عينه :

« وقيل رابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إني لأحبه جيًّا شديداً ؛ ولكن حب الخالق شفاني عن حب الخلقين ». .

فـ شرح الزبيدي : « (وقيل رابعة) المدوية قدس سرها (كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم — فقالت : إني والله أحبه جيًّا شديداً ؛ ولكن حب الخالق شفاني عن حب الخلقين) وحکى عن أبي سعيد الخراز ، قال :رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام قلت . يا رسول الله ! اعذنني ، فإن حببة الله شفنتني عن محبتك . فقال : يا مبارك امن أحـب الله قد أحـبـني — نـقـلـهـ القـشـيرـيـ » . [فـ صـلـبـ صـ ٦٨٢ـ ٩ـ] .

(د) في شرح الزبيدي (نقلا عن كتاب « مصارع المشاق » لأبي محمد السراج)^(١) .

« أخبرنا القاضي أبو الحسن التوزي ؛ أخبرنا ابن يحيى ؛ حدثنا الحسين بن صفوان ؛ حدثنا ابن أبي الدنيا ؛ حدثنا محمد بن الحسين ؛ حدثني أبو معتمر صاحب عبد الوارث ، قال : نظرت رابعة إلى رباح القمي وهو يقبل صبياً من أممه ويضميه إليه فقالت : أحببه يا رباح ؟ قال : نعم . قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موضماً فارغاً لحبة غيره . قال : فصاح رباح وسقط مغشيأ عليه » . (٩ـ صـ ٦٨٨ـ) .

(ه) شرح الزبيدي - ٩ - ص ٦٨٨ :

وردت الآيات المشهورة المنسوبة إلى رابعة على أنها ليست لها بل بخارية لقيها ذو التون ؛ قال : (وهو ينقل عن مصارع المشاق لأبي السراج)^(٢) :

« ... قال ذو التون : بينما أنا أسير على ساحل البحر إذ بصرت بخارية

(١) راجمه بعد ، وهو في « مصارع المشاق » من ١٨١ ، طبع الجواب سنة ١٣٠١ .

(٢) وردت في مصارع المشاق لأبي محمد السراج القاري ، من ١٨٠ — من ١٨١ ، طبع المبواة بالسلطنة سنة ١٣٠١ .

عليها أطمار شَعْرٍ ؛ وإذا هي ناحلة قابلة . فذوَتُ منها الأسم ما تقول ، فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح واضطربت الأمواج وظهرت الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض . فلما أفاقَتْ — نجحت . ثم قالت : سيدى ! بك تقرب المقربون في الخلوات ؟ ولعزمتك سبعت الحيتان في البحار الزاخرات ، ولخلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العلي القهار .

يا مؤنسَ الأبرار في خلواتهم يا خيرَ من حلت به النَّزَّالُ
من ذاق حُبَّكَ لا يزال مُستَمِعاً فرَحُ الفواد - متينا - بِنَبَالٍ
من ذاق حُبَّكَ لا يرى متبساً في طول حزن في الحشا إشغالٌ
فقالت لها : زيدينا من هذا ! فقالت إليك عنى ؟ ثم رفت طرائفها
إلى السماء وقالت :

أحبكَ حَبِينَ : حبَ الوداد ، وجَأْ لأنكَ أهلَ لذاكَ
فأما الذي هو حبَ الوداد غَبَ شُغْلَتُ به عن سواكَ
وأما الذي أنتَ أهلَ له فكشفك للاحْجُب حتى أراكَ
فما الحمد في ذا ولا ذاكَ لي ولكن لكَ الحمد في ذا وذاكَ
ثم شَهَقتْ شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا . فبقيتْ أتعجبُ مما رأيتُ منها ؛
إذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشَّعر ، فاحتملنها ففيهنها عن عيني فقلن لها ،
ثم أقبلن بها في أكفانها . قلن لي : تقدم فصلَ عليها . فتقدمت وصلَّيتُ عليها
وهن خلفي . ثم احتملنها ومضين . . .

— ٩ —

«الرسالة القشيرية» ، القاهرة سنة ١٣٣٠ :

(ا) في باب الرضا :

«وَسَلَّتْ رَابِعَةً مَتَى يَكُونُ الْبَدْرَ أَضْيَاءً ، فَقَالَتْ : إِذَا سَرَّتْهُ الْمَصِيرَةُ كَمَا صَرَّهُتْ النَّعْمَةُ » (ص ٨٩)

(ب) في باب التربة :

«وَقَالَ رَجُلٌ لِرَابِعَةَ : إِنِّي قَدْ أَكَبَرْتُ مِنَ الذَّنْوَبِ وَالْمَعْاصِي ، فَلَوْ تَبَتَّتْ ،
هَلْ يَتُوبُ عَلَى ؟ فَقَالَتْ لَا ! بَلْ لِوَتَابٍ عَلَيْكَ لَتُبَتَّ .» (ص ٤٨)

(ج) في باب الحبة :

«قَالَتْ رَابِعَةٌ فِي مَنَاجَاتِهَا : إِلَهِي ! أَنْحَرْقَ (١٤٨) بِالنَّارِ قُلْبًا يَحْبَكَ ؟ فَهَنَفَ
بَهَا هَاتِفٌ : مَا كَنَا نَفْعَلُ هَكَذَا ؟ فَلَا نَظَنَّ بِنَا ذِنْنَ السُّوءِ . . . (١٤٧ — ١٤٨)

— ١٠ —

«صفة الصفوّة» لابن الجوزي ، ج ٤ ص ٥٧ ، مخطوط الظاهريّة تاريخ ٦٧ :
«أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ الْحَرِيرِيَّ قَالَ : أَبْنَانِي أَبُو طَالِبِ الْمُسَارِيَّ ، قَالَ : أَبْنَانِي
أَبُو بَكْرِ الْبَرْقَانِيَّ ، قَالَ أَبْنَانِي ابْرَهِيمَ بْنَ مُحَمَّدِ الزَّكِيِّ ، قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ اسْحَاقَ السَّرَّاجِ
قَالَ : حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ الْلَّيْثِ الْجِرَهُرِيَّ ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَيْسَى ، قَالَ :
دَخَلَتْ عَلَى رَابِعَةَ الْعَدُوِّيَّةِ يَتَهَافِرُ أَيْتُ عَلَى وَجْهِهَا النُّورُ ، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ البَكَاءِ؛
فَقَرَأَ رَجُلٌ عَنْهَا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا ذَكْرُ النَّارِ ، فَصَاحَتْ ثُمَّ سَقَطَتْ .

وَدَخَلَتْ عَلَيْهَا وَهِيَ جَالِسَةٌ عَلَى قَطْمَةٍ بُورِيٍّ خَلَقَهُ ، فَتَكَلَّمَ رَجُلٌ عَنْهَا

بشيء ، فعملت أسمع وقع دموعها على البورى مثل الوَكْف . ثم اضطربت وصاحت .
 فقمنا وخرجنا .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أبنانا الحسن بن أحمد الفقيه ، قال : أبنانا
 محمد بن أحمد ، قال : أبنانا أحمد بن جعفر بن سلم ، قال : حدثنا أحمد بن عبد الخالق
 قال : أبنانا يعقوب بن يوسف ، عبد اسحق بن ابراهيم ، قال حدثنا مسح بن عاصم
 ورباح القيسى قالا : شهدنا رابعة وقد أتاهارجل بأربعين ديناراً فقال لها . تستعينين
 بها على بعض حوانجك ؟ فبكت ثم رفت رأسها إلى السماء فقالت : هو يعلم أنى
 أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملّكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها من
 لا يملّكها !

أبنانا عبد الوهاب الحافظ قال أبنانا أبو الحسين بن عبد الجبار ، قال :
 أبنانا العتيق ، قال أبنانا عنان (ص : عُمْ) بن عمر بن المثاب ، قال : أبنانا ابن
 محمد بن عبد الله بن سليمان النامي ، قال ، حدثنا بن حبيب البزار ، قال : حدثنا
 الفضل بن موسى البصري ، قال : حدثنا ابراهيم بن بشار الرمادي ، قال حدثنا
 محمد بن أبي حاتم [٥٧ ب] قال : حدثنا محمد بن عمرو قال :

دخلت على رابعة وكانت عجوزا^(١) كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشَّنْ تكاد
 تسقط ، ورأيت في بيتها كراحة بواري ومشجب قصب فارسي طوله من الأرض قدر
 ذراعين ، وستر البيت جلة وربما كان بوريا^(٢) وحْبٌ وكوز ، ولبد هو فراشها وهو
 مصلاتها ، وكان لها مشجب من قصت عليه أكفانها . وكانت إذا ذكرت الموت
 انتفضت وأصابها رعدة . وإذا مرت بقومٍ ، عرفوا فيها العبادة . وقال لها رجل :
 ادعني لي ! فالتتصقت بالحاط وقلت : من أنا ، يرحمك الله ! أطِيع ربك وأذْعُه فإنه
 يحب المضرر .

أخبرنا الحمدان برأى منصور وابن عبد الباقي قالا : أَبْنَا نَاهُ جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ
السراج قال : أَبْنَا نَاهُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ التَّوْدِي ، قَالَ : أَبْنَا نَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدَ اللَّهِ الدَّقَاقَ ،
قَالَ : أَبْنَا نَاهُ الْحَسِينَ بْنَ صَفْوَانَ ، قَالَ : حَدَثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ الْقَرْشِيَّ ، قَالَ ، قَالَ
مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسِينِ : حَدَثَنِي سَحْفٌ (كَذَا) بْنُ مَنْظُورٍ قَالَ :
دَخَلَتْ عَلَى رَابِعَةَ وَهِيَ سَاجِدَةٌ . فَلَمَّا أَحْسَتْ بِعْكَانِي رَفِعَتْ رَأْسَهَا ، فَإِذَا
مَوْضِعُ سَجْدَوْهَا كَهْيَةُ الْمَاءِ الْمُسْتَنْقَعِ مِنْ دَمَوْعَهَا . فَسَلَّمَتْ ، فَأَفْقَبَتْ عَلَيَّ قَوْلَتْ :
يَا بْنِي ! لَكَ حَاجَةٌ ؟ فَقَلَتْ : جَئْنِكَ لِأَسْلِمَ عَلَيْكَ . قَالَ : فَبَكَتْ وَقَالَتْ : «سَرْكَ اللَّهُمَّ
سَرْكَ ! » وَدَعَتْ بِدُعَوَاتِنِمْ قَامَتْ إِلَى الْصَّلَاةِ وَانْصَرَفَتْ .

قَالَ الْقَرْشِيُّ : وَحَدَثَنِي مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ قَالَ ، حَدَثَنَا أَحْمَدُ أَبْنَى الْحَوَارِيَّ ، قَالَ
حَدَثَنَا الْعَبَاسُ بْنُ الْوَلِيدَ ، قَالَ ، قَاتَ رَابِعَةَ (١) : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَلْهَ صَدْقَ فِي قَوْلِي :
اسْتَغْفِرُ اللَّهَ ! .

قَالَ الْقَرْشِيُّ : وَحَدَثَنِي أَزْهَرُ بْنُ سَرْوَانَ ، قَالَ دَخَلَ عَلَى رَابِعَةَ رَبَاحَ الْقَيْسِيِّ
وَصَالِحَ بْنَ عَبْدِ الْجَلِيلِ [١٥٨] وَكِلَابَ ، فَتَذَكَّرُوا الْدِنْيَا فَأَقْبَلُوا يَذْمُونَهَا قَوْلَتْ
رَابِعَةَ : إِنِّي لَأُرِيَ الْدِنْيَا بِتَرَابِيعِهَا فِي قُلُوبِكُمْ ، قَالُوا ، وَمَنْ تَوَهَّمَ عَلَيْنَا ؟
قَالَتْ : إِنَّكُمْ نَظَرْتُمْ إِلَى أَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ مِنْ قُلُوبِكُمْ فَتَكَلَّمْتُ فِيهِ .

قَالَ الْقَرْشِيُّ : وَحَدَثَنِي أَبُو جَعْفَرِ الْمَدِينِيِّ عَنْ شِيخِ (٢) مِنْ قَرِيشٍ قَالَ : قَبِيلَ
رَابِعَةَ : هَلْ عَمِلتَ عَمَلاً تَرِينَ أَنَّهُ يَقْبِلُ مِنْكَ ؟ قَالَتْ : إِنْ كَانَ ، فَخَافَتِي أَنْ
يَرَأَدَ عَلَيَّ .

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي قَالَ : أَبْنَا نَاهُ رَزْقُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَابِ بْنِ وَهْبٍ
قَالَ : حَدَثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَيُوبِ النَّزِيِّ (كَذَا) قَالَ : حَدَثَنَا شِيبَانَ بْنَ فَرُوخَ قَالَ :
حَدَثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ ، قَالَ : أَخْذَ بِيَدِي سَفِيَّانَ الثُّوْرِيَّ وَقَالَ : مُرْ إِلَى الْمَوْدِبَةِ الَّتِي

(١) المقصود هنا رابعة بنت اسماعيل ، مادامت الرواية بسنده أحاديث بن أبي الْحَوَارِي زوجها .

(٢) يصح أن تكون : سانع .

لأجد من أستريح إليه إذا فارقها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال
اللهم إني أسألك السلام . فبكت رابعة . فقال لها : ما يكيلك ؟ قالت : أنت
عَرَضْتَنِي للبكاء . فقال لها ، وكيف ؟ قالت ! أما علمت أن السلام ترك ما فيها ،
فكيف وأنت متلطخ بها !

وقال الثوري بين يدي رابعة : واحزناه ! فقالت : لا تكذب ؟ قل : واقلة
حزناه ! لو كنت محزوناً ما هناك عيش .

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال : أربأنا محمد بن علي الكوفي ، قال : أربأنا على
ابن المحسن التنوخي ، قال : حدثنا على عمر الخليل ^(١) ، قال : حدثنا محمد بن عبد
ابن حرب القاضي ، قال : حدثنا شيبان بن فروخ ، قال : سمعت جعفر بن سليم
يقول : سمعت رابعة تتغول لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ؟ فإذا ذهب يوم ذهب
بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم ، فاعمل .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال : أربأنا محمد بن هبة الله الطبرى ، قال : أربأنا
على بن محمد بن الشران ، قال : حدثنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر
عبد الله بن محمد القرشى ، قال : حدثنى (٨٤ ب) محمد بن الحسين ، قال : حدثنى عنبيس
ابن مرحوم العطار ، قال حدثنى عبدة بنت أبي شوال - وكانت من خيار إماء الله
تعالى ، وكانت تخدم رابعة - قالت : كانت رابعة تصلي الليل كلها ، فإذا طلع الفجر
جئت في مصلاها بهمة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تتغول إذا وثبتت
من مرقدها ذلك وهي فزعة : يا نفس ! كم تسامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك
أن تناى نومة لا تقومين منها إلا لصرحة يوم النشور .

قالت : فكان هذا دأبهَا دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعتني
قالت : يا عبدة ! لا تؤذني بموتي أحداً ولنفيني ^(٢) في جبتي هذه (جبة من شعر

(١) مشددة الباء في الأصل . مكنا : الخليل (٢) مس : لسى .

كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون). قالت : فَكَنَتْهَا فِي تُلُوكِ الْجَبَةِ وَخَمَارِ
صَوْفٍ كَانَ تُلْبِسُهُ . قَالَتْ عَبْدَةُ : رَأَيْتَهَا بَعْدَ ذَلِكَ بَسْنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي مَنَامِ ،
عَلَيْهَا حُلَّةً اسْتَبْرَقَ خَضْرَاءُ وَخَمَارٌ مِنْ سَنْدَسٍ أَخْضَرٌ لَمْ أَرْ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ .
فَقَلَتْ : يَا رَابِّي ! مَا فَعَلْتَ بِالْجَبَةِ^(١) الَّتِي كَنَاكَ فِيهَا وَخَمَارُ الصَّوْفِ ؟ قَالَتْ : إِنَّهُ
وَاللَّهُ : مُنْزَعٌ عَنِّي وَأَبْدَلَتْ بِهِ هَذَا الَّذِي تَرَيَنَهُ عَلَى ، وَطَوَيْتُ أَكْفَانِي وَخَمَارِ
وَرُؤْسَتِ فِي عَلَيْنِ لَتَكَلَّلَ بِهَا ثُواَبَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالَتْ ، فَقَلَتْ لَهَا : هَذَا كُنْتَ
تَعْمَلِينَ أَيَّامَ الدِّينِ . فَقَالَتْ : وَمَا هَذَا عِنْدَ مَا رَأَيْتَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَوْلَيَاتِهِ ! قَالَتْ :
فَقَلَتْ : فَا فَعَلْتُ عَبِيدَةَ بْنَ أَبِي كَلَابٍ ؟ قَالَتْ : هَيَّاهَا ! هَيَّاهَا ! سَبَقْتَنَا
وَاللَّهُ إِلَى الْدَّرَجَاتِ الْمُلِّيَّ . قَالَتْ : قَلَتْ وَبِمِ ؟ وَقَدْ كُنْتَ عِنْدَ النَّاسِ ! — أَيِّ
أَكْثَرُهُنَّا — قَالَتْ : إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتَ مِنَ الدِّينِ أَوْ أَمْسَتْ .
قَالَ : فَقَلَتْ : فَا فَعَلْتُ أَبُو مَالِكَ ؟ — يَعْنِي ضَيْفَمَاً ؟ قَالَتْ : يَزُورُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَتَى
شَاءَ . قَالَتْ : قَلَتْ فَا فَعَلْتُ بِشَرْبِ مَنْصُورٍ ؟ قَالَتْ : بَخِ بَخِ ! أَعْطَى اللَّهُ فَوْقَ
مَا كَانَ يَأْمُلُ^(٢) . [١٥٩] قَالَتْ : فَرَيْنِي بِأَسْرِ أَقْرَبْ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ !
قَالَتْ : عَلَيْكَ بَكْثَرَةً ذَكْرَهُ ؛ أُوْشَكَ أَنْ تَغْتَبِطَ بِذَلِكَ فِي قَبْرِكَ .
قَلَتْ : افْتَصَرْتَ هَا هَنَا عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَخْبَارِ رَابِّي لَأَنِّي قَدْ أَفْرَدْتَ
لَهَا كِتَابًا فِيهِ كَلَامَهَا وَأَخْيَارَهَا .

« صفة الصفوة » لابن الجوزي ج ٤ ص ٢٠٢ ابرقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية :
رابمة زوجة أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الْحَوَارِي :

كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا؛ وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلْمي أن رابمة

(١) م : الجبة (٢) م : يأمل .

العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحد أنها رایعة بالياء ؛ والعدوية بصرية وهذه شامية .

وقد أخبرنا أبو ناصر ، قال : أَبْنَانَا أَبُو الْفَنَّاسِمْ بْنُ الْمَرْسَى قَالَ : رَابِعَةُ بَالَّاَهِ بِنَقْطَةٍ فِي تَحْتَهَا بَصْرِيَّةٌ . وَرَابِعَةُ بِأَثْنَيْنِ مِنْ تَحْتَهَا شَامِيَّةٌ .

قال : ثنا عبد الواحد بن بكر ، قال : ثنا اسحق بن أَحَدْ بْنُ عَلِيٍّ ، قال : ثنا ابراهيم بن يوسف ، قال ثنا أَحَدْ بْنُ أَبِي الْحَوَارِي قَالَ : قلت لرایعة وهي امرأة وقامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، ما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نومنا . قال : وجلست آكل وتذكّرْتُني قلت لها : دعينا يهندينا طامانا . قالت : ليس أنا وأنت من يتغمس عليه الطعام عند ذكر الآخرة . أخبرنا محمد بن عبد الباقي : قال أَبْنَانَا (٢٠٢ بـ) الحسن بن عبد الملك بن يوسف ، قال : أَبْنَانَا أَبُو مُحَمَّدُ الْحَلَالُ ، قال : حدثني علي بن عمر بن علي النجاري ، قال : ثنا ابراهيم بن أَحَدْ بن الحسن القرميسي ، قال : سمعت محمد بن اسحق السراج ، يقول : سمعت على بن موفق يقول ، سمعت أَحَدْ بْنُ أَبِي الْحَوَارِي يقول : قالت لي رایعة : أى أخى ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوى عمله ، فتشاغل به دون خلقه !

أَبْنَانَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُنْصُورٍ ، قال أَبْنَانَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي نَصِيرِ الْحَمِيدِيِّ ، قال : أَبْنَانَا أَبُوبَكْرٌ مُحَمَّدُ بْنُ أَحَدِ الْأَرْدَسْتَانِيِّ ، قال : ثنا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسِينِ السَّلْمِيِّ ، قال سمعت أبا عمرو ومحمد بن محمد التجار الرازي يقول : سمعت محمد بن طيفور يقول : سمعت عمر بن محمد يقول عن أَحَدْ بْنُ أَبِي الْحَوَارِي ، قال : كانت لرایعة أحوال شتى فرقة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف . فسمعتها في حال الحب تقول :

حبيب ليس يغدوه حبيب ولا سواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولسكن فى فؤادى ما يغيب
وسمعتها فى حال الأنس :

ولقد جعلت فى الفؤاد محدثى وأبخت جسما^(١) من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وسمعتها فى حال الخوف تقول :
وزادى قليل ما أراه مُبَكِّنى وألازد أبكى أم لطول^(٢) مسافتى ؟!
أُخْرِقْتَ بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمَنِيِّ فَإِنَّ رَجَائِي فِيكَ ! أَينَ مَحَافِتِي !
أَبْنَاءُ الْمَهْدَانِ : أَبْنَاءُ أَبْنَاءِ مُنْصُورٍ وَابْنَ عَبْدِ الْبَاقِي قَالَا : أَبْنَاءُنَا جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ
قَالَ : أَبْنَاءُنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ التَّوْزِيِّ قَالَ : أَبْنَاءُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الدَّقَّاقِ ، قَالَ أَبْنَاءُنَا
الْحَسِينُ بْنُ صَفْوَانَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرُ الْقَرْشَى ، قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ ،
قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِى ، قَالَ : سَمِعْتُ رَابِيعَةَ تَقُولُ : إِنِّي لَأَضَنُّ بِاللَّقْمَةِ
الظَّبِيَّةِ أَنْ أَطْعَمَهَا نَفْسِي ، وَإِنِّي لَأُرِى ذِرَاعِيَّ قَدْ سَمِنَ فَأَحْزَنَ . قَالَ : وَرَبِّيَا قَلْتَ لَهَا :
أَصَاحَّهُ أَنْتَ الْيَوْمَ ؟ فَتَقُولُ : وَمَا مِثْلِي يَفْطُرُ فِي الدُّنْيَا . قَالَ : وَرَبِّيَا نَظَرْتَ إِلَى وَجْهِهِ
وَرَقْبَتِهِ (١٢٠٣) فَيَتْحِرُكُ قَلْبِي عَلَى رُؤْيَتِهِ مَا لَا يَتْحِرُكُ مَعَ مَا كَرَّتِي أَحْصَابِنَا مِنْ
أَثْرِ الْبَيَادَةِ . وَقَالَتْ لِي : لَسْتُ أَحْبِكَ حَبَّ الْأَزْوَاجِ ؟ إِنَّمَا كَفَتْ أَتَمْنِي أَنْ يَا كُلَّ مَالِ مُثْلِكَ وَمُثْلِ
إِخْوَانِكَ . قَالَ أَحَدٌ : وَكَانَتْ لَهَا سَبْعَةُ آلَافَ دَرْهَمَ فَانْفَقَتْهَا كُلَّهُ . وَكَانَتْ إِذَا
طَبَخَتْ قَدْرًا قَالَتْ : كُلُّهَا يَاسِيدِي فَمَا نَضَجَتْ إِلَّا بِالْتَسْبِيحِ ! وَقَالَتْ لِي : لَسْتُ
أَسْتَحِلُّ (أَنْ) أَمْنِعُكَ نَفْسِي وَغَيْرِي ؟ اذْهَبْ قَبْرَوْجَ . قَالَ : قَبْرَوْجَتْ ثَلَاثَةَ . وَكَانَتْ
نَطَمْنَى الْأَعْجَمِ وَتَقُولُ : اذْهَبْ بِقَوْنَكَ إِلَى أَهْلَكَ . وَكَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ جَمَاعَهَا نَهَارًا

(١) من : جسمى (٢) تختها : بعد — وقد ضرب عليها .

قالت : بالله لا نفطرني اليوم . وإذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبتني
الله الليلة .

قال أبو بكر القرشي ، وحدثني عون بن ابرهيم ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحوارى ،
قال : سمعت رايحة تقول ، ما سمعت الأذان ذكرت منادى القيامة ، ولا رأيت الثاج
إلا ذكرت نظائر الصحف ، ولا رأيت جرادة إلا ذكرت الخشر .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، قال أبناها رزق الله بن عبد الوهاب ، قال ، أبناها
أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : ثنا أبو جعفر الرازى ، قال ، ثنا العباس بن حمزة ،
قال ، ثنا أحمد بن أبي الحوارى ، قال : قالت رايحة : نحوا عنى ذلك الطست ،
فإنما عليه مكتوب : مات أمير المؤمنين هارون الرشيد . قال أحمد : فنظروا فإذا هو
مات ذلك اليوم .

أبناها محمد بن عبد الباقى ، قال ، أبناها رزق الله ، قال : أبناها السلمى ، قال :
ثنا محمد بن أحمد بن سعيد ، قال : العباس بن حمزة ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحوارى ،
قال : سمعت رايحة تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيطون ؟ وربما
رأيت الحور العين يستترن مني بأكمون ، وقالت يدها على رأسها . قال أحمد ،
ودعوت رايحة فلم تجني ؟ فلما كان بعد ساعة أجايتها وقالت : إنما معنى أن
أجييك أن قابي قد كان امتلاً فرحاً فلم أقدر أن أجيك .

— ١٢ —

ابن تيمية : «مجموعة الرسائل والسائل» ١ ص ٨٠ - ٨١ ،

القاهرة سنة ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢

... وأما ما ذُكر عن رايحة من قولها عن البيت إنه الصنم المعبد في الأرض
 فهو كذب على رايحة . ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب ، فإن تاب
وإلا قتل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكن يعبدون رب

البيت بالطوفاف به والصلة إليه . وكذلك ما نقل من قوله : وَأَنْهُ مَا وَلَجَهَ اللَّهُ
وَلَا خَلَمَنِه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلوية لا فرق بين ذلك البيت
وغيره في هذا المعنى ، فلأنّى مزينة يطاف به ويصلّى (٨١) إليه ويحج دون غيره
من البيوت ! وقول القائل : ما وَلَجَهَ اللَّهُ فِيهِ — كلام صحيح . وأما قوله ، ما خلا
منه — فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل وهو مناقض
لقوله ما لجه فيه ؛ وإن أراد به أن الاتخاد ملازم له ، لم يتبعده له ولو ج ولم يزل غير
حال فيه . فهذا ، مع أنه كفر وباطل ، يوجب الا يكون للبيت مزينة على غيره
من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندم كذلك .

— ١٣ —

الجزء الثالث من « عيون التوارييخ » لصلاح الدين محمد بن شاكر
الكتبي ، برقم ٤٤ تاریخ بالظاهرية بدمشق ورقة ٧ ب ، عن سنة ١٣٥ :
بعد أن أورد ما أورده ابن خلـكـان إلى ماجاه في عوارف المعرف من الشعر :
« قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة العدوية وهي جالسة على قطعة
بارية ، فتكلمت رجل عندها بشيء ، فجملت أسمع وقع دموعها على البارية مثل
الوَكَفْ . ثم اضطربت وصاحت فقمنا وخرجنا .

وقال محمد بن عمرو : دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت هانين
سنة كأنها السن تقاد سقط . فرأيت في بيتهما كواحد بواري ومشجب^(٢) قصب
فارسـيـ ، طوله من الأرض قدر ذراعين ، عليهـاـ أـكـفـانـهاـ ، وسترـالـيـتـ جـلـهـ^(٣) ،
وحبـ وـكـوزـ ولـبـ وـهـوـ فـراـشـهاـ وـهـوـ مـصـلـاـهـ . قال لهاـ رـجـلـ : ادعـىـ لـيـ ! فالتصقت
بالحانـطـ وقالـتـ : منـ أـنـاـ يـرـحـمـكـ اللـهـ ! أـطـعـ رـبـكـ وـاعـبـدـهـ وـادـعـوهـ ، فإـنـهـ يـحـبـ
المـضـطـرـ إـذـاـ دـعـاهـ .

(١) ص : عجوز (٢) ص : مشجب (٣) ص : جلد .

قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى : كانت رابعة محققة فطنة . ومن كلامها
الدال على قوتها همها قوله : أستغفر الله من قلة صدق في قولي أستغفر الله .
وكان سفيان يقول : صروا بنا إلى المؤذبة الذي لا أجد من أستريح إليه
إذا فارقتها .

وقد جمع ابن الجوزى أخبارها في كتاب .

وكانت وفاتها على قول ابن الجوزى (١٨) في هذه السنة . وقال غيره سنة
خمسة وثمانين ؛ وهي مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبورها يزار — رضي
الله عنها .

— ١٤ —

«مصارع العشاق» لأبي محمد جعفر بن أحد بن الحسين السراج القاري
طبع الجوائب سنة ١٣٠١ باستانبول

: (١) ص ١٣٦

«أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوزي بقراءتي عليه ،
قال أخبرنا محمد بن عبد الله القطبي ، قال حدثنا الحسين بن صفوان ، قال حدثنا
عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشي ، قال حدثنا محمد بن الحسين ، قال
حدثني عصام بن عمّان الحلبي ، قال حدثني مسعم بن عاصم قال :
قالت لي رابعة المدوية : اعتلت علة قطعني من التهجد وقيام الليل ، فككت
أياماً أقرأ جزئي إذا ارتفع النهار لما يذكر فيه أنه يعدل بقيام الليل . قالت : نعم
رزقني الله عز وجل العافية . فاعتادتني فترة في عقب الملة ، وكنت قد سكتت
إلى قراءة جزئي بالنهار ، فانقطع عن قيام الليل . قالت : فيينا أنا ذات ليلة راقدة
أربت في مناي كأن رفعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن . فيينا أنا

أجلول فيها أتعجب من حسنتها إذا أنا بطاراً أخضر وجارية نطارده كأنها تزيد
أخذه قالت : فشققني حسنتها عن حسنه . قلت : ما تريدين منه ؟ دعوه ! فوالله
ما رأيت طائراً قط أحسن منه . قالت : بلى ! ثم أخذت بيدي فأدارت بي في
تلك الروضة حتى انتهت بي إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت فتح لها ، ثم قالت :
افتتحوا لي بيت^(١) المقة ؟ قالت ففتح لها باب شاع منه شعاع استثار من ضوء
نوره ما يعين بيدي وما خلفي . وقالت لي : ادخل ! فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر
تلاؤناً وحسناً ، ما أعرف له في الدنيا شبيهاً أشبه به . فبينما نحن نجحول فيه
إذ رفع لنا باب ينفذ منه إلى بستان ؟ فاهوت نحوه وأنا معها . فتلقانا فيه وصفاء
كأن وجوهم اللؤلؤ ، بأيديهم الحجارة . فقالت لهم : أين تزيدون ؟ قالوا : نزيد
فلاناً ، قتل في البحر شهيداً . قالت : أفلات تجمر^(٢) هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان
لما في ذلك حظ فتركته . قالت : فأرسلت يدها من بيدي ثم أقبلت على^{*} قالت :

صلاتك نورٌ والمبادر رقودٌ ونومك ضدّ الصلاة عتيّدُ
و عمرك غنمٌ إن عقلت ومهلةٌ يسيرٌ ويغنى دانماً وينبئدُ
ثم غابت من بين عيني ؟ واستيقظت من تبدي الفجر . فوالله ما ذكرتها
فتوجهتها إلا طاش عقلى وأنكرت نفسي . قال : ثم سقطت رابعة مغشياً عليها .

(ب) وفي ص ١٨١ :

« أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوزي رحمه الله
بقراءتي عليه ، أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخي ميمى ، حدثنا الحسين بن صفوان ،
حدثنا عبد الله بن محمد القرشى ، حدثني محمد بن الحسين ، حدثني أبو معلم
صاحب عبد الوارث قال :

(١) في الطبوع : بيت لغة أقالت .

(٢) أجر التوب : بخزره بالطيب .

نظرت رابعة إلى رياح القيسى وهو يقبل صبياً من أهله وبضمته إلى الله فقالت :
ما كنت أحب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره . قال : فصاح رياح
وسقط مغشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمة منه
— تعالى ذكره — ألقاها في قلوب العباد للأطفال » .

— ١٥ —

للشيخ عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الأولياء »

رقم ٤٦٤ خط بالظاهرية بدمشق .

(١٠٤) رابعة المدوية :

القيسية ثم البصرية ، رئيس العابدات ورئيسة النساكـات الفاثـاتـاتـ الـخـالـفـاتـ الـوـجـلـاتـ . كانت في عصر الحسن البصري . وهي إحدى النساء الـلـاتـى تـقـدـمـنـ وـمـهـرـنـ فـالـفـضـلـ وـالـصـلـاحـ كـأـمـ أـيـوبـ الـأـنـصـارـيـ وـأـمـ الدـرـداءـ وـمـعـادـةـ الـمـدـوـيـةـ . وهي من يـنـهـنـ لـشـهـرـةـ بـعـلـيمـ النـسـكـ وـمـزـيدـ الـعـبـادـةـ وـكـالـنـزـاهـةـ وـالـزـهـادـةـ . كانت تصلى ألف ركعة في اليوم والليلة ، فقيل لها : مـاـ نـاطـبـينـ بـهـذـاـ ؟ قـالـتـ : لا أـرـيدـ بـهـ ثـوابـاـ وـإـنـاـ أـنـهـلـهـ لـكـ بـسـرـ رسولـ اللهـ يومـ الـقـيـامـةـ ، فـيـقـولـ لـلـأـنـبـيـاءـ اـنـظـرـوـاـ إـلـىـ اـسـرـأـةـ مـنـ أـمـتـىـ هـذـاـ عـلـمـهـاـ .

وـكـانـتـ تصـلـىـ اللـلـيـلـ كـلـهـ ؛ فـإـذـاـ طـلـعـ الـفـجـرـ هـبـتـ فـمـصـلـاـهـاـ قـلـيلـاـ حـتـىـ يـسـفـرـ
الـفـجـرـ ثـمـ ثـبـ (١) وـهـيـ فـزـعـةـ وـتـقـولـ : يـاـ نـفـسـ ! كـمـ تـامـينـ (٢) ! وـإـلـىـ كـمـ تـقـومـينـ !
يـوـشـكـ أـنـ تـنـاـيـ نـوـمـةـ لـاـ قـوـمـةـ لـاـ لـصـرـخـةـ يـوـمـ النـشـورـ .

وـكـتبـ محمدـ بنـ سـليمـانـ الـهـاشـمـيـ — وـكـانـ عـلـةـ مـلـكـهـ كـلـ يـوـمـ ثـمانـينـ أـلـفـ
درـمـ — إـلـىـ كـبـراـءـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ فـإـصـرـأـةـ يـتـزـوـجـهـاـ فـأـجـمـعـواـ عـلـىـ رـابـعـةـ ، فـكـتـبـتـ (٣) إـلـيـهـ :

(١) مـ: ثـبـتـ . (٢) مـ: ثـنـايـ . (٣) مـ: فـكـتبـ لـهـاـ — وـالـبـيـاقـ وـصـيـغـةـ
الـأـمـالـ تـقـضـيـ مـاـ أـنـبـتـهـ .

«أَمَا بَعْد ! فَإِنَّ الرَّهْدَ فِي الدُّنْيَا رَاحَةُ الْبَدْنِ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا تُورُثُ الْهُمَّ وَالْحُزْنَ ؛
فَهِيَ، مَزَادُكَ، وَقَدْمُ لِمَاعِدَكَ، وَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ، وَلَا تَجِدُ الرِّجَالَ أُوصِيَّا كَفِيفَتْسِمُوا
تَرْكَتَكَ، وَصَمَ الدَّهْرَ وَاجْفَلَ فَطْرَكَ الْمَوْتَ . وَأَمَا أَنَا فَلَوْ خَوْلَنِي اللَّهُ (٤٠ بـ)
أَمْثَالُ مَا خَوْلَكَ وَأَضْمَافُهَ، فَلَمْ يَسْرِنِي أَنْ اشْتَغلَ عَنِ اللَّهِ طَرْفَةً عَيْنَ وَالسَّلَامَ » .

وَمِنْ كَرَامَاتِهَا

أَنْ لَصَّا دَخَلَ حِجْرَتَهَا وَهِيَ نَائِمَةً، فَحَلَّ الثِّيَابُ وَطَلَبَ الْبَابُ فَلَمْ يَجِدْهُ
فَوَضَعَهَا فَوْجَدَهُ ؟ فَحَمَلَهَا، فَخَفَى عَلَيْهِ . فَأَعْادَ ذَلِكَ سَرَارًا . فَهَنَّفَ بِهِ هَاتِفٌ : دَعَ
الثِّيَابَ فَبَانَاهَا نَحْفَظُهَا وَلَا نَدْعُهَا لَكَ وَإِنْ كَانَتْ نَائِمَةً :

قالَ الْبُونِيُّ : وَهَذَا تَحْقِيقُ التَّسْكِينِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ مَعْقِبَاتِ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوهُنَّهُ »^(١) . الآية .

وَخَاطَطَ بِعْضِ قَيَصِّهَا فِي ضَوْءِ مَشْعَلَةِ سُلْطَانِيَّةٍ ، فَفَقَدَتْ قَلْبَهَا زَمَانًا حَتَّى
تَذَكَّرَتْ، فَرَزَقَتِ الْقَمِيصُ ، فَمَادَ قَلْبَهَا .

وَسَئَلَتْ : مَتَى يَكُونُ الْعَبْدُ رَاضِيًّا ؟ فَقَالَتْ : إِذَا سَرَتْهُ الْمَصِيرَةُ كَمَا سَرَتْهُ النَّعْمَةُ .
وَكَانَتْ شَدِيدَةُ الْخُوفِ جَدًا ، فَإِذَا سَمِعَتْ ذَكْرَ النَّارِ أَغْمَى عَلَيْهَا . وَكَانَتْ تَقُولُ :
لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا لِرَجُلٍ ، مَا كَانَ بِهَا غَيْرًا . قِيلَ : كَيْفَ ؟ قَالَتْ : لَأْنَهَا تَفْنِي .
قَالُوا : مَكْثُثَةً أَرْبَعِينَ سَنَةً لَا تَرْفَعُ رَأْسَهَا حَيَاةً مِنَ اللَّهِ .

وَكَانَتْ تَقُولُ : مَا سَمِعْتُ الْأَذْنَانِ إِلَّا ذَكَرْتَ مَنَادِيَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ وَمَا رَأَيْتَ
الثَّلْجَ إِلَّا ذَكَرْتَ نَطَارِيَ الصَّحْفَ ؟ وَمَا رَأَيْتَ الْجَرَادَ إِلَّا ذَكَرْتَ الْحَشَرَ .

وَقَالَتْ : اسْتَفْقَارَنَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتَفْقَارٍ لِعَدْمِ الصَّدْقِ فِيهِ .

وَذِمَّ بَعْضِهِمُ الدُّنْيَا فَقَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ أَحْبَبَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذَكْرِهِ ؟
ذَكْرُكُمْ لَهَا دَلِيلٌ عَلَى بَطَالَتِهِ قَلْوبُكُمْ ، إِذَا لَوْ كُنْتُمْ غَرِقًا فِي غَيْرِهَا مَا ذَكَرْتُمُوهَا .

(١) سورة الرعد : ١٢ .

وأنها رجل بأربعين ديناراً فقال: استعیني بها على بعض حوانبك! فبكت
نُم رفت رأسها إلى السماء، ثم قالت: هو يعلم أنى أستعیني (١١٥) منه أن
أسأله الدنيا وهو يملّكها، فكيف آخذها من لا يملّكها؟
وكانت إذا قال لها إنسان: ادع^(١) لي! ترتد وتقول: من أنا؟! أطعْ
ربك وادعه فإنه يحب المضطر.

وقيل لها: عملت علاترين أن يقبل منك؟ قالت: إن كان، خوف أن
يرد على وأخذ سفيان بعض إخوانه وقال: نذهب إلى المؤذنة التي لا أحد أستريح
إليه إذا فارقها. فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال: اللهم إني أسألك السلامة!
فبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: عرضتني للبكاء. أما علمت أن السلامة من
الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت ملطخ بها؟! قالت: إنما أنت أيام معدودة؟
 فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل؛
وأنت تعلم فاعمل. وقال لها: ماحقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره،
ولا حباً لجنته، فـأكون كالأخير السوء — عبدته حباً وشوقاً إليه.

وقال مالك بن دينار: أتيتها فإذا هي تقول: كم من شهوة ذهبت لذتها
وبقيت تبعتها! يارب! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار؟!

ومن مناجاتها

إلى: تحرق بالنار قلباً يحبك؟ فقيل لها: لاتنظني بنا ظن السوء. وكانت تنشد:
إني جعلتك في الفؤاد محدني وأبحث جسدي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيبي قلبي في الفؤاد أنيسي
وكانت كل ليلة تتطيب وتتأني زوجها وتقول: ألاك حاجة؟ فإن كان له
قضى وطره، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح.

(١) ص: أدع.

وكان كفتها لم يزل عندها ؟ وبخدون محل سجودها كلامه المتتفق من كثرة
البكاء . (١٠٥ ب)

وقال لها رجل : إني أكثرت من المعاصي ، فلو تبت هل يتوب على ؟ قالت :
لا بل لو تاب عليك تبت : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » (١).

وسمعت سفيان الثوري يقول : واحزناه ! فقالت : لا تكذب ! قل : وائلة
حزنناه ! لو كنت حزيننا ما هنأنا عيش .

وقالت له مرة : نعم الرجل أنت لولارغبتك في الدنيا ! قال : فيما ذار غبتك ؟
قالت : في الحديث .

ومررت فقال لها عوادها : ماسبب علتكم ؟ قالت : نظرت بقلبي إلى الجنة
فآذاني . فبكت أن لا أعود .

ومن كراماتها : أنها زرعت زرعاً فوقع عليه الجراد فقالت : إلهي ! رزق
تكلفت به ، فإن شئت فأطعمه أعدامك وأولياءك . فطار الجراد كأنه لم يكن .
وحجبت على بعير فات قبل بلوغها لمنزلها . فسألت الله أن يحييه . فركبت حتى
وصل إلى باب دارها فخرميتاً .

وقالت سفيان الثوري : ما تعددون السخاء فيكم ؟ قال أما عند أبناء الدنيا
فنيمود بالله ، وعند أبناء الآخرة من يمود بنفسه . قالت : أخطأتم . قال لها :
فا السخاء عندكم ؟ قالت : أن تعبده حباً له لا طلب جزاء ولا مكافأة .

وضرب رأسها ركن جدار ، فأدماه ، فلم تلتقط لذلك . قتيل لها : ماتحسين
بالألم ؟ قالت : شفلى بموافقة مراده فيها جرى شفلى عن الإحسان بما ترون .

وسمعت قارئاً يقرأ : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » (٢) » قالت :
مساكين أهل الجنة في شغلهم هم وأزواجهم ! وعاب عليها ابن عربي هذه المقالة

(١) سورة التوبة : ١١٩ . (٢) سورة يس : ٥٥ .

[١٠٦] وقال: إنها ماعرفت ، وإنما المسكينة: فإنما شغلهم إنما هو بالله . قال: وهذا من مكر الله الخفي بالعارفين في تجريح الغير ببادي الرأى والتعريض في حق نفوسهم؛ إنهم متزهون عن ذلك . لكنه مع ذلك بالغ في موضع آخر في مدحها وقال: إنها في رتبة الشیخ عبد القادر الجيلاني ، فقال: السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين: طائفه ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منهاً ومعلمًا بالطريق الموصولة إلى جناب الحق، فإذا أعطي العلم بذلك زال من الطريق وخل بينهم وبين الله؟ فهو لا ، إذا سارعوا سابقاً إلى الخيرات ، لم يروا أمامهم قدم أحد من الخلقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفه الأخرى جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول بين أيديهم . هكذا قال ، ثم قال: والحالة الأولى هي حالة عبد القادر وأبي السعود بن شبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراماً - إنهم . قال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها في النوم تقول: هداياك ثانية على أطباق من نور ، محمرة بمناديل من نور .
مائة سنة مئتين ومائة ، وقيل غير ذلك .

ورأتها خادمتها فقالت: مريني بأمرٍ أقرب به إلى الله! قالت: عليك بكثرة ذكره ، أوشك أن تقططي به في قبرك .
وقد أفرد ابن الجوزي لمناقبها وكلامها مؤلفاً حافلاً .

رابعة بنت اسماعيل العدوية

ورابعة هذه بمنشأة تحنيه ، وهي شامية ؛ والتي قبلها بمودة [١٠٦ ب] تحنيه وهي بصرية^(١) — فافترقا . كانت تقوم الليل كله وتقول: إذا عمل عبد

(١) مصريه .

بطاعة الله أطلمه على مبادئه عمله فاشتغل بها دون الخلق . وقالت : ماسمت أذاناً قط إلا ذكرت منادي يوم القيمة ؟ ولا ذقت حرراً إلا ذكرت حر الخضر . وكانت ترى الجن عياناً . وقالت : رأيت الحور العين فتسترن مني بأكاليمهن . ورائعة هذه كانت زوجاً لابن أبي الحواري . قال : قلت لها وقد قامت بليل : قد رأينا أبو سليمان^(١) وتبعدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل . فقالت : سبحان الله ! ملوك يتكلم بهذه ؟ إنما أقوم إذا نوبيت .

قال : وجلست آكل ، وجلست تذكرنى . قلت : دعينا بهنينا طعامنا . قالت : ليس أنا وأنت من يتغنى عليه الطعام . وقالت لي : أى أخي ! أعلم أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلمه على مساوى عمله ، فتشاغل به دون خلقه ! وكانت لها أحوال شتى : فرة يغلب عليها الحب ، ومرة الأنس ، ومرة الخوف . وكانت تقول : إني لأضن باللهم الطيبة أن أطعمها نفسي ، وإنى لأرى ذراعي قد سمن فأحزن .

وكان إذا أراد زوجها جاءها نهاراً ، قالت : أسألك بالله لا تفطرني اليوم . وإذا أراد ليلاً قالت : أسألك بالله إلا ما وهبته الله الليلة .

ومن كراماتها

أنها قالت : نَحْوَاهُ^(٢) عَنِ الطَّشْتَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ : مات هارون الرشيد . فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم .

ودعاها زوجها يوماً فلم تجبه ؛ ثم بعد مدة أجبتها وقالت : إنما معنى أن أجيبك أن قلبك كان امتلاكاً فرحاً بالله ؟ فلم أقدر أن أجيبك .

ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفعت برأس زيتاً بيت المقدس . وقيل

[١٠٧] المدفونة هناك إنما هي الأولى .

(١) يقصد أبو سليمان الداراني (٢) من : نحو عنى .

رياح بن عمرو القيسى

(١٠١ ب) صاحب المجد والغخر ؛ الفانة لله في السر والجهر . كان للدنيا قالياً ؛ ومنها هارباً ؛ وفي الآخرة راغباً ، ولها خاططاً بمطرا حال الكلف ، راقياً بهمته إلى أعلى الغرف .

وكان إذا دخل المسجد بكى ؛ وإذا دخل بيته بكى ؛ وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرك في مأتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنب أن يكونوا هكذا . واتخذ علا من حديد ، فإذا جنَّه الليل وضعه في عنقه وتضرع وبكي حتى يصبح .

وقال الحارث بن سعيد : أخذ رياح بيدي وقال : هل بكى على عمر الساعات . - ونحن على هذه الحال فخر جنا إلى القابر . فلما نظرها صرخ ، فأغنى عليه ، فقدمت عند رأسه أبكى . فأفاق فقال : ما يكيك ؟ قلت : ما أرى بك . قال : لنفسك ثابك . ثم قال : وانفاساه ! فتشى عليه وسقط .

ومن كلامه : شأن العاقل أن لا يجعل لبطنه على عمله سبيلاً : فإن الدنيا أيام قلائل . وقال : إياكم والإكثار من اللحم ، فإنه يقسى القلب . وقال : تحويل جبل من مكانه أسهل من إزالة حب الرئاسة إذا استحكم . وقال : نحت الجبال بالأظفار أسهل من مخالفة الموى إذا تمكن . وقال : رحم الله إخواننا زادوا قبور إخوانهم بقلوبهم وهم في حماريهم [١١٠٢] . وقال : إذا قال رفيقك « قصصتني » فليس برفيق حتى يقول : قصصتنا . وقال : كما لا ينظر بصر الخفافش نور الشمس ، لا ينظر قلب محب الدنيا نور الحكمة .

وقال : عليك ب مجالس الذكر وحسن الظن بمولاك ، وكفى بهما خيراً .
وقال : مما أوصى به الخضر عليه السلام مومي : إياك أن تتعلم العلم لغيرك

فلا تعمل به ، فيكون لغيرك نوره وعليك وزره . وقال : لا يبلغ رجل منزلة الصديقين حتى يدع زوجته كأنها أرمدة وأولاده كأنهم أيتام^(١) ويأوى مزابل الكلاب . وكان أدمه اللح والخبز ؛ ويقول لنفسه : أمامك طعام العز والجاه والعمرس في الآخرة .

— ١٦ —

الطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٥٩ - ص ٧٣ نشرة نيكلسون

رابعة العدوية

إنها ذات الخدر انلناس ، المستورة بستر الإخلاص ، المقددة بنار العشق والاشتقاق ، المترعرقة إلى القرب والاحترام ، الفانية في الوصال ، القبولة عند الرجال ، كأنها مريم ثانية ، صافية صافية ، إنها رابعة العدوية — رحمة الله عليها .

فإن سألني أحد : لم ذكرتها في صف الرجال ؟ لقلت لهم : قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام : إن الله لا ينظر إلى صوركم الحديث . فالعبرة لا بالصورة ، بل بالنية كما قال عليه السلام : « يخسر الناس على نياتهم » . فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصديقة — رضي الله عنها — ثلث الدين ، فمن الجائز أن تتلقى فائدة دينية من إحدى خادماتها (أى رابعة) . إن المرأة التي تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال لا يمكن أن تسمى امرأة . ولقد قال عباس الطوسي : إذا دعينا يوم القيمة : « يا رجال » فأول متقدم في صف الرجال (أى الداخلين إلى الفردوس) سيكون مريم عليها السلام . وكان الحسن إذا لم يرها في المجلس حاضرة ترك المجلس — ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال في القداسة)

(١) ص : أيتاما .

أنه حيث يوجد الصوفية فلاته ريق بينهم في وحدة الوجود (الإلهي)، ففي التوحيد ماذا يبقى من وجود «أنا أو أنت»؟ وإذن كيف يكون ثمة امرأة ورجل؟ كذلك قال أبو علي الفارمذى رضى الله عنه : إن النبوة عين العزة والرفقة؛ فليس فيها سمو وأنحطاط . ولا ريب في أن الولاية من هذا النوع .

لقد كانت رابعة فريدة في معاملتها (مع الله) وفي معرفتها ، وكانت معتبرة في جملة كبار عصرها ، وكانت حجة قاطعة عند معاصرها . وفي الليلة التي أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكن في بيت أهلها شيء ، لأن أباها كان فقيراً لم يكن عنده قطرة من سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمة نور ولا خرق للف الوليد ، وكان له ثلاثة بنات فسميت «رابعة» لأنها رابعهن . فقالت له امرأته : اذهب للجيران وأنت بقطرة من الزيت حتى يضي . القنديل ، ولكنكَه كان قد عاهد نفسه على ألا يطلب من الناس شيئاً ، لأنَه لو طلب شيئاً ما أعطوه . مع هذا ذهب إلى الجارة وطرق الباب ، ثم عاد إلى زوجه وقال إنه لم يفتح له . فبكَت . وفي ذلك الوقت أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي عليه السلام في منامه وقال له الرسول : لاعليكُ ، لأن هذه البنت التي ولدت هي سيدة ؛ إن سبعين ألفاً من أمتي ليرجون شفاعتها . وقال له : اذهب غداً ليعسى زادان أمير البصرة وأكتب له ورقة وقل له : إنك تصلي مائة صلاة وفي ليلة الجمعة أربعين ، ولكن في يوم الجمعة الأخير نسيتني ، فادفع كفارنة أربعين دينار حلال لهذا الشخص . فلما أفاق والد رابعة من نومه كتب الرسالة وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير . فلما قرأها الأمير قال : أعطوا ألفى دينار للدراويش وأربعين لشيخ وقولوا له أن يأتي إلى لأراه ؟ كلام لا أرى من المواقف أن يأتي إلى ، بل ماذهب إليه أنا ، وأخنى لحيتي على اعتابه وأمسحها بها ، وأطلب من الله كل ما تريده ، وأشتري من فاخر الثياب وكل شيء تريده (الفتاة) .

فَلَمَّا كَبُرْتُ وَتَوَفَّيْتُ أُمِّهَا وَأَبَوِهَا حَدَثَ فِي الْبَصَرَةِ قَحْطٌ ، وَنَفَرَتْ أَخْوَاتِهَا .
فَلَمَّا خَرَجْتُ رَابِعَةً تَهِيمَ عَلَى وَجْهِهَا رَآهَا ظَالِمٌ وَبَاعَهَا بِسْتَةِ دِرَاهِمٍ ، وَمِنْ اشْتَرَاهَا
أَثْقَلَ عَلَيْهَا الْعَمَلِ . وَذَاتِ يَوْمٍ جَاءَ رَجُلٌ غَرِيبٌ فَهَرَبَتْ وَسَارَتْ فِي طَرِيقِهَا ، ثُمَّ
أَرْتَتْ عَلَى التَّرَابِ وَقَالَتْ : يَا رَبِّي ! أَنَا غَرِيبَةٌ وَيَتِيمَةٌ وَأَسِيرَةٌ وَقَدْ صَرَّتْ عَبْدَةً ،
لَكِنْ غَنِيُّ الْكَبِيرِ هُوَ أَنْ أَعْرِفَ أَرْضَ عَنِّي أَنْتَ أَمْ غَيْرَ رَاضٍ ؟ فَسَمِعَتْ صُوَتاً
يَقُولُ لَهَا : «لَا تَحْزِنْنِي ، لَأَنَّهُ فِي يَوْمِ الْحَسَابِ [٦١] الْقَرْبَوْنُ فِي السَّمَاءِ يَنْظَرُونَ
إِلَيْكَ وَيَحْسُدُونَكَ عَلَى مَا أَنْتِ فِيهِ» .

وَبَعْدَ أَنْ سَمِعَتْ هَذِهِ الصَّوْتَ ذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِ سَيِّدِهَا ، وَصَارَتْ تَصُومُ وَتَخْدُمُ
كُلَّ يَوْمٍ ، سَيِّدَهَا وَتَصْلِي لَرِبِّهَا ، سَاهِرَةٌ عَلَى قَدْمِهَا . وَذَاتِ لَيْلَةٍ اسْتَيْقَظَ سَيِّدَهَا
مِنِ النَّوْمِ وَنَظَرَ مِنْ خَوْخَةٍ فِي الْبَابِ ، فَرَأَى رَابِعَةَ سَاجِدَةً وَهِيَ تَقُولُ : «إِلَهِي ! أَنْتَ
تَعْرِفُ أَنْ قَلْبِي يَعْنِي طَاعَتَكَ ، وَنُورُ عَيْنِي فِي خَدْمَةِ عَبْتِكَ . وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ يَرِيدُ
لَمَا تَوَقَّتْ سَاعَةً عَنْ خَدْمَتِكَ ، لَكِنَّكَ تَرَكْتَنِي تَحْتَ رَحْمَةِ هَذَا الْخَلْقِ» . وَيَنْبَغِي أَنْ كَانَتْ
لَا تَرْزَالَ تَصْلِي ، شَاهِدَ قَنْدِيلًا فَوقَ رَأْسِهَا ، مَعْلَقاً ، بَدْوَنْ سَلْسَلَةٍ ، وَكَانَ النُّورُ يَمْلِأُ
الْبَيْتَ كَلْهُ . فَلَمَّا رَأَى سَيِّدَهَا هَذِهِ النُّورَ الْعَجِيبَ فَرَغَ وَنَهَضَ ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَانِهِ وَظَلَّ
يَفْكِرُ حَتَّى طَلَمَ النَّهَارَ . هَنَالِكَ دُعَا رَابِعَةُ وَحْدَهَا بِلَطْفٍ وَأَطْلَقَ سَرَاحَهَا قَائِلاً :
يَا رَابِعَةُ ! لَقَدْ أَعْتَقْتَ حُرَّةً ، فَإِذَا شَتَّتَ بَقِيَّتْ هَنَا وَسَنَكُونَ جَيْعاً فِي خَدْمَتِكَ ؟
وَإِذَا لَمْ تَشَأْنِي أَذْهِبِي أَنِّي شَتَّتَ . فَوَدَعَتْ رَابِعَةَ وَارْتَحَلَتْ وَانْقَطَتْ لِلتَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ .
وَيَقَالُ إِنَّ رَابِعَةَ كَانَتْ نَصْلِي كُلَّ يَوْمٍ وَإِلَيْهِ أَلْفُ رَكْكَةٍ ؛ وَكَانَتْ تَرْتَدِدُ عَلَى
الْحَسَنِ الْبَصَرِيِّ . وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى أَنَّهَا كَانَتْ تَضَرِّبُ عَلَى النَّازِي (وَكَرْوَهِي
گُونِيد در مطربی أَفْتَاد) مَدَةً مَا ، ثُمَّ تَابَتْ وَابْتَنَتْ لِنَفْسِهَا خَلْوَةً انْقَطَعَتْ
فِيهَا لِلْعِبَادَةِ .

وَذَاتِ يَوْمٍ ارْتَحَلَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ وَكَانَ لَهَا حَمَارٌ حَلَّتْهُ مَتَاعَهَا . فَنَفَقَ الْحَمَارُ ،

قال من بالقافلة : « سنحمل متعالك على دوابنا . — قالت رابعة : ما كان اعتمادك علينا أتيت ، بل ثقى بالله تعالى . فارحلوا إفن ». فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله فائلة : « إلهي ! أكذا يفعل الملوك بسيدم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتني إلى زيارة بيتك ، وها أنت ذات دفع حارى ينفق في الصحراء وتتركني في الخلاء وحيدة ! » فما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متعالها واستمرت في طريقها ولحقت بالقافلة . ويقال إنها كانت في طريقها إلى الكعبة ذات يوم ، فبقيت وحدها في الصحراء . وقالت : « إلهي ! ابن قلبي مضطرب وسط هذه الدجالة . أنا ابنة والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! » فنادتها حينئذ صوت من عند الله تعالى يقول : « يا رب ، أتملين وحدك ما يقتضي دم الدين؟ لما أراد موهي أن يشاهد وجهنا ، لم ناق إلا ذرة من نورنا على جبل نفر صعقاً . »

ويروى مرة أخرى أنه لما كانت رابعة بسبيل الحج رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء . قالت رابعة : [٦٢] « لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشا أن تنظر إليها .

وكان إبراهيم بن أدم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لأنه كان في كل خطوة يصل ركتين . وكان يقول : « غيري يسلك هذه الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكها على رأسي ». وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجد لها في مكانها . فقال نائماً : « وأسفاه ! أصرت أعمى حتى لا أرى الكعبة ؟ » فسمع صوتاً يقول : « يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة ». فثار إبراهيم ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها . وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : « أى رابعة ! هكذا قال لها ، ما أجل عملك وما الضجة التي تحدثينها في الدنيا ! الكل يقولون : ذهبتك الكعبة للقاء رابعة ». فأجابته رابعة : شهيدة م — ١٠

يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت في الدنيا بأن أمضيت أو بعين سنة حتى بلغت هذا المكان ، لأن الكل يقولون : إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصل ركعتين .
فقال إبراهيم : نعم ! قد أمضيت أو بعين سنة في اختراق هذه الصحراء . فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلة وأنا جئت بالفقر » ؟ وبكت طويلا .
وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة . وفي وثبة من قلبها صاحت : « إلهي وعدت بمحاجتين لشتيين : القيام بالحج ، والصبر على الشدائدين . فإذا لم يكن حجى صحيحًا عندك ، فما أكبّرها مصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ »

وفي السنة التالية قالت : « إذا كانت الكعبة قد أقبلت إلى في العام الفائت أنا التي سأقبل عليها هذا العام ». وروى الشيخ أبو علي الفارمذى أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة ، في سبعة أعوام . فلما بلغتها سمعت صوتا يقول لها : « ماذا تريدين يا رابعة ؟ إذا كنت تريدينني فسأجلّ لك بكل جلالي فتدويني توأً كما يذوب الماء — فأجابت : إلهي ! ليس لي من الطاقة ما يبلغني هذه الرتبة . ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحي ». فقال الصوت : « أى رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها في طريق الأولياء ، لكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلا قيد الشارة فقد يحدث أن يفسد أسم في الحال وينحو عن الغاية . أما أنت ، فلا تزالين في داخل السبعين حجاباً أو مقاماً . فطالما لم تخرجي من تحتها وتضمني قدمك في طريقنا ، لن تقدر على الحديث عن الفقر — فقال صوت : « يا رابعة ! انظري إلى الأعلى ! ! فلما نظرت إلى الأعلى ، رأت بحراً من الدم معلقاً في الهواء وصاح له صوت : يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحببنا وسموا إلينا . ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثغر في هذا العالم أوف الآخرة — فقالت رابعة : إلهي ! دعني أرى أرى مثلًا على درجة السعادة التي

يصل إليها هؤلاء المشاق ». فما أنتهت هذه العبارة حتى أتتها الحميم وصارت غير طاهرة . وفي نفس الوقت ناداها صوت يقول : « إن المرتبة الأولى التي يبلغها العشاق يمثلها تماماً إنسان تقلب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من الآلين ، ولما اقترب من هذا الجدار أغاث الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه ». فلما يئست رابعة قالت : « إلهي ! لاتدعني كي أبقى في بيتي ، ولا تريد أن تقبلني في بيتك ؟ فاما أن تدعني أقيم هادئة في بيتي بالبصرة ، أو اسمح لي أن أدخل الكعبة ، وهي منزلك . لقد فتشت عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة ؛ دعني إذن أذهب فلست جديرة بدخول بيتك ». ثم عادت إلى البصرة ؛ وأقامت في خلوتها وانقطعت بكلام نفسها للعبادة .

ويرى أن عالين ذهبوا لزيارة رابعة ؛ وكانا جائعين ، فقدمت لها رغيفين كانا عندها . وفي تلك اللحظة جاء شيخ يسألها على الباب ، فقدمت إليه الرغيفين . فدهش العالدان وجلاسا يتأملان ما جرى . فشاهدوا خادمة تحمل مفرشاً من الخبز وضعته أمام رابعة وقالت « إن سيدتي في خدمتك ». فلما عدت رابعة للأرغفة وجدتها ثمانية عشر . فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش وقالت : « خذيهما وأذهبيه ؛ لقد أخطأت المدد ». — قالت الخادمة : « كلا لم أخطيء ». — قالت رابعة : « كلا ، بل ثمت خطأ ». فأخذت الخادمة المفرش وذهبت إلى سيدتها ، وروت لها كل ما حادث . فوضعت السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرغفة وأرسلتها . فأخذت رابعة عددها فوجدها عشرين ، وضعتها أمام ضيوفها من العالدان . فلما فرغوا من الطعام سألاها السر فيما حدث . فأجابت رابعة : « لما وصلتم عرفت أنكم جائعون فقلت لنفسي : ليس عندي إلا القليل . وفي تلك اللحظة جاء السائل الذي أعطيته الرغيفين ثم دعوت هذه الدعوة : إلهي ! لقد قلت : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »^(١) ».

وأنا من أجلك أعطيت رغيفين ، فاعطني عشرة من كل واحد . فلما جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيفاً قلت لنفسي : إما أن يكون أحد الناس قد أخذ منها اثنين ، و إما ألا تكون لنا . ورددتها . فلما أعادتها بزيادة رغيفين ، فهمت أن هذه لنا ». وذات ليلة كانت رابعة تهجد ، فدخلت قصبة في عندها دون أن تشعر بها لأن عشقها لله كان متأصل في أعماق قلبها !

ويمكى كذلك أن لصاً دخل بيت رابعة ، وسرق خارها ، ولكنه لم يجد مخرجاً ؛ لكن لم يكدر يدع الخمار في مكانه حتى وجده المخرج . فأخذ الجار من جديد ، لكن السبيل أغلاق عليه . وفضل هذا سبع مرات : يأخذ الخمار ولا يجد المخرج ، إلا إذا أعاده إلى مكانه . هنالك ناداه صوت يقول : « بالص ! لا جدو في محاولاتك ، فمنذ عهد طوبيل ورابعة قد وكلت إلينا السهر عليها ولأنسح بدخول إبليس في خلوتها . وأنت أيها اللص ! تزيد أن تسرق خارها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقي أنه حينما يكون أحد أحبابنا غارقاً في النوم ، هناك صديق يسهر على أمره » .

كما يروى أن خادمة رابعة كانت تهوي . طماماً بالزينة لسيدتها . فلم يكن عندها بصل ، فقالت لها : « سأسأل جارتنا وأعود » . — فقالت رابعة : منذ أربعين سنة وقد عادت الله على ألا أسأل أحداً شيئاً غيره . فإذا لم يكن ثمة بصل ، فلا ضير ». وفي الحال تبدى طائر يحمل بصلة قشره وقطمه قطماً وأنقى به في المقلة فلم تأكل رابعة من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، ثم قالت : « يجب على المرأة ألا يفتر بمحيل الشيطان » .

ويروى أيضاً أن رابعة صعدت جبلاً فأقبلت حولها كل الفزلان الموجودة ؛ وبقيت آمنة كل الأمان . وفجأة جاء الحسن البصري فقررت كل الفزلان ، فقال لها : « يا رابعة لماذا فرت كل الفزلان مني ، ولم تفر منك أنت ؟ فسألته : لماذا

أكلت اليوم يا حسن؟ — أكلت طعاماً طهني بقطعة زيت — فقالت رابعة:
يا من تأكل من دهنها كيف تريد إلا تفر منك؟ »

ويحكى أن الحسن البصري رأى رابعةجالسة على شاطئ الفرات فألقى على
الماء سجادته ووقف عليها وقال : يا رابعة ! تعالى نصل ركتعين على الماء —
فقالت : سيدى ! أهى أمور هذه الدنيا ما ت يريد أن تظهره لأهل الآخرة؟ أظهر لنا
 شيئاً لا يستطيع جهور الناس أن يفعلوه ». قالت هذا وألقت سجادتها في الماء
وصعدت عليها وصاحت : « تعال يا حسن ! نحن هنا في مكان آمن وأبعد عن
عيون الناس ». وقالت تعزية للحسن : « سيدى ! ما فعلت أنت يستطيع السمك
أن يفعله ، وما فعلت أنا لا يستطيع الذباب أن يفعله . المهم أن نبلغ درجة أعلى من
هاتين الدرجتين اللتين بلغناها » .

ويروى أن الحسن البصري قال : « بقيت ليلة ويوماً عند رابعة تتحدث
عن الطريق الروحي وأسرار الحق بحرارة بلغت حدّاً نسياناً معه أنتي رجل وأنها
امرأة . فلما انتهينا من هذه المناقشة ، شعرت بأنني لم أكن إلا فقيراً ، بينما هي
غنية بالإخلاص » .

ومرة أخرى ذهب الحسن البصري وبعض أصحابه إلى رابعة . وكان الوقت
ليلاً ، فاختاجوا إلى مصباح فلم يجدوا . هنالك وضعت رابعة أطراف أصابعها في فمها
ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع التجر نور كأنه نور مصباح . فبأن سأل
أحد كيف حدثت هذه الكرامة فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى .
فإذا قيل لك إن موسى — عليه السلام — كاننبياً وأن رابعة لم تكننبية ، فأجب :
إن من ينفذ الأوامر التي أتى بها الأنبياء يشاركون قدرتهم على الإتيان بالمعجزات ؟
فإذا كان للأنبياء معجزات ، فإن للأولياء كرامات . وهذهحقيقة يؤيدها
حديث الرسول عليه السلام حين قال : « من رد دانفاً — وهو سدس الدرهم —

من الحرام ، فقد نال درجة النبوة^(١) ، أو « الرؤيا الصادقة جزء من النبوة » [٦٦].
ويحكي أن رابعة أرسلت إلى الحسن البصري ثلاثة أشياء : قطعة شمع وإبرة
وشرة وأمرت الرسول أن يقول له : يا حسن ! اشتغل كالشمع وأضي للناس ؛
وابداً بأن تكون متجرداً ثم أعمل ؛ فإن فلت هذين ، صرّ خيلاً كالشعرة إذا
أردت ألا يذهب جهلك سدى ـ .

وسألها الحسن البصري هل تتزوجين : فأجابت : « الزواج ضروري
لمن له الخيار ؟ أما أنا فلا خيار لي في نفسي ؟ إني لربى وفي ظل أوامره ،
ولا قيمة لشخصي . — قال الحسن : فكيف بافت هذه الدرجة ؟ — بفتانى
بالكلية — قال الحسن : أنت تعرفين لماذا ؟ أما نحن فلا يوجد لنا هذا » . ثم
أضاف : « أى رابعة ! أخبريني بشئ ما أهتم به — فأجابت رابعة : ذهبت
اليوم إلى السوق وهي حزمتان من الحالب بعثتها بمقابلين من الذهب حتى أحصل
على طعام . وأخذت إحدى القطعتين في كاتنا اليدين مخافة أنى لو أمسكت بهما
مما جعلاني أضل الطريق القويم ». وقال لها الحسن أيضاً : « لو كنت في الجنة
بعيداً قدر نفس من وجه الله لكىت إلى حد يثير شفقة الآخرين على . — فقالت
رابعة ! حسناً ؟ لكن من يحمل في هذه الدنيا أو يسبح بحمد الله لحظة وهو
ينوح ويبكي فإن هذا آية على أنه في الآخرة سيكون على الحال التي وصفتها » .

وسئلته : « لماذا لا تتزوجين ؟ — فأجابت : هناك ثلاثة أشياء تسبب
الممّ عندى ؛ فإذا كان من يخلصنى منها تزوجت . — وما هي ؟ — فأجابت :
أولها : هل إذا أنا مُتُّ أستطيع أن أتقدم بإيمانى ظاهراً ؟ والثانى إذا ما كنت
سأعطي كتابى يوم القيمة . والثالث إذا جاء يومبعث وأخذ أصحاب
الميمنة إلى الجنة وأصحاب الشامة إلى السعير ، فمن أى الفريقين سأكون ؟ — .

(١) بنصه العربي في الأصل .

قالوا جيماً : لسنا نعرف شيئاً عما سأله . — قالت : إذا كان الأمر كذلك ، وأنا في قلق من هذه الأمور ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأنفرغ له ! ؟ — وسئلته : « من أين أتيت ؟ — من العالم الآخر — وإلى أين تذهبين ؟ — إلى العالم الآخر — وماذا تفعلين في هذه الدنيا ؟ — أبعث بها : — وكيف تعيشين بها ؟ — آكل من خبزها وأعمل عمل الآخرة ». وسئلته أيضاً : « إنك بارعة في الكلام ، أفلأ تصلحين حراسة رباط ؟ — قالت : إنني حارسة رباط فعلاً ، لأنني لا أدع شيئاً يخرج مما في داخلي ، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج ». وسئلته : « أى رابعة ! أنجحين الله تعالى ؟ — أوه ! نعم أحبه حقاً . — وهل تكرهين الشيطان ؟ — إن حبي لله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان . » ويروى أن رابعة رأت الرسول — عليه السلام — في النام ، وهو يسلم عليها ويقول : « يا رابعة ! أنجحيني ؟ — قالت : يا رسول الله ! وهل ثمت من لا يحبك ؟ لكن حبي لله تعالى قد ملا قلبي إلى حد لم يجعل هناك لحبة غيره أو كراهيته . »

وسئلته رابعة : « أترى من تعبدني ؟ — فأجبت : لو كنت لا أراه لما عبده ». ويروى أنها كانت دائم البكاء ، فسئلته لماذا كل هذا البكاء ، فأجبت : « أخشى إلا ينادي صوت في اللحظة الأخيرة ويقول : إن رابعة ليست جديرة بالثواب في حضرتنا ». وألقي عليها هذا السؤال : « إذا تاب أحد من عباد الله أقبل توبته ؟ — إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة ، فكيف يتوب ؟ وإذا تاب عليه ، فلا شك في أنه سيقبل توبته ». وقالت أيضاً : « ليس من المستطاع أن تميز بالنظر المقامات المختلفة في الطريق إلى الله ، ولا أن تصل إليه بالسان . فلتجمل قلبك مستيقظاً . فإذا استيقظت ، رأيت بعيونه الطريق وكان في وسعك بلوغ المقام ». وقالت أيضاً : « إن ثمرة العلم الروحي هو أن تصرف وجهك

عن الخلق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هي معرفة الله ». .
ويحكي أن رابعة رأت رجلا عصب رأسه فسألته: « لماذا عصبت رأسك —
فأجاب: لأنه يئنني — قالت رابعة: ما عمرك . — ثلاثة وعشرين عاماً . — وخلال
هذه الأعوام الثلاثين هل كنت في غالب أحوالك سليماً أو مريضاً؟ — كنت
في الغالب سليماً . — ولما كنت سليماً ، هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة ،
حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألم يوم وتعصب رأسك هكذا؟! »
ويحكي أن رابعة كانت تعتكف بيان الصيف في بيت منعزل لا تفارقه .
فتالت لها خادمتها: « سيدتي ! غادرى هذا البيت وتعالى تأمل آثار قدرة الله
تعالى . — فأجابتها: بل أدخلت أنت وتعالى تأمل القدرة في نفسها » وأضافت:
« إن موتي أنا هي أن أتأمل القدرة » .

ويحكي أن رابعة صامت سبع ليالٍ وبسبعين يوماً متواصلة دون أن تتناول شيئاً ،
ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة . وفي الآية الثامنة قالت لها نفسها (الأماراة
بالسوء) وهي تزوح: « يارابعة ! إلى متى تعذيبيني هكذا دون ماهوادة؟ » وخلال
هذا الحديث النفسي سمع صوت قرع على الباب . ففتحت رابعة ، فكان رجل
أحضر لها طعاماً في كأس . فأخذته رابعة ووضعته في البيت ؛ فلما تركته لإشعاع
المصباح أتى قط وأكل كل ما في الكأس . فلما عادت رابعة ورأت ما حدث
قالت: « سأبحث عن ماء أفتر به » فلما ذهبت للحصول على ماء انطفأ المصباح .
فمادت ورفعت الجرة للشرب ، لكنها سقطت من يديها وانكسرت . فزفرت
رابعة زفرة كاد البيت أن يختنق منها وصرخت: « إلهي ! ماذا أردت بهذه المسكينة! »
فسمعت صوتاً يقول: « يارابعة ! إذا شئت أعطيتك الدنيا بأمرها ؛ لكن يجب
من أجل هذا أن تزعم الحب الذي في قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان
معاً . فقلت رابعة: لما سمعتُ أنني أخاطب على هذا النحو ، نزعت من قابي كل

تعلق بأمور الدنيا وصرف نظرى عن كل الدنبويات . وها أنتا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصل فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتي ، ولم أمل من تكرار هذا القول : إلهي ! أغرقنى في حبك حتى لا يشغلى شئ عنك !

ويعكى أن رابعة كانت تتوحّ باستمرار . فسألت : لماذا تتوحّين وما من ألم تشکين منه ؟ فأجبت : « وأسفاه ! إن العلة التي أشكوك منها من نوع لا يستطيع طبيب أن يشفيه ؛ ودواوها الوحيد هو رؤية الله . وما يعنى على احتمال هذه العلة هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر » .

ويحكى أنه أتى إلى رابعة كثير من الصالحين ، فسألت أحدهم : « وأنت ، لماذا تعبد الله تعالى ؟ — فأجبت : لأنني أخاف النار — وقال آخر : وأنا أعبد خوفاً من النار وطمماً في الجنة — فقالت رابعة : ما أسوأ العبد الذي يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار » ، وأضافت : « فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار ، أفلأ تعبد الله تعالى ؟ — فسألواها : « وأنت ، لماذا تعبدين الله ؟ — فأجبت : أعبد لذاته . أفلأ يكتفي نعمة منه أنه يأمرني بعبادته ؟ »

ويروى كذلك أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة ؛ فلما رأوها عليها أسمال مزقة ، قالوا : « أى رابعة ! كثير من الناس سيأعدونك إن طلبت منهم المساعدة — فأجبت : إنني أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا لأن شتون الدنيا ليست ملك أحد ، وما هي إلا عارية في يد من هي في يده — فقالوا : هذه امرأة نبيلة المواتف » . ثم سألواها : « إن الله تعالى قد توج رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومنظفهم بها ؛ ولكن هذه المقامات لم تظفر بها امرأة . فكيف بلقت هذه المرتبة ؟ — فأجبت : ما قلتموه صحيح ، لكن الكبار ياء والغور وادعاء الألوهية لم تصدر مطريقاً عن امرأة . ولم تصر امرأة فاسقة لأمرأة أخرى » . ويروى أن رابعة مرضت . فلما سئلت ماذا أصابها أجابت : « في هذه المائة

عند الفجر اشتق قلبي إلى الجنة ، فأصابني الله بهذه الحينة حتى يرغمني على الاحترام ». وروى الحسن البصري ، قال : « ذهبت يوماً إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها ، فرأيت تاجراً يبكي . فسألته : ما يكيلك ؟ فأجاب : أتيت إلى رابعة بهذا الكيس من الذهب . وأخشى ألا تقبله . فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلها تفعل . — فدخلت على رابعة ، هكذا قال الحسن ، ولم أكدر أخبرها بهذه الذى قاله التاجر حتى نظرت إلى بيؤخر عنينا وقالت : إنك أيتها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطي الطعام لمن لا يرکعون له ، فكيف لا يعطيه من يغلى قلبه حباً جلاله (هو يرزق من يسبه ، أفلأ يرزق من يحبه^(١)) وأنما منذ عرفت الله صرفت وجهي عن كل مخلوق . والآن ! فكيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أنه حلال أو حرام ؟ ! ثم قالت : ذات يوم وضع في الصباح زيت من بيت السلطان . ورفوت ثوبى المزق على ضوء هذا الصباح ، فظل قلبي طوال أيام مغموراً بالظلمة ولم يضي ، إلا حينها شفقت التوب الذى رفوتة ، فاعتذر لهذا التاجر ودعه يذهب » .

وذات مرة جاء تاجر غنى لزيارة رابعة فرأى بيتها وهو يتداعى ، فأعطاه ألف درهم من الذهب وأهدأها بيته جيداً . فذهبت رابعة إلى البيت ، ولم تكدر تستقر فيه حتى استقرت في تأمل الصور التي فيه ؛ فقالت في الحال وهي تعيده إلى التاجر الألف درهم من الذهب : « أخشى أن يتصل قلبي بهذه البيت فلا يمود في استطاعتي أن أشنل نفسي بعمل الآخرة . إن كل رغبة في أن أفرغ لمبادلة الله تعالى » .

ويمكن أن عبد الواحد بن زيد ؟ وسفيان الثورى ذهباً يوماً لزيارة رابعة . فلما أبصرها أخذها الإجلال لها فارتigue عليهم ، وأخيراً قال سفيان : « أى رابعة ؟ ادعى الله حتى يختلف آلامك . — فسألته : يا سفيان الثورى ! من بعث إلى بهذه الآلام ؟ — فأجاب : إنه الله تعالى . — فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يعذبني

(١) فالأصل بالعربية .

بهذه الحنة ، فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته ؟ » وقال لها سفيان أيضاً : « أى رابعة ! مَاذَا يُود قلْبِك ؟ — فأجابت : ياسفيان ! وأنت الرجل العَلِيم ، كَيْف تُنْطِق بهذه العبارات ؟ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَم أَنْ قلْبِي يَرِيد مِنْذِ اثْنَيْ عَشْرَ سَنَةً بَلْحَاظاً نَاضِجاً ، وَهُوَ لَيْس بَنَادِرَ فِي الْبَصَرَةِ . وَمَعَ هَذَا فَقَدْ بَقِيتْ حَتَّى الْيَوْمِ لَا آكِلْ مِنْهُ . لَسْت بِإِلَاءِ عَبْدَةِ وَلَيْس لِي أَنْ أَنْصَرَفْ وَقَدْ أَهْوَأَ قَلْبِي ، لَأَنِّي إِذَا أَرَدْتْ وَلَمْ يَرِدْ هُو (= اللَّهُ) لَكَانَ هَذَا مِنِّي جَحْوِداً — فقال سفيان : لِيَكَنْ ! لَسْت بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ أَحْدِثَ فِي شَوْنَك ؛ لِكَنْ حَدَّيْنِي أَنْتَ عَنْ شَوْنِي — فَقَالَتْ رَابِعَةٌ : لَوْلَا مِيَالَكَ إِلَى هَذِهِ الدِّينِيَا لَكَانَ رَجُلًا لاغْبَارٌ عَلَيْكَ . قال سفيان : فَصَرَخَتْ بَاكِيًّا : إِلَهِي ! لَيْتَكَ تَرْضَى عَنِّي ! فَقَالَتْ رَابِعَةٌ : أَلَا تَخْبِلُ مِنْ أَنْ تَقُولَ اللَّهُ : لَيْتَكَ تَرْضَى عَنِّي — دونَ أَنْ تَفْعَلْ شَيْئًا لِوَضَاهِ ؟ »

ويروى أن مالك بن دينار قال : ذهبت إلى رابعة فوجدها تشرب من جرة مكسورة ، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة وخدتها من اللبن . فقلت وقلبي ينلي : يارابعة ! لى أصدقاء أغنياء : فإن سمحت لي سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلاتك . — فأجابت : « لقد أنسأت القول يا مالك ؛ إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزقهم . أَفَنْ يَرْزُقُ الْأَغْنِيَاءَ لَا يَرْزُقُ الْفَقَرَاءَ ؟ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ مُشَيْشَتَهُ ، فَنَحْنُ مِنْ جَانِبِنَا نَرْضَى عَنْهَا كُلَّ الرَّضَا ». .

ويحكي أن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيق البلخي ذهباً إلى زيارة رابعة فتحدثوا عن الإخلاص ، فقال الحسن : « ليس بصادق في دعوه من لم يصبر على ضرب مولاه — فقلت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخي : « ليس بصادق في دعوه من لم يشكّر على ضرب مولاه ». فقلت رابعة : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق في دعوه من لم يتلذذ بضرب مولاه ». — فصاحت رابعة : هنا لك أفضل من هذا . فقالوا لها : تكلمي أنت إذن ! فقلت رابعة : « ليس

بصدق في دعوه من لم ينسَ الفرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائي
ندين آلام أيديهن لمارأين وجه يوسف» .

وكان أحد علماء البصرة يزور رابعة فأنثاً يتحدث عن شرور هذه الدنيا
فقالت رابعة : « آه ! لا بد أنك تحب هذه الدنيا . فإن من أحب شيئاً أكثر
ذكره . فمن يريد أن يستر ثياباً ، يتحدث عنها كثيراً . فلو أنك تجبرت تماماً
عن هذه الدنيا فماذا يهمك من خيراتها أو شرورها ؟ »

ويروى أن الحسن البصري قال : « عند صلاة الظهر ذهبت إلى رابعة ؛
وكانت قد وضمت قدرأً فيه حلم ، فلما بدأنا الحديث عن المعرفة (= معرفة الله)
قالت : لا الحديث خير من هذا ؛ والأفضل أن أستمر فيه على أن أطهى اللحم ؛
ولم تنفع في الدار تحت القدر . فلما فرغنا من صلاة المشاء ، أحضرت رابعة ماء
وخبزاً جافاً . ثم أفرغت ما في القدر ، فوجد أن اللحم الذي كان فيه قد طهى
بقدرة الله . فأكلنا من هذا وكان له طعم لم تذوق مثله قط » .

وقال سفيان الثوري : كنْت عند رابعة ذات ليلة . فصلت حتى أشرق
الفجر . وصلت أنا كذلك . وفي الصباح قالت : « يجب أن نصوم اليوم شكرأً
على هذه الصلوات التي أتقنها هذه الليلة . » ويروى أنها كانت تقول وهي طيبة
القلب : « إلهي ! إن بعشت بي يوم البعث إلى النار لأذعت سراً يبعد النار عنى
بألف سنة . — وكانت تقول : إلهي ! كل ما قدرته لي في الجنة امتحن لأصدقائك ، لأنني لا أسعى
إلا إليك أنت وحدك . — وكانت تقول : إلهي ! إذا كنت أعبدك خوف النار
فأحرقني بنارها ، أو طعماً في الجنة فرمها على ، وإذا كنت لا أعبدك إلا من
أجلك ، فلا تخربني من مشاهدة وجهك » .

ويروى أن رابعة قالت : « إلهي ! إذا بعشت بي إلى النار يوم البعث فسامِرْخ

نائحة : « ربی ! يامن أحبه كل هذا الحب ! أهكذا تعامل من يحبونك ؟ » فسمت صوتنا يقول : « يارابعة ! لا نظن بنا ظن السوء ، لأننا سنعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تستطعي أن تحدثينا عن أسرارنا ». .

ويروى أن رابعة قالت ذات ليلة : « إلهي ! حينما أصل ، اضرف عن ملي كل وساوس الشيطان ، أو عذرك وكرمك قبل الصلوات التي تغالطها تلك الوساوس ». .

وحينما حضرتها الوفاة جلس حولها نفر كبير من الصالحين ، فقالت لهم : انهمروا واخرجوها ، ودعوا الطريق مفتوحة لرجل الله تعالى . فنهضوا جميعاً وخرجوا . فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهي تقول الشهادة . فلما تألفت النفس الأخير ، تجمع أوائل الصالحون وغسلوها وصلوا عليها صلاة الموتى ودفواها في مقبرتها الأخيرة . .

ورؤيت رابعة في النائم فسئلت بماذا أجابت منكر ونكير ، فقالت : « أنا منكر ونكير فسألاني : مَنْ ربك ؟ فأجبت : أبها المكان ! اذهبوا وقولا لحضرته الله تعالى : أنت تأسس بسؤالى ، أنا المرأة العجوز ، بين هذا العدد من عبيديك ، أنا التي لم أعرف غيرك ! أقسىتك مررة حتى تبعث إلى بمنكر ونكير يسألاني ؟ » وقد زار محمد بن أسلم^(١) الطوسي ونفع الطرطوسى قبر رابعة فقال : « يارابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة ، فain أنت الآن ! » فصاح صوت من قبرها يقول : « حبذا ما حدث لي ! ما فمات هو ما كان على أن أفله ، والطريق الذي اكتشفيه هو السبيل السوى » والله وحده أعلم .

(١) راجع عنه « حلية الأولياء » ج ٩ من ٢٣٨ — من ٢٠٣ .

* الترجمة عن الفارسية وعن النزجة الفرنكية لباتي دى كورنى :

Le Mémorial des Saints traduit sur le manuscrit ouigour de la Bibliothèque Nationale, par A. Pavet de Courteille, Paris 1889, t. I, p. 54-69.

فرييد الدين العطار : « إلهي نامه » بتصحيح ه . ريت ،

استانبول سنة ١٩٤٠ ، النشريات الإسلامية ، رقم ١٢ :

(١)

ص ١٢٠ - ص ١٢١ :

حكاية الحسن البصري مع رابعة وقطع من الحيوان

خرج الحسن ذات يوم من البصرة ، وأقبل على رابعة في الغلة ، وكان قد أصفف من حولها سرب من الحيوان : غزلان وغير غزلان ، ما كادت تبصر الحسن فقادماً من بعيد يسلك الدرب حتى فرَّت جيمًا من أمام رابعة . شهد هذا الحسن فاستوقف المم صدره ، ودببت له في النفس عقارب الفيرة حيًّا . هنا للك الفت إلى رابعة وسألها أن تنبئه بصدق : لماذا فرَّت هذه الطياء السائرة على الطريق هناك لما أبصرتني ، ولم تفرَّ منك ؟ أَنْزَلَهَا لاترانى أهلاً لها مثلك ؟ فاجابت رابعة سائلة إياه سرًا : أى شيء أكلت ؟ فقال : « أكلت جذور بصل . لقد كان عندي ، أيتها الطيبة الخاطر ، بصل وقليل من الشحم ، فأرسلت في دم القلب بضعة شحم منصره ، هي تلك التي أكلتها في تلك الساعة التي خرجت فيها ». سمعت رابعة منه هذا السر ، فصاحت عجباً بنبرة خشنة فيها صوت الرجلة : « لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين ، فكيف لا تريده منها أن تفرَّ منك ؟ ! آه ! لو كنت رجالاً أزوماً خفيف الزاد مثل التملة لما يسررت لدیدان قبرك أن يكظها الطعام . لو كنت لا تأكل في اليوم إلا تمرة واحدة ، لسلم تابونك في القبر من الديدان ، فعل تريدين أن تكون أسير الديدان ؟ إن تمرة واحدة هي خير لك من تسمين الدود ، وإلا صرت للدود ظهيراً ومعيناً في طمامها وشرابها ؛ وما تملأ

معدتك إلا من أجل هذا ، لأنك صاحب مطبخ ومبرز . فإن لم تخالص قلبك من هذين الجعيدين ، ذهبت من جحيم إلى جحيم آخر ، بذهابك من المطبخ إلى المبرز . لقد خيل إليك أنك ، وأنت لا تنصير على الطعام لحظة ، قد نلت ربحاً كثيراً . لقد قيل لك : طور روحك ! لكنك دائم على تعير جسدك .
ألا فلتـكن لباطنك عليك حرمة أبداً . إنما أنت تتبعـد في الظاهر غـسب .
لقد قال رجل أشعل الروح في نفسه : إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك .

(ب)

ص ١٦٠ — ص ١٥٩

حكاية رابعة رحمها الله

كانت رابعة (العدوية) صاحبة مقام ، ومع هذا فلم تكن تأكل طوال الأسبوع ، بل كانت خلاله لا تجاس ، إنما كانت في شغل دائم بالصوم والصلوة . فإذا خفـفت من الجوع وانهارت ساقها وسرى التكسر في أعضائـها ، تناولت مع طعامها كأساً حلوة مستورـة الوجود .

وهكذا بقيت رابعة في الألم والحسرة ، حتى اشتعل السراج في المكان خفـات قطة فـنـاء ، وكانت رابعة قد أقتـ السـكـافـ في الطريق مـقلـوبة ، ومـضـت لإـحـضـار السـكـوز ، حتى يـفتح ذلك القـلـبـ الذي تـكـنـفت يومـهـ الأـحزـانـ

هـنـاكـ وـقـعـ السـكـوزـ منـ يـدـهـاـ فـكـسـرـ ، وـبـقـيـ السـكـبـدـ ظـمـآنـ

فـاشـتـعـلـ ذلكـ السـكـبـدـ منـ تـأـوـهـ القـلـبـ

حتـىـ قـالـتـ : صـارـ العـالـمـ مـشـبـوـبـاـ بـالـنـارـ

هـنـاكـ صـاحـتـ ، وـفـيـ رـأـسـهـ أـلـفـ دـوـارـ ، : إـلـهـيـ !

ماـذـاـ تـرـيدـ مـنـ هـذـهـ الـحـائـرـةـ السـكـيـنـةـ ؟ـ !

لقد أوقعني في التباusch صحيح .
ولكم تلقى بي في حمأة الدم النجيع
فأناها الخطاب : إن رُمْتَ الآن أن أرزقك من شهر إلى شهر قوتاً معلوماً ،
فأنت أنت (فعلت) . ييد أن هذا يخرج من قلبك حزن هذه السنوات الطوال . ففكري !
فال والله من أجلـي
والدنيـا المختالـة الفرارة لا يحيـطـهاـنـ في قـلـبـ وـاحـدـ ، ولا في مـائـةـ سـنةـ
فإـنـ شـتـتـ أـنـ تـكـونـ دـائـماـ موـاـمـةـ بـيـ
فـعـلـيـكـ أـنـ تـعـذـىـ مـنـ تـرـكـ الدـنـيـاـ صـنـاعـتـكـ الدـائـمةـ
وـلـنـ قـنـالـ الـوـلـهـ حـتـيـ يـكـونـ لـكـ هـذـاـ الـأـمـرـ (أـيـ تـرـكـ الدـنـيـاـ)
فـالـوـلـهـ مـنـ أـجـلـ اللهـ لـيـسـ مـحـانـاـ .

($\frac{1}{2}$)

ص ٣٦١، تحت عنوان

حکایہ اُنی زند :

ولكن الكلمة « مدام » ..

إذا أضاءت على امرأة عجوز حيناً ما ، ردتْها مثل رابعة شابة الدنيا .

- 11 -

كتاب «الروض الفائق في الموعظ والرفاقت» للشيخ الحريفيش

(المتوفى سنة ١٣٩٨، هـ ٨٠١ م)

طبع المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م :

فـ «المجلس السادس والعشرون فيما يجلو القلوب من القسوة ، بذكر أخبار النساء» :

[ص ١١٧] . . . قال الله تعالى — وهو أصدق القائلين — : «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات^(١) » ، وقال تعالى : «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَامِشِينَ وَالْخَامِشَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّاعِدِينَ وَالصَّاعِدَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فِي رُوْجُومِ الْحَافِظَاتِ، وَالذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَاكِرَاتِ، أَعُذُّ اللَّهُ لِمَ مَغْرِيَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٢) ». .

فَقَرَنَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — ذَكْرُ النِّسَاء الصَّالِحَاتِ بِالرِّجَالِ الصَّالِحِينَ . وللنِّسَاء أَحْوَالٌ وَزَهْدٌ وَخَيْرٌ وَصَلَاحٌ كَمَا فِي الرِّجَالِ . وَفِي النِّسَاء مِنْ هُنَّ الْأُورَادُ وَالسِّيَاحَاتُ وَالْكَشْفُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْخُصُوصِيَّاتِ إِلَيْهَا خَصَّهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا كَمَنْ مَضَيَّنَ مِنْهُنَّ فِي الصُّدُرِ الْأُولَى مِثْلُ رَابِعَةِ الْمَدُوْيَةِ وَشَعْوَانَةِ وَرِيحَانَةِ وَأَمِ الْخَيْرِ وَغَيْرُهُنَّ مِنَ النِّسَاء الْمَشْهُورَاتِ وَغَيْرِ الْمَشْهُورَاتِ ، كَمَا حَكَى عَنِ رَابِعَةِ الْمَدُوْيَةِ — رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى — أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا صَلَتِ الْعِشَاءَ قَامَتْ عَلَى سَطْحِ هَا وَشَدَتْ عَلَيْهَا دِرَزَهَا وَخَمَارَهَا ثُمَّ قَالَتْ : «إِلَهِي ! نَارَتِ النَّجُومُ ، وَنَامَتِ الْعَيْنُونُ ، وَغَفَقَتِ الْمَرْكُ أَبْرَاهِيمَا وَخَلَّا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ ، وَهَذَا مَقَاءِي بَيْنَ يَدِيكَ ! » ثُمَّ تَقْبِلُ عَلَى صَلَاتِهَا ، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ السُّحُورِ وَطَلَمَ الْفَجْرَ قَالَتْ : «إِلَهِي : هَذَا الْلَّيلُ قَدْ أَدْبَرَ ، وَهَذَا النَّهَارُ قَدْ أَسْفَرَ ؟ فَلَيْتَ شَعْرِي ! أَقِيلَتَ مِنِي لِيَلَتِي فَأَهْنَا ، أَمْ رَدَتْهَا عَلَى دَأْعَزِي ؟ فَوَعَزَّتْكَ هَذَا دَأْبِي مَا أَحِبَّتِنِي وَأَعْنَتِنِي . وَعَزَّتْكَ لَوْ طَرَدْتِنِي عَنْ بَابِكَ مَا بَرَحْتُ عَنْهُ لَمَا وَقَعَ فِي قَابِي مِنْ حَبْتِكَ . ثُمَّ أَنْشَدَتْ :

يَا مَرْوَرِي وَمَنِيَّيِّي وَعَمَادِي وَأَنِيسِي وَعُدْقِي وَمَرَادِي
 أَنْتَ لِي مَؤْنِسُ وَشَوْقُكَ زَادِي
 أَنْتَ لَوْلَاكَ ، يَا حَيَاتِي وَأَنِيسِي ، مَا تَشَتَّتَ فِي فَسِيجِ الْبَلَادِ

(١) سورة الأحزاب : ٣٥ .
 (٢) سورة الفتح : ٤٠ .

كَمْ بَدَتْ مِنْهُ وَكَمْ لَكَ عِنْدِي
 حَبْكَ الْآتَ بِغَيْرِي وَنَعِيَ
 أَنْتَ مِنِّي مُمْكِنٌ فِي السَّوَادِ
 إِنْ تَكُنْ راضِيًّا عَلَىٰ فَإِنِّي
 وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عَمَانَ : كَنْتُ مَعَ ذِي النُّونِ الْمُصْرِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ فِي تِيهِ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَإِذَا بِشَخْصٍ قَدْ أَقْبَلَ ، فَقَالَتْ : يَا أَسْتَاذُ ! شَخْصٌ قَدْ أَنِّي . فَقَالَ
 لِي : انْظُرْ مَنْ هُوَ ، فَإِنَّهُ لَا يَضْعُفُ أَحَدٌ قَدْمَهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ إِلَّا صَدِيقٌ . فَفَنَّرْتُ
 فَإِذَا هِيَ امرأةٌ ، فَقَالَتْ : إِنَّهَا امْرَأَةٌ . صِدِيقَةٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ . فَابْتَدَرَ إِلَيْهَا وَسَلَّمَ
 عَلَيْهَا فَقَالَتْ : مَا لِرَجُالٍ وَمُخَاطَبَةِ النِّسَاءِ ! فَقَالَ : أَنَا أَخْوَكَ ذُو النُّونِ وَاسْتَمْ
 أَهْلُ النَّهَمِ . فَقَالَتْ : مَرْحَبًا ! حَمَّاكَ اللَّهُ بِالسَّلَامِ ! فَقَالَ لَهَا : مَا حَمَّلْتَ عَلَى الدُّخُولِ
 فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟ فَقَالَتْ : آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ — قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَلَمْ تَكُنْ
 أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجِرُوا فِيهَا » ؟ ! . — فَقَالَ لَهَا : صَنِي لِي الْحَبَّةَ ! فَقَالَتْ :
 سَبَحَانَ اللَّهِ ! أَنْتَ عَارِفٌ بِهَا وَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْمَعْرِفَةِ وَتَسْأَلُ عَنْهَا ؟ ! فَقَالَ لَهَا
 لِلْسَّائِلِ حَقَ الْجَوابِ . فَأَنْشَدَتْ تَقُولُ :

أَحْبَكَ حَبِيبَنِي : حَبَّ الْمَوْيِ
 فَأَمَا الَّذِي هُوَ حَبُّ الْمَوْيِ
 وَأَمَا الَّذِي أَنْتَ أَهْلُ لَهُ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي ذَٰلِكَ لِي
 وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَٰلِكَ
 (آخر) :

يَا حَبِيبَ الْقَلْبِ مَالِي سَوَاكَ
 يَا رَجَائِي وَرَاحَتِي وَصَرُورَتِي
 (وقيل) إِنَّهُ لِسَامَاتٍ زَوْجٌ رَابِعَةٌ الْمَدُوِّيَةُ اسْتَأْذَنَ الْحَسْنَ الْبَصْرِيَّ فِي الدُّخُولِ

عليها هو وأصحابه فاذن لهم وأرخت سترًا وجاست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنك قد مات بملك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عدتك ، فاختارى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم ، فقالت : نعم ! حبًا وكراهة ! من هو أعلمكم حتى أزوجه نفسي ؟ قالوا : الحسن البصري . فقالت له : إن أجيبتني عن أربع مسائل فأنا لك أهل . فقال لها : سلني فأنا أجيبك إن وافق الله تعالى . قالت : ما يقول الفقيه العالم إذا أنا مُتة : هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله (١١٨) تعالى . قالت : فما يقول إن وُضعت في القبر وسائلني منكر ونكير ، أفادت على جوابهما ، أم لا ؟ قال : وهذا أيضًا غيب . قالت : فإذا حشر الناس في القيمة وتطايرت الكتب فيه مطى بعضهم كتابه بيدهيه وبعطا بعضهم كتابه بشماله — أفاء على أنا كتابي بيديه أم بشمال ؟ قال : وهذا أيضًا غيب . قالت : فإذا نودي في الخلاائق : فريق في الجنة وفريق في السعير ، فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضًا غيب ولا يعلم الغيب إلا الله عن وجل . فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا في فلق وكرب من هذه الأربع ، فكيف أحتج إلى الزوج وأنفرغ له ! ثم أشدت :

راحني ، يا إخواني ، في خلوتي	وحبيبي دائمًا في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضًا	وهوه في البرايا محنني
حيثما كنت أشتاهي حسنه	فهو محرابي إلى قبلتي
إن أمت وَجِدًا وما ثم رضا	واعناني في الورى ! واشقوتني
يا طبيب القلب يا كُلَّ الني	جُدْ بوصيل منك يشفى مهجنى
يا سروري وحياتي دائمًا	نشأتني منك وأيضًا نشوتني
قد جهزتُ الخلق جمًّا أرتجى	منك وَصَلًا ، فهو أقصى مُنتقى

— ١٨ —

«النجوم الزاهرة لابن تمرى بردى» ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

ج ١ ص ٣٣٠ س ٩ — س ١٣ :

في كلامه عن سنة ١٣٥ : «... وفيها توفيت رابعة العدوية البصرية الزاهدة العابدة، وكانت مولاة لآل عتيك ، وكان سفيان الثورى وأقرانه يتأذبون عنها ؛ وكانت رابعة تصلّى الليل كلها ، فإذا طام الفجر هبّت في مُصلّاها هجمة خطيبة حتى يسترِّ الفجر ثم تشب إلى الصلاة وتقول : يا نفس ! كم تنايمين ! وإلى كم لا تقومن ! يوشك أن تنايمين (كذا) نومة لا تقومن منها إلا بصرخة ». .

ج ٢ ص ١٥ س ١٤ — س ١٥ :

في كلامه عن سنة ١٥٠ : «... وفيها توفى عبد العزيز بن سليمان أبو محمد الراسى من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة : كان عابداً زاهداً ، كانت رابعة تسميه سيد العابدين ؛ كان إذا ذكر القيامة والموت سرخ كما تصرخ الشكلى ويصرخ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع الميت والميتان من جوانب المسجد ؛ قاله أبو المؤمر^(١) في «مرآة الزمان». .

ج ٢ ص ١٠٠ س ١٣ — س ٢٤ :

في كلامه عن سنة ١٨٠ : «الذين ذكر الذهى وفاتهم في هذه السنة ، قال : وفيها توفى ... ورابعة العدوية قلت : وقد تقدمت وفاتها في قول غير الذهى ». .

— ١٩ —

«الشكوك» لحمد بهاء الدين العاملى ، طبع بولاق سنة ١٢٨٨ ، ص ١٣٤ :

«قيل لرابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت :

إذا كان سروه بالصبية كسروره بالنمة .

(١) أى سبط ابن الجوزى .

وقيل لها يوماً : كيف شوغلت إلى الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار .
ومن كلامها ، نفعنا الله بها : « ما ظهر من عملٍ فلا أعده شيئاً ^(١) ».

— ٢٠ —

أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ = سنة ١٣٩٨ م

« روض الرياحين في حكایات الصالحين »

القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ = سنة ١٩٠٦ م ، ص ١٠١ :

(١) « الحکایة السابعة والثانية بعد المائة » عن خادمة رابعة العدوية

رضي الله عنها قالت :

كانت رابعة تصلّى الليل كلها ، فإذا طلع الفجر هبّت جمّة في مُصلّاهَا
حتى يسفر النّجْر ؟ فكفت أسمها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة :
يا نفس ! إلى كم تنامين ؟ وإلى كم لاتقومين ؟ يوشك أن تناهى نومة لا تقومين منها
إلا بصرخة يوم النشور .

قالت (أي خادمة رابعة) : وكان هذا دأبها إلى أن ماتت . فلما حضرتها
الوفاة ، دعتني وقالت : لاتؤذني بموتى أحداً ، وكفّنني في جبّتي هذه – وكانت
جبة من شعر تقوّم فيها إذا هدأت العيون . قالت : فكفّنها بذلك الجبة وفي خار
صوف كانت تلبسه . فرأيتها في النّاس عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس
أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منها قلت : يارابعة ! مافعلت بالجلبة التي كفناك بها
والحمار الصوف ؟ قالت : إنه والله ترُّع عن وأبدلت به هذا الذي ترينه ؛ وطويت
أكفاني وختّم عليها ورفعتُ في علیين ليكون لى ثوابها يوم القيمة . فقلت لها :

(١) « قبل لربعة العدوية : بـ ترجمين أكثر ما ترجمين ؟ فقالت : يتأسى من جل على ».
هـ الكشكوكول ، لحمد بهاء الدين العامل ، طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٦٣ من ٢٠

لماذا كنت تمlein أيام الدنيا؟ قالت : وما هذا عند مارأيت مما أعد الله من كرامات الله عز وجل لأولئك ! قات : مُرِيني بأمرٍ أتقرب به إلى الله تعالى ! فقالت : عليك بكثرة ذكره ؛ يوشك أن تفتبطى بذلك في قبرك .

(ب) « الحكایة الثامنة والثمانون بعد المائة » .

روى عن أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْخَوَارِيِّ رضي الله تعالى عنه — قال : كان لرابعة أحوال شقي — يعني زوجته رابعة الشامية — قال : فترفة يغلب عليها الحب ، ومرةً يغلب عليها الأنس ، ومرةً [١٠٢] يغلب عليها الخوف . فسمتها في حال الخوف تقول :

حبيب ليس يعدله حبيبٌ حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى ولكن عن فؤادى لا يغيبُ وسمتها في حال الأنس تقول :	وما سواه في قلبي نصيبٌ ولقد جعلتك في الفؤاد محظى فالجسم متى للجليس مؤانس وسمعت ما في حال الخوف تقول :
وأبحث جسمى من أراد جلوسى وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى ألا زاد أبكى ، أم لطول مسافتى أتحرقى بالشار يا غاية المنى ؟!	وزادى قايل ما أراه مبلغنى أتحرقى بالشار يا غاية المنى ؟!
قال (أى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْخَوَارِيِّ) : وقلت لها وقد قامت بليل : مارأينا من يقوم الليل كله غيرك ! فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ إنما أقوم إذا نوديت . قال : فجلست آكل في وقت قيامها ، فجعلت تذكري . فقالت لها : دعينا نتهن بطعمانا ، فقالت : ليس أنا ولا أنت من يتنقص عليه الطعام عند ذكر الآخرة . وقالت : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحببك حب الإخوان . وكانت إذا طبخت قدرًا قالت : كلها ياسيدى ! فما نضجت إلا بالتسبيع .	فأنا أقوم متى للجليس مؤانس وسمعت ما في حال الخوف تقول :

قال : وقالت لي اذهب فتزوج ، فتزوجت ثلاثة . وكانت نطمئنی اللعنة
ونقول : اذهب بقوتك إلى أهلك .

وقالت : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيطون ، وربما رأيت الحور العين .
رضي الله عنها وفعلاً بها .

فقلت : الظاهر — والله أعلم — أن هذه الرؤية المذكورة كانت في اليقظة ،
فأمّا رؤية المذايم فلم يمِر الأولياء .

وهذه رابعة الشامية ، زوجة ابن أبي الحواري كما ذكرناه ، وليس رابعة
المدوية البصرية التي تقدمت . وبعض أهل العلم يقول : هذه الشامية رابعة بالباء
الشائنة المنقطة ببنقطتين من تحت ؛ وبعضهم يقول بنقطة واحدة كرابعة البصرية —
رضي الله عنهمَا ونفع بهمَا أجمعين .

— ٢١ —

حكايات عن رابعة المدوية

(١) الخطوط رقم ١٢٤٢ عربي بالفاتيكان ، ورقة ١٨٣ :

قيل : دخل لص على رابعة المدوية رحها الله تعالى ليلاً ، فنظر في البيت
يبيّناً وشمّالاً فلم يجد غير إبريق . فلما هم بالخروج قالت له رابعة : يا هذا ! إن كنت
من الشطار فلا تخرج بغير شيء . فقال : إنني لم أجد شيئاً . قالت : يا مسكين !
تواضأ بهذا الإبريق وادخل في هذا الخدع ، وصلّ ركعتين ، فإنك ما تخرج
بلا شيء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلّى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت :
سيدي ومولاي ! هذا قد أني بابي ولم يجد شيئاً عندى ، وقد أوقفته ببابك
فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له المبادة ، فما برح يصلّى إلى آخر

الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت إليه رابعة فوجده ساجداً وهو يقول
فـ سجوده معايضاً نفسه - شرعاً - :

إذا ما قال لى ربى
أما استحييات تعصينى
وتخفي الذنب من خلقى
وبالعصيان تأنينى
فـا قولي له لـاتـا يـعـابـنـى ويـقـصـىـنـى ؟ !

فـ قالـتـ له : حـبـيـ ! كـيـفـ كـانـ إـلـيـتـكـ ؟ فـ قالـ ، بـخـيرـ . وـ قـفـتـ بـيـنـ يـدـيـ
مـوـلـايـ بـذـلـىـ وـافـقـارـىـ ، فـ قـبـلـ عـزـرـىـ وـجـبـرـ كـسـرىـ ، وـغـنـرـ لـىـ الـذـنـوبـ ،
وـبـاغـنـىـ الـمـطـلـوبـ .

ثـمـ خـرـجـ هـائـماـ عـلـىـ وـجـهـ . فـ رـفـتـ رـابـعـةـ كـفـهاـ إـلـىـ السـمـاءـ وـقـالـتـ : سـيـدىـ
وـمـوـلـايـ ! هـذـاـ وـقـفـ بـيـاـكـ سـاعـةـ قـبـلـهـ ؟ وـأـنـاـ مـذـ عـرـفـتـ بـيـنـ يـدـيـكـ أـتـرـاكـ
قـبـلـتـنـىـ ؟ فـ نـوـدـتـ فـ سـرـهـ ، يـاـ رـابـعـةـ ! مـنـ أـجـلـكـ قـبـلـنـاهـ ، وـبـسـبـلـكـ قـرـ بـنـاهـ .

(ب) المخطوط رقم ٢٩٦ فـاتـيـكـانـ صـ ٧٧ـ بـ ، ضـمـنـ رسـالـةـ تـسـمىـ «ـ كـتـابـ
الـصـلـاـةـ » مجـهـولةـ المؤـلـفـ :

«ـ وـذـكـرـ أـنـ رـابـعـةـ العـدوـيـةـ كـانـتـ فـيـ الصـلـاـةـ ، فـسـجـدـتـ عـلـىـ الـبـوارـىـ
فـ دـخـلـتـ قـطـمـةـ قـصـبـ فـعـيـنـهـ فـلـمـ تـشـعـرـ بـهـ حـتـىـ إـذـ اـنـصـرـفـتـ مـنـ الصـلـاـةـ»
(أـىـ إـلـىـ أـنـ اـنـصـرـفـتـ مـنـ الصـلـاـةـ) .

ذـكـرـهـاـ المـطـارـ فـ «ـ تـذـكـرـةـ الـأـوـلـاـ » . (ـ رـاجـعـهـ قـبـلـ)

عبد الرحمن الجامى (المتوفى سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م) : «ـ نـفحـاتـ الـأـنـسـ»
من حضرات القدس ، مخطوط رقم ١٢٤ بالـمـكـتبـةـ الشـرـقـيـةـ بـجـامـعـةـ الـقـدـيسـ

يوسف بيروت (راجع فهرست شيخوخة ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ،
تحت رقم ١٢٤ :^(١)

(٤٠٤) في ذكر النساء المارفات (٤٠٥) الواصلات إلى مراتب الرجال

رابعة المدوية رحمة الله تعالى :

كانت من أهل البصرة . وكان يزورها سفيان الثوري رضي الله عنه ويسألاها بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها ودعائهما . أنهاها يوماً ورفع يدها وقال : « اللهم إني أسألك السلامة ! » فبكت رابمة . فسألاها سفيان : ما ينكيك ؟ فقالت : أنت الذي عرضتني للبكاء . فسألاها : وكيف ذلك ؟ فقالت : ألم تعلم أن سلامة الدنيا هي في تركها ؟ وأنت غارق فيها ! ومن كلامها : لا كل شيء غرفة ، وغرفة العلم والمعرفة هي التقرير إلى الله . ومن قولهما كذلك : أستغفر الله من قلة صدق في قوله أستغفر الله .

سألاً مفیان يوماً : ما خیر ما يتقرّب به العبد إلى الله ؟ فأجابت : لا يملک ف الدنيا والآخرة شيئاً سواه .

وقال سفيان يوماً في حضرتهما : « واحزناه ! » (٤٠٦) فقالت : « إنك لتكذب ! إن كنت محظوظاً ما هنأك عيش . »

«**في كنوز الأولياء ورموز الأصفباء**» لأبي الاليث محرّم بن أبي البركات
محمد الزبلي ، المخطوط بالظاهريّة بدمشق برقم ٣٩٧٢ عام ، ترجمة صغيّرة لرابعة
العدويّة تقع من ١٤١ ب إلى ١٤٢ ب ، أورد فيها عبارة المطار عن سبب ذكره

(١) سقتصر هنا على ذكر الترجمة لهذا النسخة الفارسية من قبل ليس - ناو
Lees-Nassau من ٧٦٦ ؟ وان كانوا نتمدد عليه ، بل على المخطوطة المذكورة .

لها فصف الرجال^(١) ، ثم نقل عن «رسالة القشيري» ثم عن ابن الجوزى ؛
وليس فيها شيء لم يرد في المصادر الأخرى .

— ٢٤ —

ابن العياد الحنبلي ، «شذرات الذهب» ، نشرة القدس ، القاهرة
سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ص ١٩٣ ، أخبار سنة ١٣٥ :
«وفيها رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل . وقيل توفيت
سنة خمس وثمانين ومائة ، ولا يصح اجتماع السري (= السرى السقطي) بها ،
فإنه عاش حتى نيف على التسعين ومائتين . وروى أن سفيان الثورى قال بحضورتها:
واحزناه ! فقالت : لا تكذب ! وقل : واقلة حزناه ! وسمعته يقول : اللهم إني
أسألك رضاك . فقالت : تسأل رضا من لست عنه براضٍ ! ورأها بعض إخوانها
في النام فقالت : «هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور ..»
وقربها على رأس جبل يسمى الطور ، بظاهر بيت المقدس ؛ وقيل : ذلك قبر
رابعة أخرى غير العدوية . وقيل لها في منام : ما فعالت عبيدة بنت أبي كلاب ؟
قالت : سبقتنا إلى الدرجات العليا . قيل : ولم ذلك ؟ قالت : لم تكن تبال
على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست » .

— ٢٥ —

كتاب «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»
تأليف أبي الحسين محمد بن أحد المطوي
في الحديث عن مذاهب الزنادقة :
ومنهم الروحانية ، ومصناف . وإنما سمو الروحانية لأنهم زعموا أن أرواحهم

(١) راجعه قبل ص .

تنظر إلى ملَكوت السُّمُوات؟ وبها يمانيون الجنان ويُجتمعون الحور العين؟ وتسرح في الجنة . وسموا أيضًا الفكرية لأنهم يتفكرون في هذا حتى يصيرون إليه؟ فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم ؛ ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية فيتلذذون بمخاطبة الإلهية لهم ومصالحته أيام ونظرهم إليه — زعموا ؟ ويتمتعون بمجامدة الحور العين وما كة الأبكار على الأرائك متثنين ، ويسعى عليهم الولدان الخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الممار . ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان مستقيمةً . وأما هذه الفكرة فيزورها لهم الشيطان لأنه لا يتلذذ بذرات الجنة إلا من صار إليها يوم القيمة — وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يقلب على قلوبهم وأهواهم وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عدم و كانوا عند هذه المنزلة وقامت عليهم نخلة من الله تجعل لهم السرقة والزنا وشرب المحر والفواحش كلها على وجه الخلالة التي بينهم وبين الله لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه الخلالة كما يحصل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم رباح وكليب ، كانوا يقولان بهذه المقالة ويدعون إليها . كذبوا ! أعداء الله ! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يسأل يوم القيمة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول : لست هناك ، ويدرك ثلاث كذبات . كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مفهار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقه من تضيير أنفسهم وحملها على المكره . فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما يشهي وتعني ، وأن أكل العبييات كأكل الأراذلة في الأطمة ، وكان العَبَر والخبليس عنده بمنزلة ، وكان العسل والخل عنده بمنزلة .

فإذا كان كذلك فقد بلغ غاية السبقه وسقط عنه تضيير الميدان وأتبع نفسه ما اشتهرت.
منهم ابن حيان كان يقول هذه المقالة.

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشغال القلوب وتنظيم (ص : نظرهما)
للدنيا ومحبة لها : لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذذ شرابها ولبس لباسها
وطيب راحتها . فأشغلوا قلوبهم بتعلق برثها ؛ وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات
عند اعتراضها حتى لا يشغل القلب بذلكها ويمثل عنده ماترك منها حيث كانوا
يقولان هذه المقالة .

ومنهم صنف زعموا أن الزهد في الدنيا هو الزهد في الحرام . فاما الحال
فيماح لهذه الأمة من أطاب [٩٢] الطعام وغرائب الألوان وكفاية الخدم والبن
الرياش وسعة المنازل ووطاء الماء وتشيد القصور وكفاية الحاجات وترك
الطلبات وقضاء الأوطار . وأن الأغنياء أفضل منزلة عند الله من الفقراء لما
أعطوا من فضل أموالهم وفضول من نواب حقوقهم وأدركوا من منتهى
رغباتهم هم . لقد قالوا خلاف ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رواه
أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم
خمسة وعشرين عام . وروى عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيمة بأربعين خريفاً .

[مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٥٩ توحيد ص ٩٠ — ٩٢]

— ٣٦ —

من كتاب « شرح حال الأولياء » تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام
ابن غازم المقدسي ، مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بالملكتبة الأهلية بباريس :

(١٢٥٣) شرح حال رابعة رضي الله عنها

كيف رأيت^(١) الحبة ؟ قالت : ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطق

(١) ص رأيني .

عن شوق ، ووصف عن ذوق . فن ذاق عرف ، ومن وصف فا اتصف . وكيف
تصف شيئاً أنت في حضرته غائب ، وبوجوده دائم ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك
منه سكران ، وبفراغك ^(١) له ملان ، وبسرورك له وهان ! فالهيبة تخرس اللسان
عن الإخبار ، واللحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والذيرة تحجب الأ بصار عن
الأغيار ، والدهشة تقلل العقول عن الإفوار . فما تم إلا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ،
وألوب هائمة ، وأسرار كائنة ، وأجداد [٢٥٣] بـ من السقم غير سالمة ، والحبة ،
بدولتها الصارمة ، في القلوب حاكمة - (شعر) :

وارجعتنا لاما شقين ! قلوبهم في تيه ميدان الحبّة هائمة
قامت قيامة عشقهم فنحو سهم أبدأ على قدم التدالٌ قائمة
إمّا إلى جذاتٍ وَضِلْ دائمٍ أو نار صدٍّ للقلوب مُلازمة
يارابعة ! فأنت^(٢) في ميدان الحبّة رائعة ، فكيف كانت صورة الواقعه ،
حتى سميت رابعة ؟ والخلة واحدة ، فمن أين هذه الشركه والجماعه ؟ فقالت : ياقوم !
الموافقة شرط في الصحبة . أما نظرت إلى بني الرغبة والرهبة ، إلى أن شرب بحر
الحبّة في شربه ، فرأيتها يقول لصاحبه في الفار : « لا تحزن إن الله معنا » ما اظننك
باينين إن الله ثالثهما ؟ فتقدمت إلى خلوة الفار : بأقدام المبايعة ، فصاحت الغيرة
من داخل الفار : ما هذه الوالمة المجازعة ، التي كشفت القناع ولم^(٣) تكن بدوتنا
قائمه ؟ (شهر) :

(۲) م: س.

(١) ص : يفرغك . (٢) س : فأنتي .

كَمْ بَتُّ مِنْ حُرْقَى وَفِرْطٍ تَلْقَى^(١) أُخْرَى عَيْوَنًا مِنْ عَيْوَنِي^(٢) الدَّامِعَه
لَا عَبْرَتِي تُرْفَا ، وَلَا وَضَلَّلِي لَهُ يَبْقَى وَلَا عَيْنِي الْفَرِيقَه هاجِمه

— ٢٧ —

«كتاب سير السالكين المؤمنات الخيرات» لأبي بكر المصنفي، مخطوط رقم ٢٠٤٢ بالكتبة الأهلية بياريس، ورقة ١٢٦ :
... ومنهن رابعة المدوية

وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة، كأنها الشن تكاد تسقط وتحتها بارية.
وكانت^(٣) إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رغدة : قال مسمع ورباح : أنها
رجل بأربعين ديناراً ، فقال : استعيني بهذه الدنانير على بعض حوالجك ! فبكت
ثم قالت : هو يعلم أنني أستحيي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكونها ، فكيف أريد
أن آخذها من لا يملكونها ! قال عبد الله بن عيسى : دخات^٤ على رابعة فرأيت
على وجهها النور وكانت كثيرة البكاء . فقرأ رجل آية فيها ذكر النار؛ فسقطتْ
وسقطتْ وقع دموعها على البارية مثل الوكف ، وصاحت . فقامنا وخرجنا .

وكانت — رضى الله عنها — إذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة ، فقال لها
رجل : ادع لي ! تلتصل بالحائط وتقول : من أنا يرحمك الله عز وجل ؟!
أطْبِعْ رَبِّكَ وَادْعُهْ فَإِنَّهُ يُحِبُّ الْمُضْطَرَ .

قال ابن منظور : دخات على رابعة وهي ساجدة . فلما أحسست بمكانى رفعت
رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمت ثم أقبلت على
وقالت : يا بني ! ألك حاجة ؟ قللت^٥ : جشتاك لأسلم عليك . قال : فبكت وقالت :
[٢٦] سَتَرْكَ اللَّهُمَّ سَتَرْكَ ! وَدَعَتْ بِدُعْوَاتِنِمْ قَامَتْ إِلَى الْصَّلَاةِ وَانْصَرَفَتْ

(١) من : نقلت . (٢) من : عيون . (٣) من : كان .

وقالت : استغفر الله — عز وجل — من قلة صدقى في قولى : استغفر عز وجل .
للله درّها من امرأة !
ما أنور قلبها !

قال أذرح بن هارون : دخل على رابعة رياح القىسى وصالح بن عبد الجليل
وكلاب فتذاكرروا الدنيا فأقبلا يذمونها . قالت رابعة : إنى لأرى الدنيا يبرايها
في قلوبكم . فقالوا : ومن أين توهنت علينا ذلك ؟ فقالت : إنكم نظرتم إلى أقرب
الأشياء من قلوبكم فتكلمت فيهم .

قال لما شيخ من قريش : هل عملت عملاً ترين أنه يُقبل منه ؟ فقالت : إن
كان ، فخافي أن يُردَّ علىَ .

قال جعفر بن سليمان : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : مُرْ بنا إلى المؤدبة
التي لا أجد من أستريح إلها إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يديه وقال:
اللهم إني أسلوك السلامة . فبَكَتْ رابعة فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت
عَرَضْتَنِي للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ فقالت : أما علمتَ أن السلامة من الدنيا
ترَكَ ما فيها ؟ فكيف وأنت متاطبخ بها ! فقال سفيان : واحزنناه ! فقالت : لاتكذب
قل : واقلة حزناه ! لو كنت محزوناً ما هنأك العيش . قالت : يا سفيان ! إنما أنت
أيام معدودة . فإذا ذهب يوم ذهب بعضاً ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب
الكل . وأنت تعلم ، فاعمل .

كانت عبدة تخدم رابعة ؛ وكانت تقول عن رابعة : إنها تصلي الليل كله فإذا
طلع الفجر [ف] كنت أسمها تقول إذا وثبتت من مرقدها وهي فزعة : يانفس !
كم تنامين ! وإلىكم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة
يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأب رابعة ، دهرها ، حتى ماتت . فلما حضرتها
الوفاة قالت : يا عبدة ! لاتؤذنى بوفاتي أحداً وكفني في جُبْقى هذه — وكانت من

شعر ، تقوم فيها إذا هدأت الميون [١٢٧] — قالت : فكفناها في تلك الجبهة
وخار صوف كانت تلبسه .

قالت عبدة : فرأيتها بعد سنة أو نحوها في منامي وعليها حلة استبرق خضراء
وخار من سندس أخضر لم أر شيئاً مثله . فقالت يارابعة مافعلت [بـ] الجبهة التي
كفنك بها والخار الصوف ؟ فقالت رابعة : والله نزع مني فآبدات به هذا الذي
ترىنه على ؟ وطُويت أكفاني وختم عليها ؟ ورفعَت في علبي ليكون لى ثوابها يوم
القيمة . قلت لها : لهذا كنت تمليين في الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عند ما رأيت
من كرامة الله عز وجل لأولئك ! فقالت : فما فعات عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت :
هيئات هيئات ! والله ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلي . فقالت : وَبِمْ وقد كنت عند
الناس أكثراً منها ؟ فقالت : لم تكن تبالي على أى حالة أصبحت من الدنيا وأمست .
قالت : ما فعل بشر بن متصور ؟ فقالت : بخربخ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل .
قالت : فربني بأمر أقرب به إلى الله عز وجل . فقالت : عليك بكثرة ذكره ،
فيوشك أن تقطعي بذلك في قبرك . والله أعلم .

* * *

[٣٨ بـ] (رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري) .

... ومنهن رابعة بنت اسماعيل ، زوجة أحمد بن أبي الحواري خادم
أبي سليمان^(١) رضي الله عنهم .

وهذه رابعة شامية ؟ ورابعة المدوية بصرية قال أحمد بن أبي الحواري :
قلت لزوجي رابعة وقد كانت تصلي بالليل : قد رأينا أبي سليمان وتعبدنا معه ،
فأرأينا من يقوم من أول الليل . فقالت : سبحان الله ! ملائكة يتكلم بهذا ! إنما
أقوم إذا نوديت .

(١) أبو سليمان الداراني ، الصوف الشاي المشهور المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

قال (أبي ابن أبي الحواري) : وجلست آكل فعمات تذكرني . فقلت :
دعينا [١٣٩] ^{إيهنا} طعامنا بطعامنا ^(١) فقالت : ليس أنا وأنت من ينبعض عليه الطعام
عند ذكر الآخرة .

قال أَحْمَد : قالت لى : أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل أطلمه
الجبار على مساوى عمله فتشاغل به دون خلقه ؟
وقال : قالت لى : إِنِّي لِأَضَنَ ^(٢) باللهم الطيبة أن أطعها نفسي ، وإنِّي لَأُرِى
ذراعي قد سمن لأحزن — ومني أضن أبخل أن آكلها ، نظراً منها إلى قوله
عمر وجل : « لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ». وأما خوف السُّمَّن من ذراعها
فلا جُل أَكْل الدود له وخوفاً من وقوف الحساب لأجل كثرة الأَكْل ،
رضي الله عنها .

قال : وَكَنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهَا وَرَقْبَتْهَا فَأَحْزَنَ لِذَلِكَ .

قال : وكانت تقول : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ؛
وابنها رغبت فيك رغبة في خدمتك ؟ وإنما أُحِبُّ وأنتى أن يا كل مال مثلك
ومثل إخوانك .

وكانت إذا طبخت قدرأً قات : كله ياسيدى فانضجت إلا بالتسبيح .

وقالت : لست أستحل أن أمنحك نفسى وغيرى ، اذهب فتزوج ! فتزوجت
ثلاثاً فكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وَكَنْتُ إِذَا أرَدْت
قربها نهاراً تقول : أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا تَفْطِرْنِي الْيَوْمَ ، وَإِذَا أَرَدْتَهَا بِاللَّيلِ تقول :
أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ لِمَا وَهَبْتَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ هَذِهِ الْلَّيْلَةِ .

وكان معها سبعة آلاف درهم أتفقها على ^٠ .

وكانت تقول لى : ماسمت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيمة ؟ ولرأيت

(١) ص : ٤٦٥ . (٢) فِي الْمُلْبَرِ : لِأَظْنَ ؟ وَالنَّصْحَيْجَ بِالْمَامَشِ .
شَهِيدَةَ م — ١٢

الشجاع إلا ذكرت نظائر الصحف؟ ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر.
قال: وكانت تقول: ربما رأيت الجن يذهبون ويحيطون؟ وربما رأيت المور
العين يستقرن مني بـ كاممن؟ وقالت: يدها على رأسها.

ودعوها يوماً فلم تجفني. فلما كانت بعد ساعة أجبتني وقالت: إنما معنى
أن أجييك أن قلبي قد كان امتنلاً فرحاً بالله عز وجل (٣٩ بـ) فلم أقدر
أن أجييك.

قال أحد: كان لرابعة زوجي أحوال شتى: مرّة يغلب عليها الخوف ومرة
يغلب عليها الأنس، ومرة يغلب عليها الحب. سمعتها في حال الحب تقول:
حبيب ليس يغدِلُه حبيب ولا لسـ واه في قلبي نصيب
حبيب غاب^(١) عن بصرى وشخصى ولكن عن فؤادى لا يغيب
وسمعتها في حال الأنس تقول:
ولقد جعلتك في الفؤاد مُحدَّنى
فالجسم مِنْ للجليس مؤانس
وسمعتها في حال الخوف تقول:
وزادى قليل ما أراه مُبَلَّنى
أَخْزَقْتَنِي بالنـار يا غـابةِ الـنى؟
والله أعلم.

«مرآة الزمان» لأبي المظفر يوسف المعروف بـ بط بن الجوزي
المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (= ١٢٥٧ مـ)، مخطوط رقم ١٥٠٥ بالمكتبة الأمريكية

(١) حبيب عيني غاب ...

بيانيس* ورقة ١٦١ ب (أخبار سنة ٢٤٦ هـ بعد الكلام عن زوجها أحمد بن أبي الحواري).

ذكر زوجة أحمد بن أبي الحواري

عائنة الرواية على أن اسمها رابعة، وكانت في العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة، لا بل أباغن.

وروى عن أحمد بن أبي الحواري أنه قال: كانت إذا طبخت قدرًا تقول لى: كلاما ! فوالله ما أضجعهم إلا بالتسبيح.

وروى أبو عبد الرحمن السعدي (١٦٢) أنها قالت لزوجها أحمد: « ربما رأيت الحور العين يذهبون في داري ويجهن ويستترن بأكاليمهن مني».

وروى ابن باكويه عن أحمد بن أبي الحواري قال: قات لرابعة — وكانت تقوم الليل — قد رأينا أبا سليمان وت McBدنا معه؛ مارأينا من يقوم الليل^(١) إلا نات^(٢). فقالت: سبحان الله ! مثلث يتكلم بهذا الكلام ! إنما أقوم^(٣) إذا نوبيت^(٤).

وحكي أبو نعيم عن سري السقطي قال: قدمت الشام فدخلت على أحمد بن أبي الحواري المسجد فسالت عليه وقت : عطنى وأؤجز ! فقال : ما أحسن ؟ ولكن سر^(٥) إلى منزل فقيه من يحسن . قال : نفرجت أطلب منزله ؟ وإذا براهب كبير ، خلفه صغير . فقلت للصغير : لم تتبع هذا؟ فقال : لأنه طيب يسبغني الدواء . قال: فورد على قلبي من كلامه شيء لا أعتقه؛ فبشت إلى منزل أحمد فطرق^{*} الباب؛ فكلمتني امرأة من وراء حجاب ، فذكرت لها قول الراهب . قال: فقالت « ياليت شعرى أى داء يسمى به : دواء الإفاقة أم دواء الراحة ! » فقالت: بيئي ما تقولين .

* للمخطوط ترقيان اصفحانه أحد ما بالعربية والآخر بالافغانية وختلفان بقدر ورقة ، وقد اخترنا الثاني .

(١) وردت مكررة في الأصل. (٢) س : أنتي (٣) س : قوم . (٤) س : صير.

فقالت : « أما دواء الإفاقة فالكثُر عن محارم الله تعالى ؛ وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى ». قال سرى : فوالله ما خرج كلامها من قابي أبداً . وقال أحد : سمعت رابعة تقول : ما رأيت ثالجًا إلا تذكرت به تطاير الصحف ، ولا جرادًا إلا ذكرت به الحشر ، ولا سمعت أذاناً إلا تذكرت به منادي يوم القيمة .

قال : ودفعت إلى يوماً خمسة درام وقالت : تزوج بهذه أو تَسْرِي^(١) ، فإني أستغفر عنك .

قال : وكانت تطبخ الطبيخ وتقول : كل اللحم فإنك عهد بـرس وتحتاج إليه .

وكان لأحمد أربع نسوة .

قال أحد : وكان لها أحوال في الخبرة ، فتارة تقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ولا سواه^(٢) فقلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وسمى ولكن عن فؤادى ما يغيب
وتارة يطلب عليها الأنس فتقول :
ولقد جعلتك في الفؤاد مُحَدَّثَى
فالجسم منى للجليس مؤانس
وتارة يطلب عليها الخوف فتقول :

وزادى قليل ما^(٣) أراه مُبَلَّغَى
الزاد أبكى ؟ أم لطول مسافتى ؟
أُنحرقى بالنار يا غاية المدى ؟
فأين رجائى فيك ! أين مخافتى ؟ !
 توفيت رابعة قبل أحد في سنة تسع وعشرين ومائتين رحمة الله عليها .

(١) ص : تسري . (٢) ص : سواه . (٣) ص : لم .

كتاب * « فتحات الأنف من حضرة القدس » عبد الرحمن الجامي
تعریب تاج الدين زکریا المعنی ، مخطوط بالمکتبة الأهلية بباريس
برقم ١٣٧٠ عربي ، ورقة ١٢٣٦ :

رابعة العدوية رضي الله عنها

كانت من البصرة ، ويسأل منها سفيان الثورى مسائل ويدعو عنها
ويرغب إلى موئذتها ودعائهما . في يوماً دخل عليها سفيان الثورى وقال : اللهم إني
أسألكَ السلامَةَ . فبكَتْ رابعةَ . فسألها سفيان : ما يبكِيكَ . قالتْ : أنتْ أبْكِيَتْنِي
قال سفيان : بمْ ؟ قالتْ : أَمَا عَلِمْتُ أَنَّ السَّلَامَةَ فِي تَرْكِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ مُشْتَقِلٌ بِهَا !
قالتْ رابعةَ : لِكُلِّ شَيْءٍ ثُمَّرَةٌ ؛ وَثُمَّرَةُ الْمَعْرِفَةِ تَوَلِّ الْوَجْهَ إِلَى اللَّهِ^(١) تَعَالَى .
وأيضاً عنها قالتْ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَلْهَ صَدِيقِي فِي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ .
سألها سفيان (٢٣٦ ب) : أَيْ شَيْءٍ أَفْضَلَ أَنْ يَقْرَبَ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ ؟
قالتْ : أَلَا تَطْلُبُ مِنَ الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ غَيْرَهُ .
ويوماً قال سفيان عندها : واحزناه ! قالتْ : لا تقل الكذب ! إنْ كُنْتَ
أَنْتَ مُحْزُونًا لَا تَسْكُنْ مَسْرُورًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .
وأيضاً عنها قالتْ : لَا يَكُونُ حَزْنِي أَنْ أَكُونَ مُحْزُونَةً ، بَلْ حَزْنِي أَنِّي
مَا كُنْتُ مُحْزُونَةً .

* * *

(٢٣٧ ب) رابعة الشامية رحمها الله تعالى .

هي زوجة أحمد بن أبي الحواري ، قال أحمد بن أبي الحواري : كانت

(١) كلام الله غير واضح في المخطوط . وهذا الموضع والصفحات التالية عليه آثار سوداء
شوهدت . فلا يقرأ إلا بناء شديد .

* المخطوط يقع في ٤٥ ورقة حجم ٢١٥ × ٥٥ مسطرته ٢٥ تاریخ نسخة ١١٠٤ .

مختلفة الأحوال . يغلب عليها المشق والمحبة ، مرة أنس ، ومرة خوف ، وفي حال غلة الحب تقول (شعراء) :

حبيب ليس به دله حبيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى
ولكن عن فؤادى لا يغيب
وتنقول في حالة الأنس (شعراء) :

ولقد جعلتك في الفؤاد مخذلى
وأبحث جسمى من أراد جلوسى
فالجسم مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمتها تقول في حالة الخوف (شعراء) :

وزادى قليل ما أراه مُبلِقًا
اللزاز أبكى ، أم لطول مسافتى ؟!
آخرقنى بالنـار يا غاية المـنى
فأين رجائـى منك ، أين مخافـى ؟!
وتقول لأحد بن أبي الحوارى : لست أحـبـك حـبـ الأـزواـج ، إنـما أحـبـك
حب الإـخـوان . وكانت لما نطبخ الطعام تقول : كل يا سيدى فـا طـبخـتـ هـذـا
الـطـعـامـ إـلاـ بـالـتـسيـعـ .

قال أحد بن أبي الحوارى يوماً : كان عندها طشت . قالت : ارفع هذا
الطشت لأنى أرى أن الأمير هارون مات . وبعد تفحص تحقق [أن] مات هارون
الرشيد ذلك النهار .

فهرس الكتب

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع:
٦٢ ، ١١١ ، ١٧٠ .

(ج)

جامع الأصول في الأولياء وانواعهم:
٦٩ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٤١ ، ١٩ .

حلية الأولياء: ٦٧ ، ١٠١ ، ١١٠ .
١٥٧ .

حياة القلوب: ١٠٧ ، ١٨ .
الحيوان: ١٠٨ .

(د)

دائرة المعارف الإسلامية: ٣ .

(د)

رابعة وزميلاتها المتصوفات في الإسلام:
٤٢ .

الرد على العريبة: ١١٢ ، ٣٩ .

الرسالة القشيرية: ٢٨ ، ٢١ .
١٢٤ ، ٢٨ ، ٢١ .
روض الرياحين في مناقب الصالحين:
٤٩ ، ٤٦٥ .

الروض الفائق في الموعظ والرقائق:
٧٤ ، ٧١ ، ٥٢ ، ٤٨ ، ٢٤ ، ٢٣
١٦١ .

(ذ)

الرمان الوجودي: ٢٨ .

(س)

سير السالكين المؤمنات الخيرات:
١٧٤ .

(١)

اتحاف الأخضرى في فضائل المسجد
الأقصى: ٩٧ .

اتحاف السادة المتقيين: ٥١ ، ١١ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٠٢ .
١٨ ، ٩ .

احياء علوم الدين: ١١٨ ، ٧٠ .
أخبار الحلاج: ٢٧ .

الاستقامة: ١١١ .
أسرار التوحيد: ١٠٩ .

الالحاد في الاسلام: ٨٥ ، ٨١ .
المى نامه: ١٥٨ .
الأنساب: ٩ .

الأنس الجليل: ٩٧ .
الإنسانية والوجودية في الفكر
العربي: ٧١ .

(ب)

بحث في نشأة المصطلح الفنى للتصوف
الإسلامى: ٢٣ ، ٢٨ ، ٦٠ ، ٧٠ .
١٠٤ ، ١٠٣ .

بلاد الخلافة الشرقية: ٣ .
البيان والتبيين: ١٠٨ ، ٩ .

(ب)

تذكرة الأولياء: ٦٧ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣١ ،
٢٦ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٢٦ ،
٩٤ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٧٨
١٦٨ ، ١٤٢ ، ١٠١ ، ٩٥ .

التعرف للذهب اهل التصوف: ٢١ ،
٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٩ .

(ق)

- قوت القلوب : ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٥ ، ٥٤ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ١٧ ، ١١٠ ،
١٢١ ، ١١٩ ، ١١٩ ، ١١٣

(ك)

- كشف المحجوب : ١٩ ، ٨٩ ،
الشكول : ١٦٤ ، ١٦٥ ،
كنوز الأولياء ورموز الأسفين : ١٦٩

(ل)

- لسان العرب : ٥٩ ،
اللمع : ١٠٨ ، ٨٨

(م)

- مشير الفرام : ٩٧ ،
مجموع نصوص غير منشورة خاصة
بالتصوف الإسلامي : ٥١٠٢٩ ،
مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات :
٩٣

- مجموعة الرسائل والسائل : ٨٠ ،
١٢١ ، ١١٢ ، ٨٢
مرآة الزمان : ٢٤ ، ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٠

- مسارع العشاق : ٢٠ ، ٧٢ ، ١٢٢ ،
١٢٢ ، ٠

- معجم البلدان : ٩٩ ، ٨٩ ، ٥ ، ٣

- مناقب الأبرار وشعار الآخيار : ٤٥ ،
١١٢ ، ٩ ، ٠

- مناقب العارفين : ١١٢ ، ٩ ، ٠

- المنحنى الشخصي لحياة العلاج : ٣٩ ، ٠

(ن)

- النجوم الراهرة : ٩ ، ٣ ، ٢٤ ، ٢٠ ،
١٦٤ ، ١٠٢

- نفحات الأننس من حضرة القدس :
١٨١ ، ١٦٨ ، ٥

(و)

- وفيات الأعيان : ٢٠ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
١٠٣

(ش)

- شخصيات قلقة في الإسلام : ١٣ ،
٢٦ ، ٢٩ ، ٢٦

- شذرات الذهب : ١١٢ ، ١٠٢ ، ٩٨ ،
١٧ ، ٠

- شرح حال الأولياء : ١٧٢ ، ٠
شطحات الصوفية : ٩٢ ، ٠
شكوى : ١١١ ، ٥١ ، ٠

(ص)

- صعود الكرمل : ٧٧ ، ٠
صفة الصفوّة : ٦ ، ٢٩ ، ٢٩ ، ٢١ ،
٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٤٩ ، ٤٧ ،
١٢٨ ، ١٢٤ ، ١٠٢
صورة الأرض : ٣ ، ٥ ، ٠

(ط)

- طبقات الأولياء : ٤٢ ، ١١ ، ٥ ، ٤٢ ،
٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ٩٨ ، ٠
طبقات الشعراني : ٥٢ ، ٥٢ ، ١٠٧ ، ١٠١ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٢ ، ٣٥ ، ٠
طبقات الصوفية : ٢١ ، ٢١ ، ٠
٧٩ ، ١٠٢ ، ٠
طبقات الكبرى : ١١ ، ٠

(ع)

- عذاب العلاج : ٧٠ ، ٠
عقلاء المجانين : ٢٢ ، ٢٦ ، ٠
عوارف المعرف : ٥٣ ، ٥٣ ، ٢١ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٠
عيون التواريخ : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ، ٠
١٠٢ ، ١٢٢ ، ٠

(ف)

- فاوست الثاني : ٧٤ ، ٠

فهرس الأعلام

- (١)
- | | |
|-------------------------------------|---|
| ابن القيسري: ٩٨ . | ابراهيم بن احمد القرميسي: ١٢٩ . |
| ابن محمد النامي: ١٢٥ . | ابراهيم بن ادهم: ١٩ ، ٣٨ ، ٢٧ . |
| ابن المقفع: ٨٦ ، ٨٥ . | ابراهيم بن ملويه: ٥٣ ، ٤١ ، ٤٠ ، ١٦٠ ، ١١٣ ، ٥٨ . |
| ابن منظور: ١٢٦ ، ١٧٤ . | ابراهيم بن مطر: ٤٦ ، ٤٥ ، ١٧ . |
| ابن يحيى: ١٢٢ . | ابراهيم بن بشار الرمادي: ١٢٥ . |
| ابو اسماء بن منيب العتكي: ٩ . | ابراهيم بن محمد الزركي: ١٢٤ . |
| ابو بكر البرقاني: ١٢٤ . | ابراهيم بن يوسف: ١٢٩ . |
| ابو بكر الحصني: ١٧٤ . | ابراهيم الخليل (عليه السلام): ٦٢ . |
| ابو بكر القرشى: (انظر القرشى) . | ابراهيم الشرباصي: ١٠١ . |
| ابو بكر الكلبازى: (انظر الكلبازى) . | ابن ابن عياش: ٥٩ . |
| ابو بكر محمد الاردستاني: ١٢٩ . | ابن ابن الدنيا: ١٢٢ ، ١٨٢ . |
| ابو جعفر الرازى: ١٢١ . | ابن ابن عبيدة: ٥ . |
| ابو جعفر المدىنى: ١٢٦ . | ابن تفرى بردى: ٣٠ ، ٩ ، ١٠٢ ، ٣٤ . |
| ابو الحسين بن عبد الجبار: ١٢٥ . | ابن تيمية: ٢٨ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٨٢ . |
| ابو الحسين المطلي: ٦١ ، ٦٢ ، ١١١ . | ابن الجوزى: ١٢١ ، ١١٢ ، ٨٤ . |
| ١٧٠ . | ابو الحسن الشافعى: ٣٠ ، ٢٩ ، ٢١ ، ٦ . |
| ابو الحلال: ٩ . | ابو الحسن العساري: ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ . |
| ابو حنيفة: ٣١ . | ابو الحسن شبل: ١٢٩ . |
| ابو الغير الاقطع: ٨٨ ، ٨٩ . | ابو الحسن سعيد: ٧٨٦٤ ، ٣٩ ، ٢٨ ، ٢٤ . |
| ابو السعود بن شبل: ١٢٩ . | ابن حبيب البزار: ١٢٥ . |
| ابو سعيد بن أبي الخير: ١٠٩ . | ابن حوقل: ٥ . |
| ابو سعيد الخراز: ١٢٢ . | ابن خلكان: ١٠٢ ، ٣٠ ، ١١ ، ٩ . |
| ابو سليمان الدارانى: ٢٨ ، ٣١ ، ٤٥ . | ابن الرواوندى: ٨٢ ، ٨١ . |
| ٥٨ ، ١١٣ ، ٧٦ ، ٤٠ ، ٢٩ ، ١١٢ . | ابن شاكر الكتبى: ٩٧٢١ ، ١١ ، ٦ . |
| ابو طالب العساري: ١٢٤ . | ١٠٢ - ٢٢ ، ٣ . |
| ابو طالب المكى: ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ . | ابن عربي: ٨٦ ، ١٢٨ . |
| ٧٠ ، ١٠٧ ، ٧٠ . | ابو عبد الرحمن السلمى: ١٢٨ ، ٤٤ . |
| ابو عبد الله الجهمى: ٤٥ . | ابن العماد الخنبلى: ١٢ - ١٠٢ ، ٧٠ . |
| ابو عبد الله النباجى: ٤٥ . | |
| ابو عبد الرحمن السلمى: ١٢٨ ، ٤٤ . | |

- | | |
|--|---|
| <p>الاسود بن كلثوم: ١٠٨ .</p> <p>الأفلاكى: ٩١، ٩٢ .</p> <p>الوسى: ١١٢ .</p> <p>أم الخير: ١٦١ .</p> <p>أم الدرداء: ١٠٨ .</p> <p>أوستيا: ١٤ .</p> <p>أوغسطين: ١٤، ١٧ .</p> <p>ايوب السجستانى: ١٠٨ .</p> <p>(ب)</p> <p>باقيه دى كورتى: ١٥٧، ٧ .</p> <p>بجالة بن عبد العبريان: ١٠٨ .</p> <p>بشر بن الحارث الحافى: ٥٧ .</p> <p>بشر بن الرى: ٤٥ .</p> <p>بشر بن منصور: ١٢٨ .</p> <p>بلال بن رباح: ١٢، ١٣ .</p> <p>بهاء الدين العاملى: ٦٤، ٦٥ .</p> <p>بولس: ١٧، ١٤ .</p> <p>(ت)</p> <p>تاج الدين زكريا العثمانى: ١٨١ .</p> <p>تریز الابلاوية: ٦، ٧، ١٦، ١٨ .</p> <p>التوزى: ١٢٢ .</p> <p>التویرجي القشنبى: ٧٢ .</p> <p>(ج)</p> <p>الجاحظ: ١٠٨، ٩ .</p> <p>چامى: ٥٠ .</p> <p>جبريل (عليه السلام): ٢٨ .</p> <p>جرتش: ٧٤ .</p> <p>عمر بن احمد السراج: ١٢٦ .</p> <p>عمر بن جرفانس: ١٠٨ .</p> <p>عمر بن زيد العبدى: ١٠٨ .</p> <p>عمر بن سليم: ١٢٧ .</p> <p>عمر بن سليمان الضبعى: ٦٥ .</p> <p>عمر بن هرون: ١٧٥ .</p> <p>اسحق بن احمد بن على: ١٢٩ .</p> | <p>٧٩، ٣١، ٢٩ .</p> <p>ابو علي القارمدى: ٣٦، ٢٨، ٣٦ .</p> <p>ابو علي الفقيه: ١١٠ .</p> <p>ابو الفنايم بن التمرسى: ٤٥، ١٢٩ .</p> <p>ابو القاسم الحريرى: ١٢٤ .</p> <p>ابو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى: ٢٦، ٢٢، ١١٣ .</p> <p>ابو القاسم الحسن بن محمد حبيب: ١١٢ .</p> <p>ابو القاسم الزيدى: ٨٧ .</p> <p>ابو الليث المتكى: ٩ .</p> <p>ابو الليث محرم الزيلى: ١٦٩ .</p> <p>ابو محمد الحالى: ١٢٩ .</p> <p>ابو معمر: ١٢٢ .</p> <p>ابو معمر عبد الله بن عمرو: ١١٠ .</p> <p>ابو ناصر: ٤٥ .</p> <p>ابو نصرة: ٩ .</p> <p>ابو نعيم: ٥٣ .</p> <p>ابو هريرة: ١٧٢ .</p> <p>ابو يزيد البسطامى: ٩٢ .</p> <p>احمد بن ابي الحوارى: ١١ .</p> <p>٤، ٢٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤ .</p> <p>٥٠، ٤٩، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤ .</p> <p>٢٨، ٢٦، ١١٣، ٩٩، ٩٨، ٥٢ .</p> <p>٦٧، ٦٦، ٤٠، ٣١، ٣٠، ٢٩ .</p> <p>٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٦ .</p> <p>٨٢ .</p> <p>احمد بن جعفر بن سلم: ١٢٥ .</p> <p>احمد بن عبد الخالق: ١٢٥ .</p> <p>احمد بن على التوادى: ١٢٦ .</p> <p>احمد سامح الخالدى: ٩٧ .</p> <p>٠، ٢١، ٧٨، ٨٨، ١٠٩ .</p> <p>ازهر بن مروان: ١٢٦ .</p> <p>ازهر بن هرون: ١٧٥ .</p> <p>اسحق بن احمد بن على: ١٢٩ .</p> |
|--|---|

- | | |
|---|--|
| <p>(د)</p> <p>رابعة العدوية: ٠٠٠، ٨، ٧، ٦
 (ومن هنا يرد ذكر اسمها الى آخر الكتاب) ..
 راشد بن علقة الاهوازى: ١١٥ .
 رابعه الشامية: ١١، ٤٤، ٤٥، ٤٤، ٩٨، ٥٣، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧
 ، ٦٦، ٣٩، ٢٩، ٢٦، ١٠٠، ٩٩
 ، ٠٨١، ٧٦، ٧٧
 رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب: ٣١، ١٢٦ .
 رياح بن عمرو القينى: ١٩٦، ١٨، ٥
 ، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٥٨، ٥٢، ٢٤
 ، ٢٥، ٢٢، ١٣، ١١، ١٠، ١.٣
 ، ٧٥، ٧٤، ٧١، ٤١، ٢٥
 ريحانة: ٠٦١، ١٧، ١٦، ١١٢ .</p> <p>(ز)</p> <p>الزبيدي: ١١، ٥١، ٦٥، ٦٣، ٥١
 ، ٢٢، ٢١، ١٨، ٩، ١٠٢، ٧٢ .</p> <p>(س)</p> <p>السراج القارى: ٢٠، ٧٢، ٧٢
 ، ٣٣، ٢٢، ١٠٨، ٨٨
 السرى السقطى: ٢٢، ٨٨، ٨٨
 ، ١٧٠، ٠٨٠، ٧٩
 سعد بن عثمان: ١٦٢، ٧٠ .
 سعيد بن المسيب: ٢١ .
 سفيان بن عيينة: ٤٥ .
 سفيان الثورى: ٩٠، ٦٥، ٣١، ٩
 ، ٢٧، ٢٦، ١٨، ٩، ٨، ١٠.٣
 ، ٦٤، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٣٨، ٣٧
 ، ٠٨١، ٧٥، ٧٠، ٦٩
 سقراط: ١٤ .
 سلام الاسود: ١٦، ١١٥ .
 سلمان الفارس: ١٢، ١٢ .
 سلمونة: ١١٧ .</p> | <p>جعفر الصادق: ٥٩ .
 جيته: ٨٢ .</p> <p>(ح)</p> <p>حاتم بن الليث الجوهرى: ١٢٤ .
 الحارث بن سعيد: ١١٤ .
 حبيب بن ابى ثابت: ١٠٨ .
 حرب بن جر fas: ١٠٨ .
 الحريفيش: ٢٢، ٢٤، ٨٤، ٧٠، ٥٢ .
 الحسن البصري: ٢٤، ٢١، ١٨، ٥
 ، ٥٦، ٥٥، ٥٣، ٥٠، ٤٩، ٤٨
 ، ٤٤، ١٠٣، ٩٦، ٩٤، ٨٨، ٥٨
 ، ٤٥، ٥٤، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٢
 ، ٦٣، ٦٢، ٥٨، ٥٦ .
 الحسن بن احمد الفقيه: ١٢٥ .
 الحسن بن عبد الملك بن يوسف: ١٢٩ .
 الحسين بن صفوان: ٢٧، ٢٦، ١٢٢ .
 ، ٢٤، ٣٣ .
 الحلاج: ٠٨٩، ٧٤، ٧٠، ٢٩، ٢٧ .
 حماد بن زيد: ١١٨، ٦٥ .
 حماد بن سلمة: ٩ .
 حيونة: ١١٦، ١١٥، ٢٦ .</p> <p>(خ)</p> <p>الحضر (عليه السلام): ١٤١ .</p> <p>(د)</p> <p>دلف: ١٤ .
 الدارانى: (انظر ابا سليمان الدرانى).</p> <p>(ز)</p> <p>الذهبى: ١٦٤ .
 ذو النون المصرى: ٥٩، ٧٢، ٧١ .
 ، ٦٢، ١٢٢، ٧٣ .
 ذيوجانس: ٩١ .</p> |
|---|--|

- | | |
|--|--|
| عبد العزيز الراسي: ١٦٤، ٢٤
عبد القادر الجيلاني: ٥٧، ٥٨
عبد الوارث: ١٢٢، ٢٤
عبد الواحد بن بكر: ١٢٩
عبد الواحد بن زيد: ٣٢، ٥٠، ٥١
عبد الواحد بن معاذ: ٥٩، ٥٨
عبد الواحد بن معاذ: ١٠٤، ٦٥، ٦٠
عبد الواحد بن معاذ: ١٦٦، ١١
عبدة بنت أبي شوان: ١٢٧
عبيدة بنت أبي كلاب: ١٧٠، ٧٥
عتبة بن غزوان: ٢
العتيقى: ١٢٥
عتيبة بن التضر: ٩
عثمان بن أدهم: ١٠٨
عثمان بن عمر بن المثاب: ١٢٥
عصام بن عثمان الحلبي: ١٤٣
العطار: ١٢٦، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧
، ٢١، ٢٢، ٢٢، ١٦، ١٥، ١٤
، ٤٢، ٤٢، ٤٠، ٢٨، ٢٧، ٢٦
، ٨٩، ٨٨، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٥٠
، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٢، ٩١، ٩٠
، ٦٩، ٦٨، ٥٨، ٤٢، ٣٠، ١٠١
على بن عمر بن على التجار: ١٢٩
على بن الحسن التنوخي: ١٢٧، ٢٢
على بن محمد بن الشراق: ١٢٧
على بن محمد بن الشران: ١٢٧
على بن موفق: ١٢٩
على العزيزى: ١١٢، ٢٨
على عمر الخلي: ١٢٧
عمر بن الخطاب: ٣، ٥٤
عمر بن محمد: ١٢٩
عمواس: ١٤
عنيس بن مرحوم العطار: ١٢٧
عن بن ابراهيم: ١٢١
عيسى زادان: ٣٢، ٨
عين القضاة البمنذانى: ٥١، ١١١ | السندوبي: ١٠٨
السهوردى: ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦
سهل بن سعد: ١١٧
سيف بن سبعة: ٩
(ش)
الشجا الخارجية: ١٠٨
الشعراوى: ١٠٧، ٥٣، ١١
شعوانه: ١٦١
شقيق البخى: ٨٨
شمس الدين السيوطي: ٩٧
شيبان بن فروخ: ٢٧، ١٢٦
شيخو: ١٦٩
(ص)
صالح بن عبد الجليل: ١٢٦، ٧٥
صلة بن اثنيم: ١٠٨
صهيب الرومى: ١٢
(ض)
ضياء الدين الكمشخانلى: ٤١، ١٩
، ٦٠
(ع)
عامر بن عبد قيس: ١٠٨
العباس بن حمزة: ١٢١
العباس بن الوليد: ١٢٦
عباسه الطوسى: ١٤٢
عبد اسحق بن ابراهيم: ١٢٥
عبد الله بن ايوب: ١٢٦
عبد الله بن عمر: ١٧٢، ٩
عبد الله بن عيسى: ١٢٤، ٧٤، ٢٢
عبد الله بن الولى بن أبي الحوارى: ٤٥
عبد الرحمن بن عبد الله القرشى:
، ١٣٣
عبد الرحمن الجامى: ١٦٨، ٨١ |
|--|--|

- | | |
|--|--|
| محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١٤٠ ،
٨٥٤ ، ٧٢ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤
، ٧١ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ١٢٢
. ٧٢ | (غ)
الفزالي : ٣٦ ، ٧٠ ، ١١٨ .
(ف)
فرنسيسكو الاسيري : ٩٤ ، ٩٣ .
فريد الدين العطار : (انظر العطار) .
فشتلند : ٩٩ ، ٥ ، ٣ .
الفضل بن موسى البصري : ١٢٥ .
الفضيل بن عياض : ٣١ .
فيلين : ٢٨ . |
| محمد بن أبي حاتم : ١٢٥ .
محمد بن أبي منصور : ١٢٥ ، ٢٦ ، ١٢٥
. ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٧ | (ق)
قنادة : ٩ .
القرشى : ١٢٦ ، ٢١ ، ٣٠ ، ١٢٧ ، ٢٠ ، ١٢٧ .
. ٣٤ |
| محمد بن ابريس : ١٢٦ ، ١٢٠ ، ١٢٠ .
محمد بن اسحق السراج : ١٢٤ ، ١٢٩ .
محمد بن اسلم الطوسي : ١٠١ ، ١٥٧ .
محمد بن الحسين : ١٢٦ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ١٢٦
. ٣٤ | (ك)
كرامرز : ٥ ، ٣ .
كراوس : ٢٧ .
كلاب : ٧٥ ، ١٢٦ .
الكلبادى : ٦٩ ، ٢١ ، ٨٨ ، ١٠٩ .
كليب : ١٢٦ ، ١٥٧ . |
| محمد بن سليمان الهاشمى : ٥١ ، ٥٠ .
. ٣٥ ، ١٨ ، ١٠٣ ، ٥٩ ، ٥٨
محمد بن طيفور : ١٢٩ .
محمد بن عبد الله الدفاق : ١٢٦ ، ١٢٦ .
محمد بن عبد الله القطيعى : ١٣٣ ، ١٣٤
محمد بن عبد الباقي : ١٢٦ ، ٢٩ ، ١٢٦ .
. ٣١ ، ٣٠ | (ل)
لosteranج : ٣ .
ليس : ٥٠ ، ١٦٩ .
ليقى لاقيدا : ٧٢ .
لosteranج : ٣ . |
| محمد بن عبده بن حرب القاضى : ١٢٧ .
محمد بن على الانسوى : ١٠٧ .
محمد بن على الكوفى : ١٢٧ .
محمد بن عمرو : ١٢٥ ، ١٣٢ .
محمد بن محمد النجار الرازى : ١٢٩ .
محمد بن هبة الله الطبرى : ١٢٧ .
محمد بن واسع : ١٠٨ .
مذعور بن الطفيل : ١٠٨ .
المرتضى الزبيدى : (انظر الزبيدى) .
مروان بن معاوية الفزارى : ٤٥ .
مريم (عليها السلام) : ١٤٢ . | (م)
مارجرت اسمث : ٤٢ .
ماسينون : ١٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٣ .
، ٣٨ ، ٥٩ ، ٥١ ، ١٣ ، ٧٠ ، ٦٠ .
، ٤٤ ، ١١ ، ١٠ .
مالك بن دينار : ٥٣ ، ٨٨ ، ٧٩ ، ٥٩ .
. ١١١ ، ٣٧ .
المحاسى : ٦٧ ، ٦٠ . |

